مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب

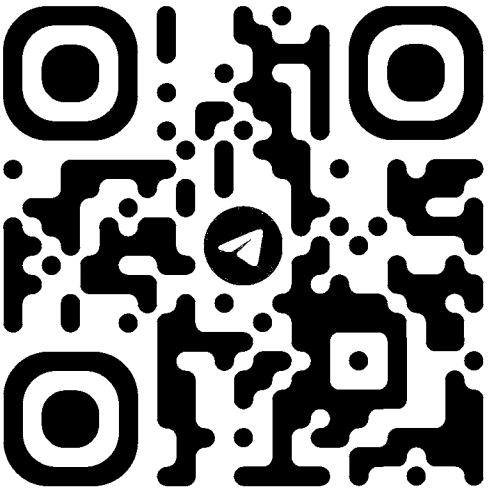

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

عبدالله البصيص

الإنسان مخلوقٌ وحيدٌ

«أيها القارئ ضع عقلك هنا، إذا كنت تريد أن تعرف الحقيقة، وتابع القراءة، فإذا وصلت إلى الخاتمة فاعلم أنها ليست لك، بل للأجيال القادمة.»

أمير الظلام

الإنسان مخلوقٌ وحيدٌ

تأليف: عبدالله البصيص

الطبعة الثانية 2022

رقم الإيداع: 2022/29264

الترقيم الدولي: 978-977-992-198-3

جميع الحقوق محفوظة ©

مكتبة

t.me/soramnqraa

منشورات وسم - دار عصير الكتب للنشر والتوزيع

الكويت - العاصمة - القبلة - شارع فهد السالم

عمارة أسامة - الدور الأول س - مكتب رقم 26

البريد الإلكتروني: wasm_publishing@hotmail.com

عبدالله البصيص

الإنسان مخلوقٌ وحيدٌ (*)

روايةٌ

مكتبة
t.me/soramnqraa

---

* دخلت المكتب رقم 29 في إدارتنا؛ مكتب زميلنا عبد الله ذا الباب المُغلق دائمًا، لأطلُبَ منه أن يكتب قصّتي. وجدتُه مسترخِيًا على أريكته، يقرأ كتابًا عنوانه: «دون كيشوت». اعتدَلَ وابتسم بتكلُّف، ورحَّب بي: «أهلًا وحيد، كيف حالك؟». هززتُ رأسي: «أحاوِلُ أن أبدو

بخير».

وضعتُ ثِقَل الموضوع في صوتي، وطلبتُ منه أن يكتب قصَّتي إذا أراد أن يدخل التاريخ، جمَّد وجهه لحظة ثم اعتذر بأنّه مشغول بكتابة رواية، ولا يريد أن ينشغل بشيء آخر، أخبرتُه أنَّ قصتي ستركض باسمه في طريق الشُّهرة الذي لا تزال رواياته الثّلاث تحبو به. تركني وعاد يقرأ الكتاب.

قبل أن يُغلِق الباب نصحته أن يبحث في اليوتيوب عن فيديوهات الدّكتور «مصلح رشيد»، لأنّها ستجعله يرى الأشياء بصورتها الحقيقيّة.

لم أشعر بالإحباط لأنّني أعلم مِن قصص العظماء التي قرأتها، أنَّ الخِذلان هو أبسط ما يواجهه الإنسان العظيم من قومه.

يعمل عبد الله في الإدارة منذ تِسْع سنوات، حيث يكاد لا يعرف أحدًا من الزملاء، ولديّ تحفُّظ على مَن يحملون الأسماء الإيمانيّة: عبد الله، عبد الرحمن، عبد العزيز، مؤمن، مسلم. لا أستطيع إبداء انطباع عنهم أو موقف؛ لذلك حافظتُ منذ جاء إلى إدارتنا على عدم الاقتراب من مكتبه الذي يُبقي بابه مغلَقًا.

كان هذا قبل أن يراني في الساحة الأماميّة لمبنى العمل، أنال من ثلاثة من الأعداء، وفي يدي منشاري الكهربائي الأصفر عديم الرحمة.

عندما لقيته بعد ذلك بثلاثةِ أيام عند المصعد المؤدّي إلى إدارتنا، وكانت علامات النَّدم تفضح وجهه بسبب رفضه كتابة قصّتي، دعاني إلى مكتبه، خمَّنت بسهولة أنّه تأثَّر بالخطبة التي ألقيتها، بعد أن أسقطت الأعداء في الساحة الأمامية أرضًا، وعلم أنّه فوَّت فرصة كانت ستُدخله التّاريخ. طرقت الباب فسمعت صوته يقول: «تفضَّل».

وجدتُه جالسًا على أريكته، وبين يدَيْه كتاب بعنوان «تاريخ الجنون»، جلست أمامه فاستبقت روتينيّة التحية: «بخير، وأسعى إلى أن أجعل العالم بخير. لماذا طلبت حضوري؟». وضعَ الكتاب جانبًا وقال: «لماذا فعلتَ ما فعلتَ في الساحة الأمامية قبل ثلاثة أيام؟»، سألته: «وستكتب ما أقوله لك؟». حاول المراوغة بـ: «دعنا من الكتابة الآن، أريد أن أعرف فقط ما الذي دفعك أن تقـ..» قاطعتُه: «هههه، الإنسان مخلوق يريد أن يعرف فقط، اسمع.. لن أخبرك إلا إذا أردت أن تكتب، فقصّتي للاقتداء وليس لتزجية الوقت». طالعني دقيقة بصمت فاترٍ، وهو ينقر بإصبعه على غلاف الكتاب، ثم قال: «أنا زميلك منذ تسعِ سنوات، وأريد أن أطمئن على...»، واجهتُه بالحقيقة بلا مُقدِّمات: «بل تريد أن تكتب قصّتي وتُغيِّر الأسماء ثم تحصل على الثناء بسبب تعب غيرِك». حاول أن يواري انكشاف أمره بضحكة باردة، ثم قال: «لا لا، اهدأ، لن أفعل هذا بالتّأكيد، وإذا فكَّرت بذلك فسيكون بموافقتك». قمتُ دونَ أن أخبره

بالحقيقة، فعقله لا يزال غير مهيَّأ لاستقبالها، وقبل أن أغلق الباب خلفي، قلت: «ادخل اليوتيوب، ابحث عن فيديوهات الدّكتور مصلح رشيد، وافهم كيف يعمل العقل قبل أن تفهم كيف يعمل الجنون؟ سلام».

ولكن في المرة الثّالثة، بعدها بشهر، وكنت قد خرجتُ من المخفر، وبدأت أُخبِرُ الجميع أنني أنا أمير الظلام بشحمه ولحمه، وقَفَ عند باب مكتبي لأوَّل مرة منذ تسع سنوات، كنت أقرأ كتاب «مقولات العظماء»، وطلب مني أن نجلس في مكتبه، حينها كنتُ مستعدًّا لإخبار عمال النظافة، وأصحاب المشاتل، ومرتادي لعبة الفورت نايت، بقصتي بلا مقابل.

فدخلتُ مكتبَه دون استئذان، راصًّا كتاب «مقولات العظماء» إلى جنبي، وسألته حين جلست أمامه:

«هل شاهدتَ فيديوهات الدّكتور مصلح رشيد؟».

هزَّ رأسه: «نعم».

«ما رأيك بها؟».

صمت ثواني ثم أجاب بتردُّد: «عادية».

«عادية!»، انفعلت: «تقول إنَّها عادية.. هههه.. هذا لأنّك عادي، ولأنّك ترى العالم من خلال أعين من سبقوك في الحياة لا بعينك أنت.. لأنَّ شكل قالب عقلك مثلّث صغير وصلب.. أما أنا -أحد العظماء الذين مرّوا على الأرض- فإنّها جعلتني أرى حقيقة الأشياء، مهما تظاهرت الأشياء بإظهار أنّها ليست كذلك.. عاديّة هههه.. هل تظنّ أنّني أحمق حتّى لا أميِّز الأشياء العاديّة؟».

بان على وجهه الحَرَج، فحاول التبرير: «لا.. لا أقصد أنّها سخيفة، قلتُ عادية لأنّني..».

فقلتُ حِكمتي الخالدة: «الاعتراف بالجَهل أوَّل عتبات العلم»، أخذ كتابًا من جانبه ودوَّن حكمتي على الصفحة الأولى.

فقلتُ بصوتٍ خافت: «لديّ الكثير من المقولات العظيمة، إذا كتبتُ قصتي ستنتشر بين النّاس وستكون الحياة أفضل من أيِّ وقت.. ألن تكتبها؟».

لا بدّ أنّه استشعر إيماني بما أقول، حيث كانت كلماتي صادرة عن قلبي، فقال: «ربَّما.. ولن أقول أكثر من ربما».

أخرجتُ سيجارةً ودخّنتها بالرغم من تلك الورقة على الجدار التي تقول «ممنوع التدخين»، فقد كنت بحاجة إلى طعمٍ أنثويّ يبسط ثنايا الحديث، فاشترطت: «قبل أن نبدأ لديّ شرطان: الأول أن أقرأها إذا انتهيت منها لوضع ملاحظات مهمة، والثاني أن أكتب النهاية بنفسي.. أجل النهاية، لأنّ عقلك لن يحتمل مدى تمرّدها على المعقول.. لن يستطيع أحد كتابتها غيري

أنا، و»حسن صواب»، لكن حسن لا يعرف الكتابة».
هزَّ رأسه متلهِّفًا: «ليس لديّ مانع».
فبدأتُ أمهِّدُ للحقيقة:
«بَنو الإنسان يبيتون الليل مطمئنّين، ولا يعلمون أنَّ هناك مؤامَرة لاستبدال النوع البشري بنوع آخر. أعرف أنَّك ارتعبتَ، وأنَّك تُجيد إخفاء ارتعاشك، لكن لا ترتعِبْ، وتستطيع أن ترتعِش كما شئت، فقد سيطرت على الوضع وأنتم نائمون في الأيام الفائتة، وأخَّرت ساعة الصفر.. أطمئِنُك، لديّ خطّة أعمل عليها الآن مع صديقي «حسن صواب» لنحمي الأجيال التالية، فحتّى تفهم ما أعني أريدك أن تضع عقلك جانبًا لأنَّ ما ستسمعه لن يسير على الخطوط التي وضعها المنطق للحقيقة، وأريدك أن تضع هذه الجملة في بداية الكتاب: أيّها القارئ ضع عقلك هنا إذا كنتَ تريد أن تعرف الحقيقة، وتابع القراءة، فإذا وصلت إلى الخاتِمة فاعلم أنّها ليست لك، بل للأجيال القادمة».

الإنسان مخلوقٌ يستطيع أن يُقدِّر

«لن أسمح لمؤامرتهم بمَسِّ شعرة من رأس الحياة البشريّة».

كانت الرّيح عاتِية، عندما صرخ أمير الظلام بهذه العبارة، وهو يقترب من البوابة الدّاخلية للمخفَر، وفي يده البندقيّة الرَّشّاشة التي استولى عليها من شرطيٍّ صرعه بحركةٍ تثير حسدَ أيّ ساموراي ماهر، وقبل أن يخطو خارجًا واجه شرطيًّا آخر يريد أن يدخل. كان الشرطي يكلِّم أحدًا بنَقّاله، وبدا من وجهه وتسريحة شعره أنَّ له اِسْمًا من الأسماء الأنانيّة: لؤي أو هاني، وربّما فؤاد. لم يأخذ عقلُ الشّرطي البندقيّة التي في يد أمير الظّلام على محمل الجَدّ، بسبب الاعتياد الذي يفسد الانتباه، فالاعتياد رضوخ العقل لحقيقة شكل أو حال، هو نتيجة تكرار حدوث الشيء على نفس الهيئة دون تغيير لفترة من الزمن، حتى يعتقد الناس أنّه ليس له هيئة غيرها يُحدِّث بها. يعرف أمير الظلام هذا لأنّه شاهَدَ الفيديوهات الأربعة للدكتور مصلح رشيد. كشَّر أمير الظلام عن أسنانه، حتى يُري الشرطي الجانب المظلم من شخصيّته فيبتعد عن طريقه؛ إلا أنّ عقل الشرطي الراضخ لم يستفِق

من اعتياده، فلوَّح أمير الظلام بالبندقية، وغلَّظ صوته: «هِيْ أنت... أنا أمير الظّلام بشحمِه ولحمِه»، لم يتبدّل سطح وجه الشُّرطي، فاستنتج أمير الظلام ببديهته السَّريعة أنَّ صوتَه المُضحِك وسُمنته حالا -كالعادة- دون أخذه على محمل الجدّ، فالنّاس اعتادوا على الرَّدّ على أفعال السَّمين بالضحك، وأنَّه لا يؤذي.

لم يكترِث لعدم امتلاكه سمات الهيبة، فالتحدّي أن يُمثِّل قيمته ومبادئه بعيدًا عن القدرات الجسديّة الفانية أو ما اعتاد البشر أن يروه هكذا في أذهانهم.

أطلق النار على السَّقف، فانتبه الشرطي إلى أنه يواجه قلبًا شديد الصلابة، فأفلت نقّاله وتراجع بضع خطوات، يتوسَّل: «أرجوك، أنا عندي عيال»، ثم ولّى هارِبًا.

كانت الرّيح تجرّ معها كلّ شيء، عندما خرج أمير الظلام من المخفر، فلَمَحَ -وهو يتوجَّه إلى سيارته - أحد الأعداء بين الشّارعين، يتخلّى عن تظاهره المخادِع بأنه غير ذلك، فعَلِمَ أنّها ساعة الصِّفر التي خططوا أن يبدؤوا السيطرة منها؛ السّاعة التي ضحّى هو و«حسن صواب» -صديقه الذي منحته الأقدار عينًا لا تفلت منها ذرة حقيقة- بروحيهما من أجل حدوثها. لم تأتِ -إذن- البندقية بين يديه عبثًا، ولم تشتدّ الرّيح لمجرد أنّها تريد أن تعصف. أدرك أمير الظلام أنَّ وقته قد حان، ولا بدّ أن يُلقِّنهم درسًا سيكون عبرة لمن تُسوِّل له نفسه أذيّة العالم؛ فتقدَّم وعلى مُحيّاه ابتسامة يزدري بها الموت، حتى رصد ثلاثة أزوال من الأعداء، حاولوا الالتفاف وراء المخفر، متستّرون بقوّة الرّيح والغبار اللذين يَمنعان من الرؤية، فأطلق عليهم رصاصتين وركض باتجاههم كبطل حقيقي يركض في ريح عاصفة،

وقبل أن يصل إلى الرصيف سمع صوت إحداهنّ تقول: «يا ويلك يا سواد ليلك»، فسقط حاله، حال أيّ بطل يسقط.

فقَدَت الرّيح رُشْدها، فأخذَت تجرّ بساط الأرض من تحت الأقدام، لو أنّه أحدٌ غيره كان سيعدّ صعوبة الرؤية عُذرًا ليؤجِّل القتال. لكن هو أمير الظلام الحقيقي بقلبه الشّجاع، وعقله الجدير بالاحترام، وأيضًا بالمعجزة التي أخرجته من الحادث المميت -قبل تسعة أشهر- سالمًا، لم يكُن ليستسلِم.

تقدَّم بلا خوف حتى وجد نفسه تائهًا في ساحة ترابيّة، تحيط سمعه صافرات الدَّوريات. تمنّى حينها من كلِّ قلبه أن يكون «حسن صواب» معه ليعينه على الرؤية بعينه البيضاء الخارقة للحُجُب؛ فلولا أن قبضَتْ عليه الشُّرطة حينما حسبوه عدوًا -لأنهم يستخدمون عقولهم وفق ما تعلّموه طيلة حياتهم- يوم أمس وهو في مواجهة مجموعة من الأعداء، لكانت عينُه الآن تتحرَّك بحُرِّيَّة في كلِّ الاتجاهات وترصد العدو.

تذكَّر صوت «حسن صواب»، بالرغم من صافرات الدوريات التي كانت في أذنه، تمسك بتلابيب صوت الريح، لمّا قال له ذات مرة:

«سيقف العالم ضدّك وأنت تحاول إنقاذه».

حينها كان المجتمَع منقسِمًا حوله، بين مؤيِّد ومعارض؛ كان المعارِض يطالب بإلقاء القبض عليه أما المؤيِّد فكان يتحدّى إلقاء القبض عليه.

استزاد من نبرة «حسن صواب» الجادة، مستعيدًا الإحساس الحميميّ لقبضته عندما شدّت كتفه حينها، يقول: «لا تستسلم، أرجوك لا تستسلم مهما كان». طمأنه أمير الظلام لحظتها بإيمانٍ تامٍّ: «هذا يتكرَّر دائمًا في

التاريخ، وبعد أن يعرفوا الحقيقة سيقفون ورائي».

عندما رأى أنَّ الجَوَّ يقف ضدّه، سمح للحِكْمة التي يتمتَّع بها عقله، أن تشير له إلى أنَّ إطلاق النار الآن قد يصيب الأبرياء، فرمى البندقية وصرخ: «سأجعلكم تتوسّلون إلى الموت أن ينقذكم من قبضتي»، قال ذلك بلا شفقة.. أجل.. فقد نحّى قلبه المُحبّ للجميع جانبًا، فالنَّصر يميل لصالح قساة القلوب، واسترجع بلمحة بصرٍ كلّ حركات فنون القتال التي يتقنها عن ظهر قلب. لكَمَه الهواء ليُسخّن يديه وهو يتقدَّم مُسطِّرًا أسمى صور التضحية بالنفس من أجل الآخرين، فيما العدوّ لا يزال يستعين بالرّيح لإخراج أنفسهم من الأرض ويندفعون بشراسة. تجشَّأ وهوَّن من قدر الحياة، وصرخ: «واحدًا بعد الآخر، إذا كان لديكم ذرة من شرف الخصومة».

لم يكن اندفاعه متوجِّهًا بسبب قوة الرّيح، فاصطدم بشيء صلبٍ، وأكمل يتخبَّط وهو يفرك عينيه. وظَّف سعاله في صرخةٍ: «واحدًا واحدًا»، فواجه أحدهم، متموِّهًا بأوراقٍ كثيفةٍ، يريد غرس غصن في بطنه، لكنَّ أمير الظّلام فاجأه باستخدام حركة النِّمر الجريح؛ وهي حركة ابتكرها في خياله، يخدِش الهواء ثم يردّ يده فجأة إلى الشيء المراد كسره، فكسَر رقبته ثم راح يهزم الآخرين.

بالرَّغم من هذا الإقدام، فأمير الظلام لا يعُدّ ما فعله شجاعة، فغالبًا ما يكون دافع الشجاعة هو الخوف؛ أجل الخوف، فلا أحد غيره، و«حسن صواب» تجرَّأ ونظر إلى الأعداء بطريقة خارجة عن الصورة الذهنيّة التي اعتاد الناس أن يروهم بها؛ واكتشف حيلتهم، فهو يعلم أنّه إذا تراجع وسمح للخوف أن يمنعه عن مجابهتهم، سيكون العالم مِلكهم في غضون

أسابيع، لأنَّ الناس مساكين، لن يتيح لهم تمسّكهم بمنطق معقولاتهم معرفة حقيقة ما يجري، لا يفكّرون خارج شكل قالب العقل الجمعي، يلعقون بأذهانهم أسطح الأشياء، ولم يشاهدوا مقاطع الدكتور مصلح رشيد على اليوتيوب. يندر فيهم من لديه قُدرة على التفكير خارج «شكل قالب العقل»، مثله ومثل «حسن صواب».

حمل روحَه على كفِّه وجرى بها إلى قلب المعركة، وصرَخَ: «واحدًا بعد الآخر أيّتها الكائنات الحيّة»، إلا أنَّ الرَّمْل أخذ يملأ عينيه حتى لم يعُد يرى ما يحدث، وشعر فجأة بأحدهم يرتمي على رقبته ويخنقه، وفيما كان يجتهد ليرميه عن ظهره سمع أصوات ضحكات الأعداء تُقهقِه من كلِّ اتّجاه، ثم باغتَتْه ضربة على رأسه، فدارت الأشياء، وكأيِّ بطل يسقط إذا ضُرِب على رأسه، سقط أمير الظلام. فقام ثلاثة من الشُّرطة يكبلونه. صرخ محاولًا تنبيههم: «انظروا حولكم، ألا ترونهم؟ إنّهم يخرجون، دعوني أنقذكم على الأقل»، لكن لا أحد منهم له قالب عقل مرِن يمكنه من رؤية الأشياء التي لا يراها.

شعر بحاجةٍ ماسّة إلى معجزة أخرى، كالتي حوَّلته إلى ضوء حين وقع له الحادث المميت، معجزة تمسك الريح وتكنس الرمل من السماء، وتُبعِد الشرطة عنه لكي يفرُغ لتحطيم شكل العدو في قالب العقل الجمعي.

نزل عليه لَحْنٌ حزين، وهو يقاوم وهم يمنعونه، يصرخ عليهم: «أنا خائف عليكم»، ويصرخون عليه: «اخرس ولا تقاوم»، شعر بالانقباضة -التي كانت تنتاب صدره- تتحوَّل إلى وخزات خلف قلبه. توسَّل إليهم: «أرجوكم، أنا أمير الظلام، مُحبّ البشرية جمعاء». ركلوه وأسقطوه على بَطْنه، فتحوَّلت الوَخزات إلى نِصال، ثم استسلَم لهم في النِّهاية، وقال:

«سأسير معكم بإرادتي وليس بقوتكم».

رمَوْه في النَّظارة، حيث كان الظَّلام باهِتًا، ويجعل الأشياء تتظاهَر كما تريد أن تبدو عليه. شعر أنّ اسمه مسيطِرٌ عليه، أخذت الوحدة تنبع داخله وتفيض، وتُبعد كلّ ما حوله. حَبا إلى الجدار ليستنِد عليه، ما أن وضع ظهره حتى سمع من إحدى الزَّوايا صوتًا يسأله:

«معك زقارة يا الغالي؟».

الإنسان مخلوقٌ يرى الأشياء

كان حادثًا مُميتًا، ذاك الذي وقع له قبل تسعة أشهر، حتميٌّ ليس به ثقب ينفُذُ منه المصير، ولولا المُعجزة التي حدثَت حينها لكان جسمه الآن يتحلَّل في قبر مظلِمٍ ورَطِبٍ.

كانت معجزة جادّة وتعرف ماذا تريد؛ لذلك قذفَتْ في قلبه يقينًا بأنّه منذور لَمهمَّة إنقاذ العالم من شر مُحيق؛ فالمعجزة لا تكلِّف نفسها عناء الحدوث لأمر لا يدخل في الشؤون المتعلِّقة بسلامة الحياة على الأرض.

أتاهُ هذا اليقين على صورة قدحِ شرارةٍ وهو محمول على نقّالة المسعفين ذلك اليوم، وعيناه تربِتان على هيكَل سيارته المُجعَّد.

كان كلّ مَن رأى هيكل السيارة يسألُه والذهول يرفع حاجبيه: «كيف نجوتَ؟».

والغبطة كانت تدغدغه وهو يجيب ضاحكًا: «بمعجزة».

يكذب إذا قال إنّه يعلم كيف تتدخّل المعجزات في تغيير قوانين الطبيعة؟

فلا أحد يمكنه تفسير كيف تحدث المعجزة، وإلا لن تكون كذلك.

كل ما يذكره هو أنَّه كان على الطريق السَّريع، عائدًا من البحر، يفكِّر في الواجب الثاني الذي طلبه الدكتور مصلح رشيد من المشاهدين: «ما استخدامات مفتاح باب الغرفة؟». الفيديو الذي يتحدَّث فيه عن أسباب الانقباضة التي كانت تكتم أنفاسه، وتسعى لتَحولَ بينه وبين العالم، وحين اقترب من مسارِ جسرٍ نازل يصبّ في طريق سريع تحته، جاءته رسالة في مجموعة العمل بالواتساب. فتحها، فكانت من مديرِه مِتعِب، يطلب منه أن يعيد تدقيق حسابات ميزانية إدارة الموارد البشرية؛ لأنَّ صفرًا مائِلًا في صفِّ مجموعة الأصفار، في خانة النّاتج الكُلّي، جعل شكًا يساوره بأنّه يخفي وراءه إهمالًا من المُدقِّق، ولمعرفته أنه سيمتثِل للمعنى المُنهك لاسمه لم يتصل ليناقشه؛ وذلك لأنَّ أمير الظلام يؤمِن بتأثير الأسماء عن طباع أصحابها، اهتدى لهذا الايمان منذ الصِّغر عندما كتب مرّةً اسم أخوَيْه حمد وحميد، فطرأ له هذه المعنى الدَّفين؛ حمد الذي يكبُره بثلاثِ سنوات أقصر من أخيه حميد الذي يصغره بثلاث سنوات، بالرَّغم من فارق العمر بينهما؛ فحميد أطول من حمد، وهذا الأمر واضح في اسميهما، فحرف الياء في اسم حميد لم تأتِ به الأقدار عبثًا، وكان من أصدقائه أيضًا ولد اسمه «أمين»، ينادونه «أمين السمين»، كان أمير الظلام يترك عنده مصروفه اليومي باطمئنان، فيجده كاملًا متى احتاجه، أيضًا زميلته في المكتب؛ نرجس، تحبّ رؤية نفسها كلّ عشر دقائق في مِرْآة صغيرة تحملها في حقيبتها؛ ومِتعِب أيضًا، يقوم بما يقتضيه عليه اسمه، فهو يستمتع إذا تسبَّب بتعبِ أحد موظّفيه.

كتب: «غدًا سأُعيدُ تدقيقه»، وعندما لَمس علامة الإرسال، طالع المِرآة الجانبيّة للسيّارة، فقرأ العبارة المكتوبة عليها: «الأشياء في المرآة لا تبدو كما

هي في الحقيقة»، فبدأ العالم يرتعش ثم يتلاشى، ثم حدثت المعجزة.

في البدء كانت دغدغة؛ دغدغة لطيفة، صاحبتها رغبة في التثاؤب، وأحسّ بأنّه يخفق بالهواء، ثم عادت الدغدغة من جديد حتى أوشكَ أن يضحكَ، ثم أغمَضَ عينيه على نورٍ أبيض ساطع بزَغَ منه وجه الدكتور مصلح رشيد وهو يشرح فكرة قالب العقل، في الفيديو الذي وجده في اليوتيوب عندما بحث سبب انقباض الصَّدر؛ لأنَّ ضغطًا كان يواصل رصّ الأشياء في صدره منذ أسبوعين، فعَثَر على الفيديوهات الأربعة للدكتور مصلح رشيد؛ فاِسْمُ الدكتور مصلح رشيد مبعَثُ ثقة، فهو يُصلِح ويرشد.

حين تبدَّدَ النّور الأبيض الساطع، لم يستطِع التمييز إلا بعد لحظات، ففَهِمَ من الأوراق الخضراء التي كانت تحيطه أنّه في أحضان شجرة. عطس ثم كافح ليُخرِج نفسه من بين الأوراق الغزيرة، يفكِّر بالعملية المتعِبة لإعادة تدقيق الميزانية الكُلِّية لإدارة الموارد.

قال في نفسه: «ميلانُ الصّفر من حبر الطابعة وليس من الحِساب»، ولما أخرج جسده وجد أنّه يقف باتجاه شجر ياسمين، صُفّ على شكل قوس في المكان الذي يلتفّ حوله مسارا الجسر، وهو يهبط إلى الشارع الرئيس. أن يكون الإنسان قبل لحظة في سيارة وفي اللحظة التالية مُمدَّدًا بين أغصان شجرة ياسمين أمرٌ يحتاج وقفة تأمليّة، فالإنسان مخلوق يرى الأشياء التي أمامه فقط. رجع خطوة ليَنفُضَ ثوبه، فوجده مفتوقًا من جانبه الأيمَن، وقد تركَت أوراق الياسمينة عليه خطوطًا خضراء، والثوب -كما يعلم الجميع- لا ينفتق من تلقاء نفسه، ولا تأتيه الأقدار بالخطوط الخضراء عبثًا، وانتبه أنّه فقَدَ فَرْدَةَ نِعال بينما الأخرى تُكافِح للتشبّث بقدمه اليمنى.

أخذ هذا كلّه في عين الاعتبار وسمح لنفسه أن تشعر بالغَرابة، ولما استدار واجه صعوبةً في فهم ازدحام سيارات غير عادي ملأ الجو صخبًا بمنبهاتها.

ثم رأى سيّارته؛ اليوكن الذهبي التي كان يقودها قبل لحظة، تحوَّلت إلى جثّة حديديّة، تلفظ أنفاسها الأخيرة دخانًا تنفثه من مقدمتها.

أن يرى الإنسان سيارته التي كان يقودها قبل لحظة ممضوغة أسفل جسر وهو ليس بداخلها، أمرٌ لا يمكنه تفسيره.

وقفَت السَّيّارات على جانبَيْ الطريق، ترمِشُ إشارات التَّنبيه من كلِّ اتجاه، ويهرع السّائقون للإنقاذ.

نزل إليهم يعرُجُ فوق الحشائش بنعلٍ واحدة، حتى وقف بينهم دون أن يلتفت إليه أحد، فربما لو كان له اسم حاد مثل: جراح، فارس، مجبل، أو زياد، لكان الأمر مختلفًا، فاسمه أيضًا من أهم التَّجارِب التي أكدت له أثر الاسم على صاحبه وحيد هادي؛ «وحيد» من الأسماء التي لا يقف عندها أحد، ولا تصدر حوله ضوضاء، ولا يأبَهُ لأصحابها الناس. راح ينظر إلى السيارة ويتخيَّل أنّه ميت داخلها الآن.

جاء شاب بينما كان أمير الظلام يتخيَّل شكل جثّته، وألقى نظرة إلى مقدمة الغمرة، وسأل: «أين السائق؟»، وراح يبحث في المؤخّرة، فصرخ: «ليس في داخلها أحد».

أجابه رجُلٌ كان يشي بوجهه أنه يؤمِن بأنَّ الأشياء تبدو تمامًا كما يراها، وقال: إنّه شاهد شيئًا يطير من النافذة عند ارتطام السيارة بزاوية بداية حاجز الجسر الكونكريتي، وحطّ على الأشجار في المنتصف.

فانطلقت مجموعة من الناس إلى الأشجار ليبحثوا عن سائق السيّارة،

بينما أمير الظّلام واقف يستشعر رعشات خروج الرّوح، فتوجَّه بعد أن تأكد أنّه مات إلى الشاب الذي لم يجده في داخل السيارة: «السلام، أنا وحيد هادي».

فأشار الشاب بيده إلى منحدر الجسر: «ذهبوا للبحث عن السائق».

فقال أمير الظلام بنبرة ثقيلة: «أنا وحيد هادي، سائق هذه السيارة».

نظر الشاب إليه غير مُصدِّق، فأوشك أمير الظلام أن يعطيه بطاقته المدنيّة ليقرأ اسمه ويتأكّد بنفسه أنه لا يدَّعي.

صرخ الشاب: «يا الله، كيف.. أين.. أين كنت؟ هل أنت بخير؟». ونادى على الجميع، فالتمَّ البقيّة حولهم.

أحدهم جدير أن يكون اسمه محمد، أخذه ليتمدَّد على العشب؛ لأنّه قد يكون مُصابًا بنزيف داخلي من دون أن يشعر. ارتمى أمير الظلام على العشب وأخذ يطالع السَّماء. كان الليل رائقًا ونجومه تتلألأ على غير العادة، فبدأ بالضحك من قلبه على ما يحصل، فقَبْل أسبوعين كان يلتمس رضا الحياة وهي تدير إليه ظهرها؛ وها هي الآن تتمسَّك بأطراف ثوبه وترجوه أن يستمر لأنها في حاجة ماسة إليه.

جاءه محمد يحمل نقّاله وفَرْدَة نعله الأخرى ووضعهما بجانبه. لم يُصَب النَّقال بأيِّ خدش. شكره أمير الظلام وهو يضحك، فابتسم محمد وقال لأحدهم كان واقفًا ينظر إلى مشهد الضحك: «مصدوم المسكين».

جلس والتقط صورة للسيارة وأرسلها إلى قروب العمل وكتب: «كدت أموت».

ثبَّت عينَيْه على سيّارته يُفكِّر بعُمق: لو كنتُ في الداخل ستكون روحي

فارقت جسدي الآن، دمّي يسيل بخَطٍّ متعرِّج على القار، سأرى النّاس يتجمهرون فيما روحي تتبدَّد، وربّما سمعت أحدهم يُكركِر من طريقتي المُضحكة في الموت، وسأتمنّى عندها من آخر نبضات قلبي أنّني جالس حيّ.. ويا للسّعادة، ها أنا حيّ، ولم يُكركِر أحد.

وضعه مُسعِف مكتوبٌ على صدّاره أنَّ اسمه «منقذ» على سرير الإنقاذ النَّقّال، طلب من سائق الإسعاف أن يمسك عصا الحمّالة الأخرى مع زميل آخر، سأله أمير الظلام: «أخٌ منقِذ، هل مرّ عليك أحد نجا من حادث مماثِل؟». لم يُجِبْه منقِذ، لكنَّ السائق أجابه: «نجوت بمعجزة».

لم يُفاجَأ أمير الظلام لمّا قَرَأ اسم السائق المكتوب أيضًا على صدّارة «صادق».

توالت الرَّسائل في قروب العمل، أوّل رسالة كانت من نرجس تسأله بعد أيقونة وجه مصدوم: «هل مِتّ؟»، ثم رسالة من زميل يحمد الله على سلامته، والرسالة والأخرى من محمود رجب؛ محمود يقتبس رسالة نرجس ويعلق: «الحمد لله على نعمة العقل»، وعلَّق زميل آخر: «هههههههههههههههه»، والمدير مِتعِب: «مَن يدقّق الميزانية الآن؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الإنسان مخلوقٌ يتذكَّر

البكاء من الأعراض الانسحابيّة للشفاء من الانقباضة، لكنَّ الناس يظنونه سببًا لذهابها. يعرِفُ أمير الظلام هذا لأنّه بكى مرتين، ولم تنفكّ الانقباضة عنه؛ في إحداهما لم يستطِع البكاء حتى استعان بلحنٍ حزين من اليوتيوب اسمه «موسيقى الفِراق»، أشعَرَهُ أنَّه يودِّع الحياة، بكى حتى اشتدَّت الانقباضة على صدره.

بعض النّاس يسمّونها «ضيق صدر»، وبعضهم يسمّونها «حزنًا»، لأنّهم اعتادوا على هذه القوالب الاسميّة، وهو يسمّيها «انقباضة»، لأنَّه يستخدم اسمًا يخصّ شعوره من دون تقيُّد بالاعتياد، لكنَّ الدكتور مصلح رشيد قال: إنَّها «اكتئاب».. والاكتئاب حزن ليس له سبب.

نظر إلى المِرْآة ذات مرّة بعدما خرج من لعبة فورت نايت مقتولًا، وفي فمِه قضمة من ساندويتش هامبرجر، يخفِّف بها حنقه من الهزيمة، فرأى في المِرآة رَجُلًا يمضغ، ثم شعر أنَّه حزين بلا سببٍ للحزن.

كانت من تلك اللحظات التي تتّخذ الأقدارُ الصدفَ ساتِرًا لتُخبِرَ الإنسان بحقيقة ما، أو تنبّهه إلى الأوهام التي أحاطت بعقله.

كانت لعبة مُهمّة في بطولة استمرَّت ثلاثة أيام، خاضها مع أصدقاء يَعرف أصواتهم من خلال اللعبة فقط، لهم أسماء مستعارة، حيث كان لقب «أمير الظلام» لصبيٍّ لعِبَ معه قبل ثلاث سنوات، وشعَرَ أنّه قد أضفى عليه مهابة تفوق قدراته، فأخذه. كان يسجّل دخوله في اللعبة قبل ذلك بعدة أسماء: الغامِض، جبل وادي الألم، رأس الزّجاج المكسور، خنجر الحزن، الوشاح المُلطَّخ بالدماء، الصقر الناري، لكن أمير الظلام أشعرَهُ بالتمكُّن.

هذا ما جعله مشهورًا منذ ثلاث سنوات؛ التمكّن، فقد كان يقصده اللّاعبون في تصفيات المعارك حتى يربحوا الدوري. لم يبحث عن الشهرة، لكنَّ الانتباه البشريّ يلتوي دائمًا على مَن يتمكن من مهارة يعجز عنها الآخرون، وبعد ذلك يحملونه على الأكتاف، كما ينتشر في يوتيوب الكثير من مقاطع المعارك التي قدَّم فيها أسلوبًا جديدًا في الإطاحة بالخصوم، يبحث كلّ شهر عن أمير الظلام في يوتيوب، فيجد أكثر من فيديوهَيْن جديدَيْن. لا يحبّ الاستماع إلى صوته فيها، ويحسّ أنّه ليس هو، فيضحك مع التعليقات التي تضحك عليه أسفل الفيديو.

كان يلعب معه تلك المرة «القُرصان»؛ فتى معروف بالغدر وإتقان استخدام القنّاصة، والشبح اللاعب الذي يُحمِّسهم بصراخه أثناء الهجوم، ورابعهم كان «صرخة التِّنّين»، شاب صوته هادئ.

أتت الهزيمة على مقرُبةٍ من الفوز بالبطولة، فقضم الهامبرجر والتفَتَ بحنقٍ إلى مرآةِ دولاب الملابس عن يمينه، فرأى فيها رجلًا سمينًا يطالِعُه ويمضغ.

سأل نفسه لا شعوريًّا: «أين رأيت هذا الرجل من قبل؟».

كان رجلًا سمينًا ومرتميًا على أريكة، على صدغيه مَسْحتا سواد، جبهته تصل إلى منتصف رأسه، تلمع بشرة وجهه الدهنيّة بنورٍ أزرق شاحبٍ يأتيه من تلفزيون أمامه، ويمسك يد اللعب في جهاز البلايستيشن، وكأنه يسأل نفسه هو الآخر بصوت مضحك: «أين رأيت هذا الرجل من قبل؟».

بومضةٍ من الذاكرة استعاده، كان يعرفه جيِّدًا، لكنَّه الآن ليس متأكِّدًا من ذلك. تذكَّر أنَّ عينيه لم تكونا غائرتَيْن هكذا قبل عشر سنوات، وصلعته اللامعة كانت شعرًا ناعمًا قبل خمس عشرة سنة. وتذكَّر وهو يطالع خديه المتغضِّنَيْن، كيف كانا أحمرين.

توقَّف الرَّجُل عن المضغ، وصار ينظر إليه من المرآة بحيرة، سأل نفسه متوقِّفًا عن المضغ: «هل ينظر هو الآخر إلى عيوبي الآن؟ هل يُقارِنُني معي عندما كنت في الثالثة والعشرين، يوم كانت عيناي رائقتَيْن وشعري ناعمًا وخدّاي ممسوحان بحُمرةٍ؟».

ابتلع الرجل في المرآة ما في فمِه، وأخذ يتأمَّل أمير الظلام من المرآة وأمير الظلام يتأمَّله من أمامها. تأمَّلا بعضهما لوقت طويل، تبادل كلٌّ منهما تاريخ وجه الآخر، واصلا نبْشَ أيام بعضهما حتّى رأى أمير الظلام ارتخاءً في جفنَي الرجل في المرآة. كان الشبح يقول كلمات تُهوِّن من حنق الخسارة. سحب أمير الظلام نفسه من عينَيْه في المرآة وعاد للّعب، تاركًا الرجل الذي بداخلها يواصل تأمّله، فالإنسان مخلوق يتذكَّر الماضي. فقَدَ حماسه للعب، فقال للبقيّة: إنَّ عليه الخروج لأمرٍ ما، تواعدوا في المساء التالي، مثل كلِّ يوم.

عاد إلى المِرآة يُطالِع نفسه، حتى شَعَر بقبضة أمسكت صدره لثوانٍ وأطلقته؛ قبضة لم يشعر بها من قبل.

أغلق التِّلفاز وذهب إلى فراشه. كانت الساعة الواحدة صباحًا، لم يقدِر

على النوم إلا وقت فجر ذلك اليوم، ظلَّ يفكِّر: مرّ وقت طويل على عمر الثالثة والعشرين، مرَّت ثلاث وعشرون سنة بسرعة، حاول استرجاع ما حدث فيها؛ كانت مُكوَّنة من ذكريات حول المطاعم وألعاب الفيديو قيمز، والعمل.

وعندما ذهب إلى العمل، وجد الانقباضة تتناوش صدره عند كلِّ شرود.

***

الهدوء في إدارة تدقيق الميزانيّات هو الجو العام المفروض؛ حتى لا تخطف الضوضاء رقمًا شاردًا تختلّ على إثره الميزانية.

كان عمل أمير الظلام في بداية توظيفه هو كاتب سجلّات؛ عمل لا يشغل من الذّهن حيِّزًا كبيرًا، يختم على الكتب الواردة ويضع لها أرقامًا للتّقييد، لكن مع سنته الرابعة، تقاعد موظَّفٌ في مكتب الميزانيّة، فأراد أمير الظلام أن يُري زملاءه أنه يستطيع أن يقوم بما هو أكثر من التقييد، فسَدَّ مكانه بجداره، ومنذ 19 سنة وهو يعمل محاسِبًا من دون شهادة محاسبة.

إدارة تدقيق الميزانيات تقع في الجهة اليمنى من الدّور الثاني، حيث لا يمرّ إلا العاملون فيها، لهذا هي بيئة مناسبة للانقباضات.

يَمُرُّ فيه خمسة مكاتب؛ الأوَّل مكتب رقم 25، مكتب المدير مِتعب، رجل طويل في منتصف الثلاثينيّات، ويهتمّ بشكل طرفَيْ شاربه، كان موظَّفًا عاديًّا في إدارة أخرى، حتى أصبح أخاه مؤثِّرًا في تويتر، والمكتب الثاني هو مكتب 26، مكتب التدقيق، وهو المكتب الذي يعمل فيه أمير الظلام ونرجس، آنسة في الثالثة والأربعين من عمرها، تُجبِرُه طيلة السنوات التي قضاها معها في نفس المكتب على موافقة رأيها بخصوص

تميُّز إدارتهم ورداءة عمل زملائهم في الإدارات الأخرى. بعده يأتي مكتب رقم 27، مكتب الطباعة وكتب التَّغطية، يقبع فيه شاب اسمه لطيف، أتى الإدارة قبل ثلاثة أشهر، ذو أدب كثيف، تفوح منه دائمًا رائحة ورد طائفيّ، ويعمل معه ثلاثة موظفين ليس لهم أيّ دور يستحقّ الذِّكْر، ثمَّ مكتب 28، مكتب تجميع الفواتير، وهو مكتب محمود رجب محمود، خمسيني يحبّ التقاط الصور لنفسه. وفي نهاية الممرّ، مكتب رقم 29، مكتب أحد موظفي الإدارة اسمه عبد الله، في منتصف الثلاثينيّات، كاتب ليس معروفًا حتى في العمل، وليس له وظيفة غير إغلاق باب مكتبه، والتفرّغ طيلة وقت العمل للكتابة والقراءة وبصمَتَيْ الحضور والانصراف.

لا أحد في العمل يعرف أنّه هو أمير الظلام، الشهير في لعبة فورت نايت، ولم يسمع أمير الظلام بلقبه يتردَّد في العمل إلا مرة واحدة فقط، عندما تحدَّث أحد الموظّفين -وهم يدخّنون خارج المبنى- عن ابنه الذي يريد أن يصبح مثل أمير الظلام في المستقبل. فسأل: من هو أمير الظلام؟ فأجابه: بأنّه رجلٌ معتوه صوتُه مُضحِك مشهور في أحد ألعاب الفيديو قيمز.

كانت نرجس ذلك اليوم تُحصي على آلتها الحاسبة مجموعة فواتير، فسألها أمير الظلام: «هل سبق وشعرتِ بانقباضة في الصدر قرب القلب، وتسببت لكِ بفتورٍ تجاه العمل والطعام؟». قالت وهي تنقر على الأرقام: «هذا إشارة إلى جلطة قادمة، انتبه، يموت الملايين من الناس بسبب السُّمنة».

رغم أنَّها أسمن منه إلا أنَّها لا تعدّ نفسها كذلك. نصحته باتّباع الحِمية التي وجدتها مصادَفَةً في اليوتيوب قبل ثلاثة أسابيع، وفقدت بتطبيقها خمسة كيلوجرامات في أسبوعين. تركت آلتها وأخرجت مرآتها الصغيرة من حقيبتها وراحت تتفقَّد نفسها مميلةً رأسها: «توقّفتُ عنها الآن، وصلت

إلى الوزن الذي يتماشى مع لون بشرتي».

شَرَدَ أمير الظّلام من شِبّاك المكتب إلى الساحة الخلفيّة للمبنى، ساحة ترابيّة مُهمَلة، تنتهي بسور حديديٍّ، بعده يتدفّق شارع سريع: هل هي مقدمة جلطة؟

لم تَبْدُ فكرة الجلطة مناسبة له، فهو ليس مكانًا ملائمًا لحدوثها؛ لأنها دائمًا تأتي الناس المهمومين كما في المسلسلات، تنزل مصيبة على البطل وتتبعُها موسيقى فاجعة ثم يمسك البطل قلبه ويقول متألّمًا: «آهِ آهِ قلبي»، ويسقط. لا يوجد لديه هموم، وليس مدخّنًا شَرِهًا، حتى أنّه يمشي مرّة كلّ أسبوع في ممشى قريب من بيتهم، وفوق هذا كلّه لا يحبّ الاستماع إلى الموسيقى الفاجعة.

لمّا رأته نرجس مستلهِمًا في الشباك نبّهته: «وحيد، صديقتي شعرَتْ مثلك بانقباضة في بداية الأمر، ظلّت الحمقاء تُحدِّق في الشّباك، والآن تعاني من شَللٍ نصفيٍّ».

اتّخذت الساحة في عينه شكل صديقة نرجس وهي تسحب نصف جسدها أثناء المشي.

ألقى لطيف السلام من عند الباب وتبعته رائحة ورد طائفيّ. يبدو له لطيف سعيدًا دائمًا، مبتسِمًا دون سبب. طلَبَ -بأدب- الفواتير المُدقّقة. سأله أمير الظّلام -وهو يُناوِله رزمةَ أوراقٍ- عمّا إذا سمع بأحد أتاه شعور مثل هذا، أو سبق أن شاهد مُسلسلات يصاب أبطالها بجلطات، فتأثّر لطيف بسرعة حتى كاد يئنّ، ثم قالت نرجس وهي تعيد مرآتها الصغيرة إلى حقيبتها: «أخبرته أنّها مُقدِّمة جلطة، لكنّه لن يصدِّق حتى يصبح مثل صديقتي».

«أنت تضغط على نفسك في العمل أخي وحيد»، قال لطيف وهو يربت على الأوراق التي بيده: «لا أذكر أنك أخذت إجازة، اذهب إلى العمرة، أرِحْ قلبك، العمل سينتهي بك ومن دونك»، ودعا له بالشفاء العاجل والبركة، وأخذ الفواتير وخرج.

صمَتَ يُطالِع السّاحة الخارجيّة من الشُّبّاك، وبدأت نقرات نرجس على الآلة الحاسبة. لم يقتنع أنه سيُتقِن هيئة رجل مشلول رآه في مسلسل، يلوي فَمَه إلى جهة اليمين ويُخرِج منه طرَفَ لسانه، يده اليمنى منكمِشة، يمشي بطريقةٍ متعثِّرة، يستند المشهد على لحنٍ حزين.

سألها قبل أن يبدأ بحساب الفواتير: «ما اسم صديقتك تلك؟».

توقَّفت وسألته: «ماذا تريد من اسمها؟».

«كما أخبرتك من قبل، الأسماء تدلّ على حال أصحابها، إذا لم يكن اسمها من الأسماء القابلة للسُّمنة مثل: حصة، وفاء، بهية، سمية، أمينة، فربما كان الأمر لا دخل له بالسمنة، أنا اسمي وحيد هادي، اسم لا تُوليه الجلطات اهتمامًا».

هزَّت رأسها متفهِّمة: «اسمها بدور».

«بدور» تعجب في نفسه: «بدور من الأسماء الرشيقة، قد يكون الخطأ في التشخيص الطبي، أو..».

باح لنرجس باستنتاجه: «ربّما صديقتك تتعامل مع مطاعم لا تقلي بزيت عافية».

***

اشتبك مساء ذلك اليوم، بتغطية من الشبح، في قتال ببطولة شاركتهما

فيها اللاعبة القديرة فايركات، ذات الصوت المتألِّم. كان عتاده قليلًا، وقد اجتهد الشَّبح يُلهب حماسه بالبحث عن مخابئ الأسلحة، ليعطي الخصم درسًا في التّكتيك القتالي. وفيما كانت فايركات تتوعَّد بسَحْق الخصوم، هبط لحن فجائِعيٌّ على قلبه من مكان لا يعلمه، تعرَّقَ بغزارة فلم يحتمل تصوُّر نفسه في دور صديقة نرجس. انساق وراء منظر فمه المعطوب من الجلطة، وتخيَّل كيف سيسيطر على سيلان لعابه، فأخرج نفسه في أثناء ذلك هدفًا سهلًا للخصم من دون قصد، وأصابته عدة طلقات أخرجته مهزومًا.

لامَتْه فاير كات بقسوة: «أتستهبل يا أمير الظلام؟». حاول تبرير موقفه لكنّ اللحن الفجائعيّ ارتفع وغطّى على صراخ الشّبَح وصوت فايركات المؤنّب، فاستأذن: «بعد إذنكم، أشعر أنني سأصاب بجلطة».

***

أجرى فحوصات في مستشفى خاص. قالت النتائج: إنَّ جسده يسير على ما يرام حاليًا، لكن نسبة الكوليسترول المرتفِعة في دمه تشير إلى أنَّ الجلطة ربما تكون متوارية في أحد الشرايين، تنتظر اللحظة المناسبة.

عند باب الخروج من المستشفى، اتَّصل بنرجس لتُرسِل له مقطع الرجيم الذي منحها وزنها المثالي من دون حرمان من الطعام، أرسلته في نفس اللحظة ومعه تسجيل صوتي تُحدِّثه فيه عن حالة صديقتها التي تحسَّنت بعدما التزمت به.

فتح الرابط في سيّارته، كان فيديو مُترجَمًا من لغة مبهمة على اليوتيوب، يتحدَّث فيه رجل سمين ذو وجه أحمر محتقِن، يرتدي ملابس رياضيّة تُبرِز بَطْنًا مُهمَلًا، ويدور حول فكرة واحدة: كلّ ما تريد شرط أن تترك آخر لقمة.

التزم به أسبوعين، مدحت نرجس خلالها أثر الفيديو على وزنه عبر تأكيدها أنّه صار أذكى من قبل، وهذا دليل على أنَّ الشحوم التي كانت تُغلِّف عقله قد بدأت بالذوبان.

كان تطبيقه سهلًا، صار يطلب هامبرجر إضافيًّا لكي يترك آخر لقمة منه.

حتى بدأ أمير الظلام يرى في كلّ مرة يقف بها أمام المرآة، أنّه نَحِفَ ويشعر أنه ليس على ما يرام من دون سبب مقنع، فتَهيجُ الانقباضة وينحبِسُ صدره برغبة بكاء تضطر إلى الاستماع لموسيقى الفراق لتحريرها.

حاول البحث عن مقاطع أُخرى تُعلِّمه كيف يملأ الفراغ الذي صار يجده في نفسه عندما ينظر إلى المرآة. نبَّههُ «ناب الذئب» -أحد أصدقاء اللعبة، المعروف بصوته الأجشّ- بأنَّ مهارته في استدراج الخصوم إلى الكمائن قد تردَّت. وضع أمير الظلام اللوم على ضعف الإرسال في يد التحكُّم، وقام يلاحقهم من دون أن يجد تحديًا يُشغله، حتّى صار يشاهد اليوتيوب أكثر من اللعب. وجد أنَّ اليوتيوب اختراع عبقري، يوحي بأنَّ أحدًا اسمه «ديفد» وراءه، لا يعبِّر عن الذكاء اسم أكثر من «ديفد». كلّ المهارات التي يحتاجها الإنسان موجودة في اليوتيوب بالتفصيل، بداية من كيف تقود طائرة وحتى تعليم أفضل طريقة لتذويب السكر في الشاي.

كان القدر يأخذ بيده دون أن يشعر، إلى فيديو الدكتور مصلح رشيد، لمّا قرر -وهو يأكل هامبرجر وصله للتوّ- فتح اليوتيوب والكتابة في صندوق البحث: انقباض، بكاء، فراغ، الشعور بعدم الأهمية. فأتَت النّتائج بمقاطع عارضات أزياء، ومقاطع مصارعة، وفيديو عن طريقة طبخ أعشاب صينيّة تزيد الخصوبة، وغراب أسود يحطّ على رأس تمثال، وامرأة تُرتِّب مجموعة صحون في دولاب ضيِّق في مقطع اسمه «سحر التَّرتيب»، ومقطع يقف

فيه رجل دين أمام حشود، وعندما وصل إلى آخر لقمة من الهامبرجر وجد فيديو يظهر فيه رجل يشبه آينشتاين، يمسك مجسم عقل بشري أمام وجهه ويُخرِج لسانه، عنوانه: «العقل لعبة النفس».

أكلَ اللقمة الأخيرة من الهامبرجر، وشاهد الفيديو.

ما قاله الدكتور مصلح رشيد

«العقلُ لُعبة النَّفْس»

الصّورة المُثبَّتة على واجهة الفيديو؛ وجه رجل يبلغ السِّتين عامًا، رأسٌ ثعلبيٌّ طويل، ذو صلع، منتفش شعر الجوانب، حاجبان يرتفعان على وجه حادٍّ، عينان عميقتان عليهما نظّارة مُقعّرة العدسات، مستطيلة، يتشبَّث حابسها في منتصف أنْفِه صقريّ الشَّكلِ، ثم شارب أبيض كثّ، يخرج تحته لسان زهري مستهزئًا، وينظر إلى المشاهد من فوق إطار النظارة، كأنَّه يريد أن يقول بعفويّة ساخرة: لا نحتاج للنظر الجيِّد حتى نرى الأشياء بوضوح.

يرتدي بالطو الأطباء الأبيض، ويُقرِّب من وجهه مجسَّمَ دماغ بطريقة هزليّة.

يبدأ الفيديو بظهور طاولة خشبيّة خالية من الأدوات، وعليها الدماغ محلّ الاستهزاء، ووراءها جدار أزرق مُعلَّق عليه لوحة تقويم سنوي، عليها مجموعة أوراق صفراء لاصقة. وفي الثانية الخامسة يخرج الدكتور مصلح رشيد من يمين الشاشة ويجلس وراء الطاولة.

بصوتٍ هادئ يُخفي نبرة متحمِّسة يقول:

«أعزّائي المتابعين، أهلًا بكم.. مُحدِّثكم الدكتور مصلح رشيد، استشاري اضطرابات نفسيَّة، أحييكم وأُرحِّب بمشاهدتكم لهذا الفيديو الذي سأُبسِّط فيه خلاصة خبرة 40 عامًا قضيتها بين طلب العلم وممارسته»، ثم يصمت، يهزّ رأسه ثانيتَيْن وعيناه تستوليان على الشاشة، ويكمل: «وأعِدُكم أنّكم بعد مشاهدة هذا الفيديو لن تكونوا كما كنتم، شرط أن تتوقّفوا عن التفكير في صحّة ما أقوله حتى أنتهي».

ثم يُخرج مُجسَّم الدِّماغ، ويضحك ضحكة استهزاء من أنفه:

«لعلّك تسأل عزيزي المشاهد، لماذا استشاري اضطرابات نفسية سيتحدث عن العقل؟ لن أجيب الآن، أنت ستجيب بعد أن تنتهي من الفيديو».

يضحك، ثم يمسك بمجسم الدماغ ويتأمَّله قليلًا بابتسامة تقع بين الازدراء والإعجاب، وبعد ذلك يدفعه على الطاولة مثل طفل يلهو بلعبة سيارة، ثم يتوقف ويقول بنبرة ثقيلة:

«نعم، العقل لعبة النفس».

يضع الدِّماغ على جانب الطاولة، يشبّك يديه بوضعيّة جادَّة:

«أريدك أن تضع عقلك جانبًا الآن، عطِّل كلّ أدوات التفكير؛ أن تنتقد العقل وتطلب منه أن يفهم النّقد بنفس الأدوات محلّ الانتقاد، كمَنْ يُقنِع شخصًا يرتدي نظارة حمراء بوجود الألوان الأخرى.. عليك أن تُقنِعه أوّلًا أنَّ المشكلة في النَّظّارة وليست في عينه، وما أن يضعها حتى يرى الألوان بسهولة، لكن ما النّظّارة التي يرتديها عقل كلّ واحد منّا؟

إنّها أدوات التَّفكير، أو ضَعْ قوسين واكتب بينهما: «المنطق».

وسنتوسَّع في الحديث عنه، لكن الآن تعال وأخبرني كيف وصلت هنا؟

دعْني أُخَمِّن.. وصلت إلى هنا بطريقتين؛ الأولى هو لأنّك بحثت عن كلمات، مثل: حزن، انقباض، بكاء، قلق، فراغ، اكتئاب، نقص، الشعور بعدم الأهمية، والثّانية هي أنّ أحدهم أرسله لك، وعليك أن تشكُرَه الآن.. أرسِل له رسالة شكر، قل له فيها إنَّك ممتنّ له طيلة حياتك، هيا.. ماذا تنتظر؟ أرسل.. جميل..

وإذا كان لأنّك بحثت عن تلك الكلمات فهناك احتمالان؛ الأوّل أنَّ عمرك أقل من 40 سنة، وأنك مصاب بالاكتئاب، والاحتمال الثاني هو أنّك الآن بين سِنّ الثالثة والأربعين والخمسين، إذا كان كذلك فأنت تعاني اكتئابًا يسمى أزمة منتصف العمر، وهي تعبِّر عن انتهاء اللعبة.. ستسأل أي لعبة؟! سأجيبك: لعبة النفس بالعقل.

أخذ يقلّب الدماغ في الهواء، يحاكي الطائرة، ويضيف:

«في الاحتمال الأول تكون الأسباب عضويّة؛ غالبًا نقص إفراز في إحدى الغُدد، أما في الاحتمال الثاني فإنَّ السبب هو أنَّ النَّفْس في هذه المرحلة تكون قد ملّت اللعب. تكون قد اكتشفت كلّ شيء حولك، ولم يعُد هناك ما يُسبِّب لك الدهشة؛ فإذا ملّت النفس يخفّ تأثيرها في العقل، فيبدأ العقل يعمل وفق أدواته التي نسمّيها «المنطق»، التي كانت تحدّد كل ما حوله طوال هذه الفترة، عندها سينتبه إلى أنّه فقد قدرته على تحديد الاتجاهات، وينظر إلى حياته (يضع العقل على الطاولة، ويوجّه نظره إلى الكاميرا) بعقلانيّة خالية من الغواية التي كانت النَّفْس تتلاعب بها في تغيير الحقيقة؛ سينظر بتجرُّد، سيقيم ما حصل عليه في المكان الذي حدَّده المجتمع للذين في مثل عمره: زوجة، أولاد، بيت، وظيفة... إلى آخره..

فإذا نظر حوله في مجتمعاتنا اليوم، سيكون من السهل أن يرى -مع الفروقات الكبيرة- أنه حصل على نسبة أقلّ من غيره.. عندها سيمسكه ذلك الشيء يسمّيه الكثيرون ضيق صدر، قبضة تسحب صدره إلى الأسفل، وتُشعِره أنّه خسر، ولم يعُد لديه الكثير من الوقت ليعمل على تعويض الخسارة، ثم تتقارب أوقات الانقباضة، وتتقارب حتى تشتدّ على قلبه إلى أن يفكِّر أنه لا جدوى من استمرار حياته.. وأراهن أنّك تشعر بهذا الآن».

يقلب المُجسّم، يديره بقوّة، يأخذ الدماغ يبرم في مكانه على سطح المكتب:

«نعتقد أنّنا نختار الصواب عندما نجد أنفسنا أمام خيارين نفترض أنَّ أحدهما خطأ، لكن في الحقيقة أننا نختار ما ترغبه أنفسنا، ويقوم العقل باستخدام المنطق ليُطمئِننا أنّنا اخترنا الصواب؛ نحن مفطورون على ألّا نختار الخطأ، وإذا اخترنا الخطأ عن عمد سيزيد النَّدم من حرارة النفس حتى تتحوَّل إلى جمرة وتُتلف العقل.

يحبّ الإنسان الخير ويكره الشر، هذه فطرة في جميع البشر، لكن ما الخير؟ وما الشرّ؟ تلك هي وظيفة العقل. دعني أُبسِّط لك الفكرة بمثال: نعلم أنَّ السَّرِقة شرّ، لكن عندما يسرق الإنسان لا يسرق إلا عندما يُبرِّر لنسفه دافع السرقة بأنّه لا يدخل بذلك في فعل الشرّ، والتَّبرير يأتي بحسب شكل قالب العقل لديه، بأنّه لا يسرق بدافع السرقة بل لشيء آخر، إما لأنّ الناس يفعلون مثل ذلك، أو لأنّه إن لم يسرق فسيموت من الجوع.

خُذْ مثالًا آخر من جهة أخرى: الإنسان يكره الحرب، لكن تخيَّل كيف سيراها محكومًا بالإعدام؟ سمِعَ أنَّ الحرب قد تندلع وفيها فرصة لنجاته، وتخيَّلَ آخر يبني بيتًا وسمع أنَّ الحرب ستقوم، أراهن أنّك تعرف مَن منهما سيدعو من أعماقه أن تقع الحرب؟

هنا سيكون العقل خادمًا لرغبة النفس وليس للصواب الذي سيدركه لو ترك الأمر له وحده. إذًا هو في حقيقته لعبة بيد النفس، تدفعه لتزيين الفعل حتى لا يحرقها الندم على ارتكابه إذا أقرّ أنه مخالِف للفطرة».

يسكُت الدكتور رشيد برهة ثم يَدخُل لحن حزين على المشهد، يملأ صدره نَفَسًا وتتحوَّل ملامحه إلى الحزن، ثم يقول بنبرةٍ حزينة:

«ما النَّفس إذًا؟ ربّما ستسأل: ماذا تكون هذه التي يقوم العقل بتفسير النار لأجلها بأنها ماء؟ الجواب أعيا الإنسان، كلّ ما نعرفه عن النَّفس أنَّها

مثل سِرٌّ في بئر، والبئر في كوكب، وهذا الكوكب لا أحد يعلم مكانه. الشَّيْء الوحيد الذي نعلمه عنها هو أنَّها تستطيع أن ترى الحياة البائسة سعيدة، والحياة السعيدة حياة بائسة. كيف يمكنها ذلك؟ لم يجد أحد الكوكب البعيد الذي فيه البئر الذي يقبع السِّرّ داخله ليعرف كيف؟

كلُّ شيء متوافر لديكَ، ومع ذلك تشعُر بالانقباضة تعصُرُك. يكافح عقلك ليرى أنَّ في حياتك أشياء رائعة، إلا أنَّ النفس تُجبِره على جحد روعتها، ثم ينبري العقل ليُثبت أنَّ النفس على حقّ، فلا يرى إلا المواجع وأسبابها».

يُغمِض عينيه ويقول بابتسامة متألِّمة:

«بعد ذلك يخفِت النّور، شيئًا فشيئًا، حتى إذا جاء الظلام لا يجد شمعة تقف في طريقه، فيأتيك الحزن من كلّ مكان».

يتوقَّف اللحن الحزين، فيفتح عينيه وينظر إلى العقل، ثم يقول بحماسٍ:

«حسنًا.. نعرف أنَّ أهم وظيفة للعقل هي التفكير، فالتَّفكير يستند على أدوات نسميها «المنطق»، حيث تعتمد مهارة استخدام المنطق على قوة الذاكرة وخصوبة المُخيِّلة، مهمّتها تحديد ما يمكن وما لا يمكن، ما يجلب النفع وما يدفع الضّرّ، وهنا تأتي المُعضلة الكبرى، هذا المنطق -بأدوات قياسه- جزء كبير منه -الجزء الأساسي- هو ليس من صنع تجارب الإنسان، ولم يأتِ من دراسات علميّة، إنَّه من صنع المجتمع، من التّراكم

التاريخي خلف تجربة شخص واحد ربما لم يكن على صواب ومات منذ زمن بعيد جدًّا».

يتوقّف الدماغ عن البرم، ويرفعه أمام عينيه:

«العقل لديه شقّان كما نرى -أشار إلى الشقّ الأيمن- هذا الشق اسمه الواعي، وهو الذي يستقبل المعلومات من الحواس ويحوِّلها إلى إشارات كهربائيّة تُسمّى «لغة العقل». هذا الشقّ هو الذي نفكّر به وندرك ونحفظ ونفهم ونلعب ونُخطِّط ونصنع الدَّسائس، إنّه الشّق الذي يختصّ بأدوات التّفكير، والتي نسمّيها «المنطق».

وهذا الشّق -أشار إلى الشقّ الأيسر- اسمه اللاواعي، وهو البحر الذي لا نرى منه إلا سطحه الظّاهر، ومهامه التي نعرفها تنقسم إلى مهام حيويّة ومهام غير حيويّة؛ الحيوية هي تنظيم عمل وظائف الجسد ومراقبتها، وإعطاء الإنسان إشارات إذا وجد خللًا في سير عملها، كتسارع نبضات القلب في الخوف، إفراز العرق في لحظات الحياء، التنفّس في أثناء اليقظةِ والنَّوم، إرسال مشاعر العطش، الجوع، الألم.... إلى آخره، وأما المهام غير الحيويّة فهي لا تُحصى، منها القيام بعمل من دون أن تقصد القيام به، يمكن أنْ نسمّيها «نظام التحكُّم التلقائي»، وهو أيضًا مصنع العادات وملزمة السلوك؛ هذا الشقّ اللاواعي هو الذي سنشير إليه بـ«القالب».

الجزء الأكبر منه صنيعة المجتمع، الأهل، الأصدقاء، والقليل المتبقّي يأتي من التجارب.

يقول العلماء: إنَّ اللاواعي يؤدّي الأوامر التي تأتيه من الواعي، فهو لا يفهم بذاته. نستقبل الأمور بالعقل الواعي وهو يرسلها إلى اللاواعي

بما يريده وليس بما هي عليه، ويقف اللاواعي دائمًا مستعِدًّا لتلقي الأوامر. خذ هذا المثال: إذا رأيت أسدًا في قفص، سيُطَمْئِن الواعي اللاواعي ويقول: «لا عليك عزيزي اللاواعي نحن بأمان»، وسيقوم اللاواعي بالتصرّف كأيّ لاواعي محترم يشاهد أسدًا في قفص، وإذا كنت في غابة ورأيت أسدًا جائعًا يسعى لالتهامك، فإذا لم يمتلك الواعي أدوات تُرشده إلى أنَّ الأسد ليس في قفص، وقال: «لا عليك عزيزي اللاواعي نحن بأمان»، سيقوم اللاواعي -مع كامل الأسف- بالتصرّف كأي لاواعي لذيذ أمام أسد في قفص.

وهذا لأنَّنا نعيش مع مجتمع، والإنسان يرى الفعل يحدُث مرارًا أمامه مِن كلِّ مَن حوله، ويسمع نفس الكلمات تُقال آلاف المرّات، ويشهد نفس المعطيات تستخرج منها الاستنتاجات نفسها، وذات الأفكار تُعاد بصورٍ مختلفة طوال حياته؛ لهذا فإنَّ المجتمع شكَّل على مدى قرون -بالتكرار- «قالب العقل الجمعي»، ثقافته، طباعه، وأسلوبه في التفكير، مثل قطرات الماء التي تقطُر فوق حجر لوقت طويل، تحفر أثرًا لا يَسهُل محوه، إلا بتكرار شيء آخر يأخذ مكانه.

سأقف هنا الآن، وأعود إليك في الفيديو الثاني بشيء مهم، لكن لكي تكون الفائدة أكبر، لا تدخُل الفيديو الذي يليه إلا بعد ثلاثة أيام على الأقل، وسأعطيك واجبًا تقوم به حتى ذلك الحين.

واجبك هو أن تشاهد هذا الفيديو ثلاث مرات.

كُن أفضل

سلام».

الإنسانُ مخلوقٌ يُحبُّ

سلَّطوا الأشعة في المستشفى على كلِّ مسامات جلده، سَحبوا عيِّنات من دمه، رأى الطبيب صورة الحادث من نَقّالِه، احتار عندما لم يجد به وخزة ولا حتى زكام، وقال رأيًا تسنده سنوات الخبرة، وهو يرمق الممرضة بذهول، ويهزّ رأسه كثير الشيب: «نجا بمعجزة».

جاء كومار، سائق بَيْتِهم، ليأخذه إلى البيت، أخبره بما حصل ومدَّ له صورة الحادث. قاد كومار السَّيّارة طوال الطريق بلا حديث، خمَّن أمير الظلام أن صمته تأمُّل في فكرة الموت الذي قد يأتي الإنسان في مكان وزمان لا يظنّ أنه سيلاقيه فيهما. راح يُطالع من وراء الزجاجة الأشياء التي لم يكُن ليراها مرّة أخرى لو أنه مات قبل قليل. دبَّت الروح في الأشياء، كأنَّها تحدُث أمامه أول مرة. وعندما دخلا منطقتهم طلب أمير الظلام من كومار أن يبطئ، إذ وجد جاذبية تغري على التدبُّر. الإنسان مخلوق يحب الحياة. أضحكه شكل سيارة تخرج من حديقة منزل، كان منظرها يبعث على الحياة، ضحك كومار من الطريقة التي كان أمير الظلام يضحك بها. أشار

إلى فتيَيْن يسيران فوق الرصيف سيرًا لا يعرف ما المُضحِك؟ فأخذ كومار يضحك معه. سالت دموعه من الضحك وكادت أنفاسه تنقطع لولا أن رأى رجلًا يسير مُسرعًا ويدفع وجهه في سيره إلى الأمام. مسح دموعه ليراه بوضوح، كان رجلًا حاسر الرأس، يسهل معرفة أنّه في منتصف الخمسين من عمره، يرتدي ثوبًا مفتوحًا زرّه العلوي، عرفه من مشيته، فلا أحد يمكنه أن يمشي كما يمشي «حسن صواب».

كان يمشي بالطّريقة التي تمشي بها الأيام، غير آبهٍ بما يحصل خلفه. يتقدَّم وجهه على جسده، كأنّه يشقّ الطريق بأنفه، ويهتزّ رأسه مع إيقاع خطواته، وقعت عين «حسن صواب» البيضاء السّابرة على أمير الظلام وكأنّه شعر أنه ينظر إليه. آخر مرة رآه كانت سنة 2000، القدر الذي جاء بالمعجزة جاء به اليوم، بعد اثنتي وعشرين سنة من الغياب. ليست مصادفة، لما تلاقت أعينهما وضع حسن أصبعَيْه السبابة والوسطى على شفيته، وهمس بشيء قرأه أمير الظلام بذاكرته: «عطني زقارة يالغالي». يتذكَّر أمير الظلام ذلك الموقف بوضوح صقيل.(*)

---

*كنت حينها في الثالثة عشرة من العمر، جالسًا على رصيف بيتنا، أُمسِك بنصفَيْ طبق بورسلان مكسور، عندما سمعت: «عطني زقارة يالغالي».
كان الطَّبق عبارة عن درع ذهبي لأفضل طالب في المدرسة ذلك العام، مكتوب داخله اسمي بالأسود ورقم واحد باللون الأبيض. فرحت أمي ذلك اليوم، ونقدتني عشرة دنانير لأنّني عوضت رسوبي في الفصل الأول بهذا التفوّق الذّهبي، ووضعت الدرع على الرَّفّ الخشبي الذي عند مدخل الصالة، بجانب شهادات التفوق التي يحصل عليها أخواي. كنت سعيدًا وأنا أحقِّق أخيرًا هذا الإنجاز الذي سعيت إليه بكُلّ جهد، في أن يكون لي شيء على أحد هذه الأرفف.. لكن أخي حمد جاء متأخّرًا ذلك اليوم من المدرسة، فحَسَدني على إنجازي، وأخبر أمي أنّه رآني قبل يومين أصبغ طبقًا بدهان ذهبي ولم يعرف المغزى من ذلك إلا الآن.
قسمَتْ أمّي الطبق على رأسي نصفين، فقد اكتشفت أنّه قطعة من أحد أطقمها الثمينة،

وأخذت العشرة دنانير، وبينما كنت جالسًا على الرصيف ألوم نفسي على أنّني لم أكُن حذرًا وأنا أدهن الطبق، جاءني صوتٌ مُصِرٌ على أنّ لديّ علبة سجائر: «عطني زقارة يالغالي».

التفتّ فرأيت شابًا غريبًا في قرابة العشرين من عمره، نحيلًا وطويلًا، وكان لون بؤبؤ عينه اليمنى أبيض ومخيفًا، ويتحرَّك يمينًا وشمالًا خلاف بؤبؤ اليسرى الذي كان داكن السواد، ومُثبّتًا على كِسْرَتَيْ الطَّبَق، وقد أخذت تفّاحة آدم البارزة من حنجرته الطويلة تصعد وتهبط.

أخبرته أنّني لا أُدخِّن، فاستدارت عينه البيضاء تنبش الهواء حوله ثم قال: «بيدك طبق مكسور، تصدق». أخبرتُه أنّه كان جائزة حصلتُ عليها لأنّني أفضلُ طالب في المدرسة، لكنّ أخي كذب على أمي وأخبرها الحقيقة.

جلس بجانبي من دون استئذان وحدَّثني عن تفوّقه في كلِّ مراحل الدراسة، لكن المدارس الأخرى حسدته وقاموا بتغيير درجاته حتى رسب في أول متوسطة ثلاث سنوات متتالية، وأخرجوه من التعليم، فجاءته مُدرِّسة جميلة اسمها عبير، لمّا عرفت الظلم الذي وقع عليه، وساندته، لكنَّها بعد ذلك أحبَّته، إلّا أنّه في النهاية قامت المدارس بتشويه سمعته لديها فتركته عبير في ليلة باردة واقفًا تحت المطر ينظر إليها وهي تختفي وراء أحد الشوارع بعد أن قالت له: «أرجوك حسن صواب، اِنْسَني لأجل الحُبّ الذي بيننا».

ثم وضع يده على عينيه وقام بسرعة كي يخفي دموعه.

بعدها بأسابيع سمعت «عطني زقارة يالغالي» لمّا كنت مارًا مع أبناء شارعنا في ساحة قريبة من بيتنا، ورأيته يدفع نفسه إلينا بعجالة، فيما عينه البيضاء تتلمّس جيوبنا. أخبرنا أحد الأولاد بأنه مجنون ويسكُن في أحد الشوارع القريبة واسمه «حسن صواب». حين أخبرناه أننا لا نُدخِّن، دسَّ يده في جيبه وأخرج سيجارة وعلبة ثقاب ودخَّنها، ثم جلس كأنّه معتاد على الجلوس معنا، وحدَّثنا عن فتاة كانت تريد رقم هاتفه قبل قليل في السوق، ورفض لأنَّ الحب الذي يريده لا يأتي بطلب. فسأله الولد الذي يعرفه: «ما أخبار الفتاة التي كانت تلاحقك قبل يومين؟». نفَخَ الدّخان بسرعة وانطلق كأنّه يعرف أنّه سيُسأَل عن هذا الموضوع: «الطويلة ذات الشعر الأشقر تعني؟ هه.. عزمتني على الغداء في بيتها، حسِبتُ نواياها سليمة، فقد خدعني مظهرها، فالحسناوات دائمًا جميلات، لكنَّ الجمال ليس كلّ شيء»، فطلب الولد منه أن يقصَّ علينا الذي حدث. نفخ صواب سيجارته وهو يبتسم ابتسامة شفقة: «لا شيء، جلسنا نتحدَّث، ثم ذهبت وعادت وهي ترتدي ملابس غير محتشِمة، حسبتني جاهلًا ولن أفهم أنّها اتَّصلت بالشرطة، وستقول إنّني اعتديت عليها لأتزوّجها رغمًا عنّي.. تُصدّقون، فهربت، لم أهرب خوفًا، أنا شجاع كما تعرفون، وأقدِّر الحبّ، ولا يمكن أن أعتدي على النساء أبدًا». أخذ نفسًا من الدخان وأضاف: «اسمعوا، نصيحة.. لا تثقوا في المَشهورات،

فمرّة -قبل سَنة- كِدْتُ أن أتزوَّج إحداهنّ، لن تخمّنوا من تكون؟»، قال ولد: «سعاد عبد الله»، وخمّن آخر: «هدى حسين». هزَّ حسن صواب رأسه بأسف: «لا، لن أخبركم؛ لأنكم لن تصدّقوني». وعدناه أنّنا سنصدِّقه، فطلب أن نُقسِم على ذلك لأنّه لن يكشف سرّه بلا طائل. فأقْسَمْنا. قال، فيما كانت عينه البيضاء تذهب وحدها يمينًا ببطء: «أتعرفون المغنية الإنجليزية مادونا؟» قلنا: «نعم». شفط سيجارته، في أثناء ما كانت عينه البيضاء تعود إلينا ثم نفخ الدخان سريعًا، وقال: «خذلتني، لم أظنّ تلك الليلة أنّها ستتَّصِل بالشرطة، تصدقون؟» فانفجرنا ضحكًا.

بعد ذلك صار «حسن صواب» من وسائل التسلية لدينا، نُناديه إذا رأيناه، فيأتي بسرعة وإصبعاه على شفتيه: «عطني زقارة يالغالي». فنسأله عن قصة الفتاة ذات الشعر الأحمر، ليُخرِج من جيبه سيجارة ويقصّ علينا وهو يدخّن، كيف أُنقذُها من مجموعة لصوص كانوا يريدون اختطافها؟ فعشقته، لكنه لم يجد عندها الحبّ الذي يبحث عنه رغم أنها جميلة. وفي المرة التالية يُخبرنا بقصة جديدة عن حرب أنقذ فيها أسيرة باهرة الجمال، أقسمَتْ أنها لن تنسى شجاعته طوال حياتها.

لكنَّ القصة الأشهر لحسن صواب، والتي أكَّدت أنه يرى الأشياء التي لا تُرى بالعين، هي قصة حدثت سنة 1995 عندما طرق باب بيت وراء شارعهم وطلب رؤية صاحبه لشأن ضروري، فلما خرج له صاحب البيت أخبره حسن بعصبية بأنّ الخادمة التي في بيته، ليست سوى رجل مستأنث. كان صاحب البيت من الذين يعرفون أنّ عقل حسن صواب ليس على ما يرام، فضحك ووعده بأنه سيبحث في أمرها. وبعد عدة أشهر من ذلك اليوم سقطت الخادمة من الدرج وكسرت رجلها، فذهب بها الرجل إلى الطبيب، وهناك تبيَّن له أنَّ حسن كان على صواب.

لمّا انتشر الخبر أخذ الجيران يسألونه كلما شاهدوه، كيف عرف أنَّ الخادمة رجل؟ وكان يجيبهم بكلمات سطحيّة دون الخوض في عمق الموضوع. مرّة كنت حاضرًا وهو يجيب: «لأنَّ الذكر يختلف عن الأنثى». فأخرج فتى علبة سجائر كاملة ومدَّها إليه: «هي لك إذا أخبرتنا كيف عرفت؟». تجاهَلَه حسن يمجّ سيجارة، فأخرج اثنان علبتَيْ سجائر كاملتين وقدماها له، فنظر إلى العِلَب، ثم أخذها وقال: «جسد الأنثى يتحرّك مثل غصن يطفو على ماء، وجسد الذكر يتحرَّك مثل غصن يتدحرج على الرمل»، سحب دخّانًا ونفخه: «لا أعرف أشرح لكم أكثر من هكذا».

لم تُرضِ إجابته الأولاد، فأخذوا منه عِلَب السجائر، لم يقاومهم، لكنه قال بعد أن أخرجوا العلب من جيبه: «كنت سأرميها في القمامة».

أجبرته أمّه على نزع ثوبه وفانيلته وأن يقفز أمامها في الصالة بالسِّروال الداخلي، لتشاهد بعينها أن جسده ليس مشلولًا وخاليًا من الشّقوق. دخل أخواه حمد وحميد، وسألاه عمَّا جرى، أخبرهما بكلّ شيء عن جهله. التصقَ حمد به يشمّ رائحة فمه، وتفقَّد حميد ساعديه. طلبت أمّه أن يذهب ويرتاح، وغدًا ستعيد فحصه لأنَّ الرضوض لا تظهر في أوَّل يوم.

حين شاهد أمير الظلام سريره، البلاي ستيشن، باب الحمام، الأريكة، مشطه، بقايا الهامبرجر التي تركها في الظهر، جاءه خاطر: كيف ستبدو لو أنني مِتّ؟

أدى بعدها خطوات الاسترخاء الأربعة على السرير، كما أوردها الدكتور مصلح، وانغمس في بحر صافٍ بسؤال: كيف نجوت؟

التواجد في مكان الخطر، ثم بعد لحظة في مكان آمن، وبشعور مدغدغ، هو أمر لا يمكن إلا بتدخل معجزة طيّبة القلب. خمَّنَ: لا بدّ أنَّ الذي حدث خلال تلك اللحظة، أنَّني تحوَّلتُ إلى ذرات أثيريّة، وانتقلت بسرعة الضوء إلى مكان آمن، وما الدغدغة التي شعرت بها إلا من جراء تفكك ذراتي وإعادة كلّ واحدة منها إلى مكانها الصحيح فوق الياسمين؛ إذا تطوَّر العلم بمراحل كثيرة عنه الآن، سيُعرِّف الحالة الذي مررت بها بأنها: انتقال أثيري ضوئي، من نقطة «أ» إلى نقطة «ب» بواسطة قوة عاقلة تختار المكان بدراية حكيمة. أما الرجل الذي قال: إنّه رآني أخرج من النافذة، فكان يستجيب لقالب عقله الذي لم يعرف كيف يفسِّر الهالة الضوئية التي تخلَّلَتْ بذراتي ذرات الهواء وكوَّنتني من جديد فوق أوراق نبات طيِّب الرائحة.

***

التَّفكير بأنه كان سيموت وأنَّ عُمرًا جديدًا، وضعت حياته خطوتها الأولى

في دربه، وأنه صار ضوءًا لجزء من اللحظة، أرخى انقباضة صدره، وأعطى جسده ثقلًا من النوع الذي يزيد الانسان ثقة بأنّه راسخ على أرض صلبة.

أمضى يومًا كاملًا لم يدخل بطنه إلا الماء وموزة. ترك نصفها. راوده شعور بأنَّ المضغ سيزيل نشوة النّجاة التي تمسد روحه، وكذلك لم يلعب فورت نايت يقينًا بأنّها تبدّد هذه النشوة. ترك جسده معظم الوقت على سريره مُمدَّدًا، يسترجع تفاصيل الحادث، يشمّها، يلعقها، يقضم أطرافها، يتأنّى في مضغها، يبتلعها، وبعدما يُشبع نفسه منها يتصوَّر شكله وهو مدهوس، لسانه يتدلّى من زاوية فمه، مصرانه الأعور يسعى من شقٍّ في جانب بطنه. خيط ثخين من الدم يسيل ببطء أمام عينه ويتخثّر. يشعر بعَظْم رقبته مطحونًا، وربَّما كانت فقرات من عموده الفقري قد خرجت من تَحت الجلد، وفلتت ساقه من ركبته ويشعر بها تتدلى.

تخيَّل كيف يصل الخبر إلى أهله: سيتصل المستشفى بأحد أخويه: «ألوو.. السلام، أخاك وحيد هادي مات موتًا فظيعًا قبل قليل، يا رجل، هرس وطحن وتصوَّر ماذا أيضًا.. ضحك الجميع من طريقته في الموت». سيبكونه. سيُدفن بعد صلاة العصر القادمة، سيوضع في قبره ولسانه لا يزال متدلِّيًا من زاوية فمه. أمه ستضع لروحه ماء سبيل كما فعلت لروح أبيه عندما توفّي.. سيحزنون عليه شهرًا، شهرين، ثلاثة، عشرة ثم سيصبح ذكرى، وبعد ذلك يُنسى.

يلوِّح الانقباض في صدره عند هذا الحدّ، ويتحرَّك الجوع بوهن، فتوقّف عند هذه النقطة، وعاد إلى الشعور بالدغدغة الأثيريّة التي أعادت ترتيب ذرات جسده.

صرَفَ ما تبقّى من ذلك اليوم على قوقل، بصُحبة كوب ماء، يتجوَّل في

نظريات انتقال الذرات، وأخبار ما وراء الطبيعة، وقدرات العقل الباطن الخارقة، ويقرأ قَصصًا عن الرجال العظماء، ومقاطع عن أناس يقصّون معجزات حدثت معهم، وكيف تغيَّرت حياتهم بعدها إلى الأفضل! ولم يخرج منه إلا في منتصف الليل. مارس تمارين الاسترخاء، حتى بلغ أفضل مستوى يتخلّى فيه عن كونه هو؛ ليُفكِّر خارج الصندوق، عندها سرى تيار أفكاره بسهولة.. لقد تعرّض أغلب العظماء لمعجزة تُخبرهم أنَّ أمرًا عظيمًا أسندته الأقدار إليهم وعليهم الاستعداد، وسأل نفسه: «فما مَهمَّتي؟».

انحرف التيار إلى التفكير بما أمضاه طوال حياته: «ما مَهَمَّتي التي أفنيت حياتي أُتمّها؟ أخرج من العمل إلى البيت إلى المطعم، أجمع الأرقام في مكتبي صباحًا، أستلم راتبي آخر الشَّهر، وأضع السَّماعات على رأسي أمام التِّلفاز، ألتهب مع فورت نايت وراء أناس لم أقابلهم، سيارة مطعم تأتي وأخرى تذهب، عطلة الأسبوع يزورنا أخواي وأبناؤهما». لم يستطِع تذكُّر كلّ ما يجري في كلِّ يوم.. الروتين حوَّل أيامه إلى نماذج متشابهة لا يمكن التفريق بينها، كلّ نموذج يطابق الآخر.

***

قرَّر أمير الظلام أن يضع سيارته تحت شجرة في البرحة التي أمام بيتهم؛ لتُذكِّره كلّما خرج أو عاد أن معجزة أخرجته سالمًا من داخل هذه الكتلة.

وفيما كان الونش يجتهد عصر يوم رائق في إنزال الكتلة الحديديّة، التي كانت سيارته قبل ثلاثة أيام، إذا بفرحان العجوز، جاره وصديق من أصدقاء الطفولة، يأتيه من بيته مرتديًا بيجامة نوم يتبعه أحد أبنائه الصغار.

يكبره فرحان بعدة أشهر، على الرغم من نحافته إلا أنَّ له بطنًا بارزًا، يحلِق شعره دائمًا على الرقم صفر كي يخفي صلعته. لُقّب بالعجوز لأنّه لبس

في أحد مقالبه -وهم صغار- عباءة نساء وغطى بها وجهه ليقلِّد عجوزًا كانت تمرّ بشارعهم، وجعل يرقص ويقول للمارة: «قبلة، أعطني قبلة». حبّ المقالب يسري في دمه، فآخر مقلب قام به قبل خمسة أشهر، عندما عاد من رحلة بر قصيرة، وأحضر معه أفعى سامّة وجدَها تتثاءب أمام سيارته، فدعى بعض الأصدقاء إلى تناول العشاء في بيته، وبينما كانوا يتحدثون، رمى الأفعى في حضن أحدهم ليضحك والبقية من ردّة فعله على مواجهة لدغتها السامة.

حوقَلَ فرحان وعيناه تتلمّسان الجراح المميتة على هيكل السيارة، وسأل: «ما الذي جرى؟».

أخبره أمير الظلام بتفاصيل الحادث، دخَّنا سيجارة وهو يصف له الشّعور الرائع لانتقال الذرات، فمسح فرحان على صلعته وحمد الله على السلامة، دار مع ابنه حول السيارة وملامحه تلهج بعبارات التعجّب، ثم قال كلمة لا يمكن أن تأتي مصادفة: «نجوت بمعجزة».

أخذ أمير الظّلام «نجوت بمعجزة» معه إلى فراشه وتأمَّلها: المعجزة اسم أتى من كلمة عجز؛ أي تقف قدرتنا عاجزة عن إيتائه ويجلس العقل قاصرًا عن إدراكه، نطلقه على الحدث الذي يخرج عن القوانين التي ألزمنا العقل بعدم مخالفتها، بقدر ما تُسعِد تلك الكلمة تسبِّب الرعب. فلماذا تحدث معه هو بالذات، ماذا يريد القدر منه؟

حين شرعت الانقباضة بقبض صدره، قرَّر أن يتذكَّر الحادث حتى ينام.

الإنسانُ مخلوقٌ يعتادُ

الإنسان إذا تعرَّض للانتقال الأثيري الضوئي بفعل معجزة، يصبح عقله حسّاسًا تجاه الجهل. وأمير الظلام إنسان تعرَّض للانتقال الأثيري.. إذًا: عقل أمير الظلام أصبح حسّاسًا تجاه الجهل.

استيقظ وحده قبل التوقيت اليومي الذي يرنّ به منبهه. وقف أمام المرآة يشاهد طراوة النجاة تُلهِم ابتسامته على الاتساع. فكان أوّل قرار اتخذه -وهو بين الصَّحْو والنعاس- أن يجدِّد نفسه.. ستبدأ من اليوم معركته مع السائد، سيفتك بالأشياء النمطية، سيقاتل الروتين بشراسة.

حياة جديد+ طريقة تفكير جديدة= إنسان جديد.

التهَمَ توست لفّه على أصبع كاكاو وشرب وراءه فنجان قهوة بارد، على سبيل تغيير المعتاد، ووضع في فمه برتقالة كاملة، وذهب إلى العمل يمضغها.

حاول أن يرى الأشياء بعين أخرى، خارج إطار صورتها الّتي كرَّسها

الروتين في ذهنه، مستعينًا بصورة سيارته تحت الشجرة؛ ليفوِّت الفرصة على الروتين لتوجيه انتباهه. أخذ سيارة السّائِق وقادَها ينظُرُ إلى كُلِّ شيء باستغراب، لم يكن يعرف أنَّ البيوت تغيرت إلى هذا الحدِّ، والشّوارع صارت بحالة مُزرِية وتحتاج إلى إصلاح، ونَمَتْ أشجار لم ينتبه لها من قبل أمام البيوت وفي منتصف الشوارع، حتى أنه وجَد رؤية الناس والشوارع والسيارات، تلك اللحظة، والأشجار والحَمام الذي يحوم فوق البيوت، شيئًا جديدًا. يكرِّر الروتين الناس والشوارع والسيارات والأشجار والحمام الذي يحوم فوق البيوت، في ذاكرة الإنسان، حتى يصير كلّ هذا أشياء عادية تحدُث كلّ لحظة بصورة تكاد تكون منسوخة من بعضها كلّ يوم، فيُصابُ الذّهن بالمَلل من الانتباه إلى شيء يعلم أنّه لا جديد فيه، فيترك الأشياء تحدُث أمامه دون أن يضع ملاحظاته عليها. الإنسان مخلوق يعتاد بسرعة.

عندما وصل مقر العمل، شعر أنَّ هناك شيئًا تغير فيه، لا يعرف ما هو، وحين دخل المواقف أحسَّ أنَّ كلَّ شيء في المبنى يبتسم ويريد أن يسأله كيف نجا؛ غير أنَّ طبيعته الجماديّة تمنعه من ذلك. ركَنَ السَّيّارة في الموقف المُخصَّص لزميله محمود رجب محمود، كنوعٍ من كسر الروتين، وسار بخُطى جديدة يطالع المبنى ويفكِّر: ربّما إذا حُدثت شكل قالب عقلي ووجدت صيغة تقبل التواصل معه، سنكون أصدقاء، فقد أمضيت معه أكثر من عشرين سنة.

نبَسَ تطييبًا لخاطر الأشياء: «نجوتُ بمعجزة أيّتها الأشياء الطيّبة».

شعر أنَّ المبنى يفتح بابه الآلي ليستقبله، والدَّرَج الكهربائي أتى صاعدًا ليأخذه إلى الأعلى بخفة مُرَحِّبًا. عندما وصل ممرّ الإدارة انتشى من فضول زملائه وهم ينتظرونه أمام باب مكتبه.

المنظر كان رائعًا.. الجميع موجودون، عليهم ملامح أطفال يريدون معرفة سِرٍّ، عدا نرجس لم تكُن قد أتت بعد. أخذ الحبور يرتفع في صدر أمير الظلام، إذ رأى -بنظرته الجديدة- أنَّ هذا العدد الكثير لا يجتمع أمام باب مكتبه إلا لأجل أمر عظيم، كالنجاة من موت مُحقّق بمعجزة متعمَّدة.

تلاحقت أيديهم لمصافحته. احتضنه شعور دافئ وهو يرى أعينهم تُعبِّر بصدق عن سعادتهم بنجاته.

النَّجاة أمر يحدُثُ كلّ يوم، من دون أن يشعر بها أحد، لأنَّها جزء من الروتين الذي اعتاد عليه الإنسان، لا أحد يعلم كم عدد المرات التي ترصد له الهلاك فيها ونجا من دون أن يشعر بالخطر؟

تداولوا العبارات الجاهزة لمثل هذه الحالات: «الحمد لله على السلامة»، «كيف صحتك؟»، «خطاك السوء»، اقشعَرَّ جلد أمير الظلام لسماع هذه المعلبات الكلامية، فهي تُقال مئات الملايين من المرات في اليوم الواحد، علكة تتناقلها الأفواه حتى تصير مثل اللعاب اللّزج. يستطيع أن يلجأ إلى علب كلاميّة جاهزة من نوع: «بخير الله يسملك»، «الحمد لله جاءت سليمة»، «خطاك اللاش»، «لا رأيت مكروه». لكنَّه صافحهم وهو يفكِّر في ردٍّ يعبر عنه وحده، مشيًا على القرار الذي اتّخذه أمام ابتسامته في المرآة، حتى وجده وهو يمدّ يده للطيف الذي مد يده يقول: «الحمد لله على السلامة». أجابه أمير الظلام: «بمَشاعرك الطيِّبة، كأنّني في حمّام دافئ». لكنَّ الروتين، الذي جعل الإنسان يتوقّع آليًّا أنَّ الرَّدَّ على هذه العلب يكون عِلبًا من طينتها، فوَّت على لطيف الانتباه للرَّدِّ المثير للإعجاب الذي ابتكره أمير الظلام.

كرَّر أمير الظلام ردَّه عليهم مبتسمًا حتى يخترق اعتيادهم.

إلى أن وصل إلى المدير أمام باب مكتبه ينتظره يصل. مسح المدير طرف

شاربه الأيمن بطريقة تعكس أهمية منصبه، وقال بنبرة متسائلة: «هاه وحيد، نجوت؟».

لم يكن أمير الظلام ليضع فروقًا بين الآخرين حتى لو كان المدير، فأجاب: «بمشاعرك الطيبة، كأنني في حمام دافئ».

تحسَّس مديره طرفَيْ غترته المنسوفين على كفتيه وعاد إلى مكتبه يقول: «لا تنسَ التدقيق».

التفوا حوله، فتوقَّف عند باب مكتبه يحكى لهم بالتفصيل كيف أنه لا يعلم ما جرى؟ تركهم يتبادلون نظرات الاستغراب، وشاركهم فيها يهزّ رأسه، ثم بادر لطيف بأدبه وطلب منهم العودة إلى مكاتبهم وعدم الانشغال عن العمل.

فكَّر وهو يدخل مكتبه: من كان سيجلس على كرسيّي لو أنّني مِتّ؟

كان سيسعى خلف تلك الفكرة بأسماء كثيرة من إدارة المرافق الخارجية وإدارة العلاقات العامة، وسيتصوَّرهم ينقشون أسنانهم فوق كرسيه، لولا أنْ هوى جسد نرجس إلى المكتب.

التفتَتْ إليه وألقت تحيَّتها الصباحية الروتينيّة بنبرةٍ مؤنِّبة: «أنت هنا؟».

«ها هو سؤال آليّ يفصح عن دور الروتين في تجهيل الإنسان»، قال في نفسه. كان سيردّ كما اعتاد طيلة السّنوات التي قضاها معها في العمل: «نعم، أهلًا نرجس» لكن قراره بالتعامل الجديد مع الأشياء، دفعه ليواجهها بجسارة: «إذا لم أكُن هنا، فمن هذا الجالس أمامك؟».

منعها الروتين من سماع ما قاله فسألته: «رأيت صورة الحادث، كان مُميتًا، كيف نجوت؟».

استراح بظهرِه إلى الكرسي وأخبرها بالشيء الوحيد الذي هو متأكد منه: «كنتُ جالسًا خلف مقود سيّارتي، وبرمْشة عين صرت مستلقِيًا بين أغصان ياسمينة».

قالت وهي تُفتِّش في أدراج طاولتها: «بقي يومان على تسليم الكشف النهائي»، أخرجَتْ مجموعة فواتير وراحت تنقر على الآلة الحاسبة أمامها.

فأخرَج أمير الظلام كشف الميزانية الذي شكّ المدير في أحد أصفاره ليعيد مراجعته. مضى عقله طبيعيًّا على سجيّته مدة نصف ساعة، يُحاذي مناكب الأرقام ويصِفُ مجموع العمليات الحسابية، ثم أخذَتِ الأعداد تفقد انضباطها وعمدت إلى التشتُّت؛ حدث اختلال في خانتي العشرات والآلاف أولًا، ثم انفرط العقد في بقية الخانات. هذه إحدى الحسنات القليلة للروتين، إذ إنَّه قَسَّمَ في عقله -من طول التّكرار- خانات الآحاد، العشرات، المئات، الألوف، فسهَّل عليه إجراء أيّ معادلة حسابية بضربة واحدة، واكتشاف أيّ خطأ في المجموع بمجرد أن يضع أعداده في خاناتها. ترك الكشف وتوجَّه إلى الشّباك ليُعطي ذهنه استراحة يَسرَح بها بعيدًا عن العمل.

نظر إلى أشعة الشمس وهي تنطبع على أرضية المكتب وفكَّر: بعد الانتقال الأثيري الضوئي تحتاج جزيئات الإنسان إلى وقت قليل، حتى تترابط وتعمل بشكل سليم كما كانت. ما زالت جزيئات عقلي في طور الترابط.

كانت نرجس منهمكة في تتبُّع فواتيرها، ومن السهل التَّخمين أنها ستتّهمه بالاعتماد على الغير إذا طلب منها المساعدة. فترك كلّ شيء مكانه وخرج إلى الساحة الأمامية يدخِّن.

مَسَح أمير الظلام الممرّات بنظرة لولبيّة، وهو في طريقه إلى الساحة الأماميّة.. مكاتب العلاقات العامة، ثم ممرّ إدارة التفتيش بعدها ودورات

المياه في الزاوية.. أربع وعشرون سنة مرَّت مثل خمسة أشهر، الروتين حوَّله إلى مزرعة لطُفيليات الاعتياد، ودمج هذه السنين الطويلة في ومضات من ذِكريات مُجريات يوم العمل العاديّة. أحسّ أنّه يتغيَّر ذلك اليوم دون أن يحسّ بذلك، وهذا أمر غير مُدرك، مثله مثل المعجزة، فكيف تأتيه تلك الأفكار فجأة وكأنَّ هناك من يقولها في أذنه!

سار جيئة وذهابًا تحت ظلّ المبنى، يدخِّن، ولا يزال الحادث يُلقي بظلال على تفكيره.

نفَخَ سؤالًا مع الدخان: ماذا سيفعل الزملاء لو أنّني مِتّ؟

سيحزنون على فقدِه، سيتحدَّثون عنه بأصوات دافئة في أول يوم، ربما نرجس ستذكُر أنّه كان مجتهِدًا في عمله، سيطلُب محمود رجب محمود من المدير موظّفًا جديدًا يجمع الأرقام، سيأخذ مكتبه أحدهم وستُجبره نرجس على موافقة رأيها في رداءة عمل الزملاء، سيعمّ الحزن الإدارة ليومين أو ثلاثة، ثم سيسير الروتين فوق غيابه، فيصير ذكرى يسترحمون على صاحبها كلّما مرَّت، وبعد بسنوات سيتقاعدون، ولن يبقى أحدٌ يذكر أنّه كان هنا.

رأى محمود رجب محمود آتيًا من المواقف، يحرص على وضع مسافة بينهما منذ أربع وعشرين سنة، فاسمه الذي يُقرَأ من اليمين ومن اليسار يشي أنّه شخص ذو وجهين.

«أتعرف من صاحب السيارة الذي أَوْقَف سيارته مكاني؟»، سأله لمّا صار على بضع خطوات منه.

«أنا»، قال أمير الظلام.

«لماذا، موقفك قريب وخالٍ؟».

هزَّ أمير الظلام رأسه وقال بحِكْمة: «ليس ذاك موقفي وليس هذا موقفك، الإنسان إذا أراد أن..». تقدَّم محمود رجب محمود خطوة وصافحه: «آهِ نسيت، حمدًا لله على السلامة».

مدَّ أمير الظلام يده، وقال: «بمشاعرك الطيِّبة أشعر بأنَّ كلّ مكان موقفي».

توقَّف ذهن محمود لجزء من الثانية أمام الردّ غير الاعتيادي الذي سمعه، ثم سأل:

«أراعتني الصّورة، كيف نجوت من حادث كهذا؟».

أمسكَتْ عينا أمير الظلام وجه محمود رجب محمود، في محاولة لرؤيته بتجرُّد من صورته التي حفرها الاعتياد في ذهنه، أبيض، وجه دائري، يبالغ في نظافة أسنانه.

أطفأ السيجارة وأجابه: «نجوت بمعجزة».

«لا بأس، المهم أنَّك عُدتَ، المدير أزعجنا بصِفْر يشكّ أنه يخفي وراءه أمرًا مهمًّا، أعِد التّدقيق وسلمني إياه حتى أقنعه بكفاءتك، وأيضًا -لو سمحت- لا تَصُفّ في موقفي مرة أخرى».

عاد يجلِسُ خلف مكتبه يُطالِع الشّباك والسّاحة الخلفيّة، فتدفَّق تيار تفكيره باتجاه أولئك الرجال الذين ضحّوا بحياتهم من أجل البشرية: ترى ماذا رأوا حتى يَهبوا أنفسهم فداءً للناس؟ هل حدثت لهم معجزات هم أيضًا جعلتهم يؤمنون أنّ وجودهم في هذه الحياة إنما هو لهدف عظيم؟ ترى كيف توصّلوا لهذا الهدف، كيف عرفوا أنّه هو الذي أُختير لهم تحقيقه لأجل الآخرين؟ ماذا لو كان الرازي موظّفًا مثل نرجس ولطيف ومحمود رجب محمود، ومثل موظّفي إدارة العلاقات العامة، يأتي ويذهب كلّ صباح من

أجل إنجاز مهمة مكتبيّة على ورق سيتلفّ بعد حين؟ كيف سيكون وجه العالم إذا كان إسحاق نيوتن معتادًا على أشجار التفاح في طريقه اليومي إلى العمل؟

جرَّته نرجس من تفكيره:

«وحيد».

استدار بكُرسيّه إليها: «نعم».

«الحمد لله على سلامتك».

اقشعرّ جلده من الطريقة الآلية التي قالت بها: «الحمد لله على سلامتك»، ومع ذلك ابتسم: «بمشاعرك الطيِّبة، كأنّني آكل آيسكريم باردًا في حمام دافئ».

ما قاله الدّكتور مصلح رشيد

«الرّوتين، العادة، المألوف»

يظهر وجه الدكتور مصلح فجأة، يمسك بأشكال هندسية: مربع ومثلث ودائرة ومستطيل.

يضعها على الطاولة ويقول:

«تعالَ نُخمِّن ماذا كانت ردّة فعل أول قروي رأى طائرة.. أصابه الرعب، اضطرب نبضه، وربما هرب ليختبئ. دعنا نتخيَّل كيف أخبر قومه عمَّا رأى، لن يقول لهم: «رأيت طائرة»، سيأتي بشيء موجود في ذاكرته، سيستخدم ما يعرفه لوصف شيء لا يعرفه، سيقول: «رأيت رجلًا يمتطي طائرًا ضخمًا». سيتّهم المجتمع عقله بالانحراف أولًا، ثم سيقولون مسَّه جن، أو متوهّم، وسيتندرون عليه إذا أصرّ. لكن إذا رأى رجل آخر ما

رآه الأول، سيتّخذ المجتمع الحذر من الخبر، وستتلقّفه المخيّلة الجمعية ويُصاغ على حسب شكل «قالب العقل الجمعي للمجتمع»، وسيُقال: إنَّ هناك رجلًا روَّض نسرًا؛ لماذا النسر؟ لأنَّه في المخزون المنطقي لا يطير إلا الطيور، ولا يوجد طائر أكبر من النِّسر، وستُروى قصصٌ تلائم كلَّ مجتمع؛ البدوي سيحكي عن بطل غزا قومًا على ظهر نسر، والقروي سيقصّ قصة الفتى الذي سافر إلى بلاد بعيدة فوق نسر، وسكان الجبل سيروون حكاية المغامِر الذي ربّى نسرًا وجده في رأس جبل، وانطلق به إلى النجوم.

الذي حدث هو أنَّهم سدّوا بمنطقهم الفراغ الذي أحدثه عدم استيعاب خبر الرجل الذي ركب شيئًا يطير، قياسًا على ما يركبونه من دواب، وأتوا بالنسر كشكل يقبله قالبهم، وأطلقوا عنان المخيلة لتوظيفه في رغبات أنفسهم كأفراد في مجتمع يقدِّر حياة الأبطال والرَّحّالة والمغامرين.

لكن حين تهبط أمامهم طائرة، ويخرج رجل منها، ويتأكّدون أنها ليست نسرًا، سيهربون إلى السبب السهل الذي يعلّقون عليه دائمًا الأمور التي تُعجِز أفهامهم؛ «السحر».

وعندما تتوالى على أفراد ذاك المجتمع أخبار الطائرة التي يقودها إنسان، سيخدش القالب الذي صبّت فيه تلك القَصص، وحين تتكرَّر رؤية الطائرة سيكون القالب مهيَّأ لاستقبال فكرة أنها صناعة إنسانية مثلها مثل السفينة، وسيضحكون على قصة أول رجل رأى الطائرة وحسبها نسرًا.

أوقِف التسجيل الآن، وكرِّر هذه الحقيقة: المعقول معقول لأنَّ الناس قالوا إنّه معقول، ليس لأنني اختبرته».

توجّه بعينيه إلى الكاميرا واشتعل صوته بحماس:

«دعني عزيزي المشاهد أُبسِّط لك الأمر، إذا كانت لديك عجينة، صببتُها في قالب، ستتّفق معي أنّها ستأخذ شكل القالب، حسنًا، لنَقُل إنَّ القالب مثلّث الشكل.. شكل العجينة سيكون مثلثًا؛ فإذا صار العقل مثلّثًا فإنه لن يعترف إلا بالأشكال ثلاثيّة الأضلاع، لن يقبل صيغة الأربعة أضلاع وسينكر وجود الدائرة، إلا إذا كسر القالب وصار دائريًّا، حينها سيأخُذ العقل شكل الدّائرة. عملية الكسر هنا اسمها «صدمة»، كالذي صدمها المجتمع لمّا وجد الواقع يفرض عليه أن الطائرة آلة وليست طائرًا. تترك عملية الخدش وَرَمًا يسبِّب تهيُّجًا يتمثل في رفض الحقيقة، حتى تُعاد صياغة الشكل بقبول الأفكار الجديدة المترتبة عليها.. أوقف الفيديو الآن وفكِّر في هذا: لماذا لا ينكر الأطفال الأشياء الغريبة التي يرونها أول مرة؟

رائع.. رائع.

أراهِن بأنَّك لم تتوصل للحقيقة، لأنَّك فكَّرت بنفس الأدوات التي تُفقِد الحقيقة شأنها، فكَّرت من خلف الأحكام القطعية التي لقّنتها طوال حياتك. دعني أخمِّن، لا بدّ أنك فكرت بأن عقل الأطفال لم يتكوَّن بعد، وأنهم لا يفهمون ما يجري بطبيعتهم كأطفال.. كلّ هذا صحيح لكنه ليس الإجابة الشافية، نحِّ عقلك الآن واسمع.

يُولَد الإنسان بعقلٍ كامل كعضوٍ في الجسد، ويأتي مزوَّدًا بمعارف تمكِّنه من معرفة كيف يشرب ويأكل؟ وكيف يشكو مما يزعجه؟ وكيف يُعبِّر عما يرضيه؟ لكنه يُولد كصفحة بيضاء لم تُكتَب فيها القوانين التي تحدّد أحكام حواسه.. ما المعقول؟ وما المستحيل؟ تلك مسألة تأتي عندما تكتمل قوّة الحواس الخمس وتقوم بدورها على أتمّ وجه وتَصِلُه بالعالم. هنا تبدأ عملية اكتساب أدوات المنطق، فيما عملية تحديد شكل القالب تسير بجانبها..

المجتمع يُملي علينا ما الصحيح؟ وما الخطأ؟ ونحن نكتشف الأشياء لأوَّل مرة، يضع الأحكام أمامنا، ويُلقِّنُنا الأدوات العقلية التي تقطع بثبوت الصحيح الذي حدّدوه والخطأ، حتى ينحفر في مجرى اللاشعور أنَّها مُسلَّمات، كشروق الشمس من المشرق، فنتَّهم الإنسان الذي يتجاوز هذه الحدود بالجنون أو الغباء، ونضع لمستواه الأخلاقي تقييمًا متدنِّيًا، ونعاقبه بعدم الاحترام، ثم ينفضّ الناس من حوله، ويقلّ صَحْبه، ويُحكم عليه بالعزلة، لذلك نحن مُجبَرون على مسايرة هذه القوانين، كي لا نشعر أنّنا أقلّ من الآخرين ولا نريد أن نعيش وحدنا.

إليك هذا المثال الرائع: لو أنَّ طفلًا رأى شجرة تمشي، سيضحك، أليس كذلك؟ وسيضحك الناس إذا أخبرهم بما رأى. لكن لو أنَّ رجلًا بالغًا رأى شجرة تعبر الطريق أمامه، سيُصاب بالرعب، وسيُتَّهم بالجنون إذا أخبر عمَّا رأى.. لماذا؟ لأنَّ الطفل لم يجد في عقله ما يمنع مشي الشجر، فيما الرَّجل البالغ قد تكوَّن عقله على أنَّ الشجر لا يمكنه المشي.

لكن في مجتمع تواردت عليه أخبار أشجار تمشي بإحدى الدول، سيحلّ الاندهاش بدلًا من الرّعب، وبعد ذلك ستأخذ صورة الشجرة وهي تمشي طريقها إلى المألوف وتصبح عادية.

عندما تصبح الأشياء عادية تبهتُ.

انظر إلى حال العباقرة والعلماء المُجَدِّدين، كلّهم تعرضوا في حياتهم إلى اضطهاد اجتماعي وضع حتى من يصاحبهم موضع شكّ، لكن بعد زمن طويل، يصبح تجديدهم مألوفًا، فيلين القالب الجمعي تجاه أفكارهم، فينقلب المجتمع مُمجِّدًا لهم.

الآن ابحث في قوقل عن قصة أول جهاز تلقراف دخل جزيرة العرب، واقرأ

كيف قيل: إنَّ الذي يستخدمه يتعامل في السِّحر، وانظر كيف صار بعد سنوات!

خُذ هذه القصة القصيرة أيضًا:

سألَتْ فتاة يابانيّة أمها عن السبب الذي يجعلها تقطع السَّمكة نصفين، فتقلي نصفًا وترمي الآخر في القمامة، فأجابتها الأمّ بأنها تعلَّمت هذا من أمها ولا تعلم لماذا؟ فذهبت الفتاة تسأل جدتها، فقالت لها الجدّة: بأنها تعلَّمت هذا من أمها، ولم تفكِّر يومًا بمعرفة السبب، لأنَّ الأمهات لا يفعلن شيئًا بلا حكمة. فزارت الفتاة أم جدتها العجوز، واستوضحت الأمر، فأجابتها: في بداية زواجي كنت أطبخ لي ولزوجي ولابنتي، فتزيد علينا السمكة، فأقطعها نصفين وأقلي نصفًا كي أوفِّر زيت القلي والبهارات، وأرمي النصف الآخر لأنّه لا يوجد في ذلك الحين ثلاجة تحفظ الطعام.

عرفنا أنَّ المنطق مَسطرةٌ يقيس بها العقل الأبعاد التي تأتي على شكل القالب الذي صُبّ فيه، وهذا القالب له طريقة متوارثة في قبول الأشياء ورفضها، عدا عقل الأطفال والمجانين، فإنّه عقل مفتوح لم يُحدَّد له شكل ولم يلتزم بأيّ قانون للمنطق، لذلك هم أقدر الخلق على الاكتشاف، وأيضًا العباقرة، العبقري إنسان لديه أدوات منطق مثل التي عندنا، لكن لديه قالب مرن، صبَّ عقله في شكل لا يستبعد أيّ شكل، ويرى أنَّ أي شيء مهما كان مستحيلًا، ممكن الحدوث. كيف تفسِّر ما فعله مخترع الهاتف، لو كان لديه مثل قالب مجتمعه أو مخترع التلفاز؟ فإذا فكرت بأدوات تفكير مجتمعك اليوم، بعيدًا عن شكل الهاتف والتلفاز في قالبك، ستجد أنهما فكرة غبيّة، فمن يفكِّر بنقل الحديث عبر آلاف الكيلومترات؟ ومن سيجد البال الرائق ليفكر كيف يخترع صندوقًا يرى منه مكانًا بعيدًا عنه؟

العبقرية جنون واعٍ، والحقيقة هي شيء صنعنا له منطقًا يؤكِّده كحقيقة،

وليس لجوهره شأن في ذلك، نحن وضعنا مواصفاتنا الخاصة ثم كيَّفنا عليها الأشياء التي ترغب النفس برؤيتها حقيقة. كل ما يخطر ببالك من غرائب من الممكن بألعاب منطقية بسيطة أن تكون منطقية.

الحقيقة صناعة إنسانيّة.

الآن، إليك هذا الواجب إلى أن يأتي لقاؤنا القادم، سيساعدك في تليين قالبك:

أنت تظنّ أنَّ مفتاح باب غرفتك له استخدام واحد فقط، لكن في الحقيقة هو له أكثر من طريقة أخرى يمكنك الاستفادة منه.

فكِّر واكتب عشر طرق.

الإنسان مخلوقٌ يتغيّر

دخوله الأول بعد الحادث إلى فورت نايت أكّد له أن الروتين كان سببًا في حرمانه من الانتباه إلى أنه قضى أكثر من ثلاث سنوات صداقة مع الشبح وصرخة التنين ومازنجر والآخرين من دون أن يعرفهم!

كيف يكون صديقًا لأشخاص لا يعرفهم؟!

كانت أصواتهم حارّة وهم يرحبون بعودته. احتضن جهاز التحكُّم وأخبرهم عن سبب الغياب. أخذوا يتلون عبارات السلامة الروتينيّة بطريقة أثارت اشمئزازه. سردَ عليهم -وهو يتأهَّب للعب- تفاصيل الانتقال الأثيري الضوئي الذي نقلت المعجزة به جسده إلى شجرة الأمان. فقال الشبح: إنّه رأى هذا يحدث في فيلم ولم يكُن يُصدِّق أنّه قد يكون حقيقة، أمّا فاير كات فأبدت تعاطفها معه وقالت بصوت أم: «انتبهوا يا أولاد، لا أريد أن أفقد أحدًا منكم».

ردَّ أمير الظلام عليهم: «بكلماتكم الماطرة يزداد منسوب السعادة في قلبي ارتفاعًا».

كانت تلك إحدى المعارك المملّة التي لا يوجد بها منافس يدفع إلى الاندماج، وهذا هو المقصد من اللعبة، أن يبدأ اتحاد شعورَيْ التحدّي والخوف من الهزيمة في جعله ينفصل عن محيطه ويصير هو الشخص الذي يتحرَّك في الشاشة يمينًا وشمالًا بإرادته.

أراد أمير الظلام أن يُشعِل شمعة في رؤوسهم: «انتبه إلى الخصم الذي خلفك مازنجر، وقل لي كيف تعرف أنَّك تعرف الشيء الذي تظن أنّك تعرفه؟».

تخلَّص مازنجر من الخصم بطريقة ذكيّة، إذ التفّ وراء جدار بيت فلحقه الخصم يحسبه في الداخل، ثم اصطاده من الشُّباك، وقال: «سؤالك يدوِّخ».

حرَّضه: «حاوِلْ أن تفكِّر فيه، وأجِبْني متى أردت؟».

«لو أردتَ التَّفكير لما دخلت هنا». ضحكوا.

هزَّ أمير الظلام رأسه بأسف: «لا يوجد دراسة علميّة تفيد أنّنا ندخل للعب فقط».

«قل لنا أنت يا أمير الظلام»، سألت فايركات: «كيف نعرف الأمر الذي لا يعرف من يعرف أنه سيعرف من عرف إذا عرف عارف بما يعرف؟»، وضحكوا.

أخبرَهُم -وهُم يكمِنون للخصوم- بأنَّ في الحياة أسرارًا لا نعرفها، وعقولنا هي السَّبب في عدم معرفتها، لأنَّها فهمتها على ما أُفْهِمْنا عليه، ولكي نعرفها على حقيقتها الخالصة يجب أن نرى العالَمَ بعينٍ جديدة، ونفهمه على نحوٍ مجرَّد من أحكامنا المُسبقة. ضرب لهم مثال العقل الواعي والأسد الذي خارج القفص. أعجبهم كثيرًا، لدرجة أن مازنجر قال: إنَّه سيُغيِّر تسجيل دخوله غدًا من مازنجر إلى العقل الواعي.

نصحهم أمير الظلام: «سأطلب منكم طلبًا، أرجو أن تنفّذوه، ادخلوا اليوتيوب وابحثوا عن مصلح رشيد، لا تنسوا الاسم، مصلح رشيد، وستعرفون الكثير».

قال مازنجر: «اختصر لنا أرجوك، لا أحبّ مشاهدة يوتيوب، اختصر».

قضوا على كلِّ الخصوم إلا واحدًا كان مختبئًا، لا يعرفون أين هو؟

فقال أمير الظلام بعد أن رتَّب أفكاره: «تخيَّلوا أنَّ رَجُلًا اختفي أمامكم فجأة، ماذا ستكون ردة فعلكم؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«سنخاف»، قال أحدهم.

«لماذا تخاف؟».

«كيف يختفي، هل هو بشر أم جنّ؟».

«وإذا جاءك أحد أصدقائك بماذا ستُخبره؟».

قال صرخة التنين بصوته الهادئ: «هل سجَّلت دخولك لتخوض معنا معركة أم لتُخبرنا عن رجل اختفى أمامك؟».

«جارِني يا صرخة التّنين».

فأجاب: «حسنًا، سأقول له إنَّ رجلًا اختفى أمامي للتوّ».

«ماذا لو أخبرك صديقك أنّ رجلًا اختفى أمامه، هل ستُصدِّقه؟».

لم يُجِبْه أحد، فعلم أنَّ عقولهم اصطدمت بالسَّقف الذي وضعه المنطق لهم، فترك الموضوع عند هذا الحدّ؛ لأنّه رأى أنَّ عقولهم تحتاج إلى وقت حتى تتأهَّب للمرحلة التالية من تغيير شكل القالب.

ثم راح يستخدم خبرته في البحث عن الخصم المختفي، وهي أن يسأل نفسه: أين سأندَسُّ لو أنني أنا الخصم؟ فتصطفّ الأماكن في ذهنه، ثم يذهب إليها مكانًا تلو آخر حتى يجده.

خطَرَ له سؤال أكَّد له أنّه لم يعُد يفكِّر كما كان يفكر قبل المعجزة: ماذا لو كان الخصم يفكِّر؟ أين سأبحث عنه لو كان هو أنا؟

وحين وجده، مُندَسًّا خلف سيارة، أطلق عليه النار وأرداه.

***

بعد المعجزة وجد أمير الظلام أنَّ عقله يُبادر من تلقاء نفسه إلى قلب الأفكار وهزِّها حتى يُسقِط ما بداخلها.

استجاب للفكرة التي بدأت عند الحادث، بأن مَهَمَّةً -لا يعرف ما هي- أُسندت إليه، فيجب عليه الاستعداد، قبل أن يُباغَت بها وهو على هذا النحو من الارتخاء، فالإنسان إذا نجا من موتٍ مُحقَّق يشعر أنَّ حياته السابقة انتهت، وأنَّ الحياة الجديدة التي بدأت يجب أن تُكرَّس لأجل غاية أكبر من عيشها.

وضع استعداده على المحكّ وبدأ في إجراءات التَّغيير. بحث في اليوتيوب عن الأمور التي تُطوِّر العقل من دون أن تجعله يستبدّ بالنفس. أمدَّه شاب -وجَدَه في فيديو- بعناوين بعض الكتب، يقول: إنَّ إرشاداتها تُغيِّر الإنسان للأفضل. عناوينها هي: «أطلق الوحش الذي بداخلك»، «قوى النفس الكامنة»، «كيف تُغيِّر العالم؟»، «فن الحرب»، وعدد من كُتُب سير العظماء ليستفيد من تجاربهم، وكتابين عن الفيزياء الكونيّة، وكتاب عنوانه «قصص من عالم الجنّ». فتح عقله على جانب مُهم من الحياة. التهمها في البيت وفي المطعم، وفي مواقف العمل، وراح يُطبِّق إرشاداتها في لحظات الاسترخاء

في خياله لتعميق الفائدة، وبدأ يُشاهِد مقاطع عن فنون القتال، ويؤدّيها في خياله بجلسات الاسترخاء حتى أتقنَها، ومقاطع أخرى تابع فيها أناسًا يتحدّثون عن حالات غامضة ليس لها تفسير عن اختفاء رجل وتواجده في مكانين وزمان واحد، ومراهق يرى الذي سيحدث في اليوم التالي، ورجل تعلَّم لغة الأشجار، وأكثرَ من مشاهدة الأفلام الخياليّة؛ لتَخلُّص عقله من القوالب التي صبّتها الحياة الواقعية فيه، وتمنح مخيلته الثقة بنفسها.

أما عن تطوير جسده، فقد قدَّم أمير الظلام الكثير للنجاح بالمهام التي تتطلَّب حضوره الجسدي؛ سجَّلَ في نادٍ مُزوَّدٍ بأجهزة حديثة تجعل من الأوزان الثقيلة عملية خفيفة، حدَّدَ لنفسه هدفًا لرفع لياقته البدنيّة، الجري كيلومتر يوميًّا، وكسَرَ الوقت الذي استغرقه في قطعه اليوم السابق؛ السرعة في الجري مُهمَّة في اللحاق والالتفاف على الخصوم. شرع أيضًا في تعلُّم الغطس، فربّما يتعلَّق جزء من المَهمّة ببيئة بَحْريَّة، يغوص يوميًّا في البانيو مرّة أطول من التي قبلها، في كلِّ يوم يزيد وقت غطسه تحت الماء ثانية واحدة. توقَّف عن أكل الهامبرجر والشيبس والمشروبات الغازية بكُلِّ أنواعها لإنقاص الوزن، بعدما رأى أنّه يحتاج إلى خسارة خمسين كيلوجرامًا؛ حتى يتمكَّن من القفْزِ بين سطحَيْ عمارتين متجاورتين؛ ولأجل ذلك اتّبع تكنيكًا غذائيًّا. جاءته فكرته في حالة استرخاء عميقة سقطت بها الأقنعة التي تلبسها الأشياء، تكنيك يتَّسم بالعبقرية، لدرجة أنّه أثار استغراب أمّه لمّا رأته يطبّقه، وسألته متعجِّبة: «لماذا تأكل بملعقة السكر؟». بسَط لها عبقريّة الفكرة: «سأشعر بالملل من الأكل قبل إكمال نصف الصحن».

حسَدتهُ نرجس على الوزن الذي خسِرَه في شهرين. أخبرها عن التكنيك، فطبَّقته فورًا، وسمعها تنصح صديقتها عبر الهاتف: «لن تصدّقي

أنّه هو نفسه السمين الذي أوشكت تصيبه جلطة، ماذا تنتظرين أنتِ؟».

***

بعد أسابيع قليلة من الحادث، نسِيَ زملاؤه قصة المعجزة تمامًا وأصبحوا لا يأتونه إلا لتسليم واستلام الفواتير، والاستفسار عن الإجراءات المُتَّبَعة للمحاسبة. راح يتحدَّث مع مَن يلقاه منهم، يدخِّن خارج المبنى، ويريه صورة السيارة ويسأل: «بماذا ستشعر لو كنت مكاني؟». يجيبون غالبًا بأن الشعور سيكون مُرعِبًا، ثم يتدرَّج معهم إلى ذلك الجزء الرائع من القصة، ألا وهو الانتقال عبر الأثير بصيغة ضوء. ثم يستمتع بتعليقاتهم: «أنت محظوظ».. «لا بدّ أنها معجزة».. وبعد ذلك يذكر بعض الحوادث التي حصلت لآخرين مثله، لا يعلمون ما الذي حدَث لهم وقتَها، كالرَّجل الذي صحا ذات صباح، ولم يذهب إلى عمله لأنَّه أصيب بالعمى فجأة، وفي ذلك اليوم وقع انهيار في مكان العمل مات بسببه جميع زملائه، ثم عاد له بصره بعد غروب الشمس، والآخر الذي سقط من سفينته في بحر هائج فأنقذه مخلوق لم يرَه من شدّة الظلام، ظلّ يرفعه إلى سطح البحر حتى التقطته سفينة صيد أسماك، والمرأة التي وجدت نفسها فجأة تقود سيارتها في شوارع باريس عندما أخذت شارعًا فرعيًّا في كندا. كان يستغرب من دهشتهم عند سماع هذه القصص، إنّهم لا يعرفون شيئًا، بل ولم يُكلِّفوا أنفسهم عناء البحث في قوقول.

بدأ يشعر أنَّ الجميع يغارون منه ويتعذرون بالانشغال بالعمل ما أن يبدأ الحديث عن الحادث، ويظلّ واقفًا وحده يدخن خارج المبنى.

في لعبة فورت نايت، انتبَهَ إلى أنَّهم يقاطعونه عمدًا حين يحدِّثهم عن أفكاره. حتى قال صرخة التّنّين مرة: إنَّ حديثه الغريب يُفسِد الحماس،

فتخيَّل أمير الظلام أن البقية يهزّون رؤوسهم تأمينًا على ما قال صرخة التنين، فتوقّف عن محاولاته في ترقية أفكارهم. كلّ العظماء الذين قرأ قصصهم لقوا -في بداية مهامهم- اعتراضًا وتسفيهًا، هو لقي أيضًا اعتراضًا وتسفيهًا.. إذًا هو عظيم.

بدأ يرى كلّ اهتمامات مَنْ حوله سخافات، لا فضول لديهم لأنْ يروا الجانب المجهول من الحياة، يحبّون الحديث عن مجموعة رجال يركضون وراء كرة يدحرجونها إلى مستطيل قائم، أو عن آخِر مميّزات إحدى السيارات الحديثة، أو آخِر تطوير على جهاز البلايستيشن. يريدون أشياء سهلة، يشربها العقل مثل كأس ماء. التعامل مع الأمور الجادّة شاقّ. إنهم يخشون التفكير في الشيء الذي يجهلون كيف حدث؟ يخوضون فقط في الأشياء التي يمكنهم تفسير الطريقة التي حدثت بها، فهذا يعطيهم شعورًا بأنّ كلَّ شيء آمن. فيما يزداد يقينه كلّ مرّة أنَّ شكل القالب الذي يحتوي عقولهم دائري وصغير وصَلْب.

عندما انقضى الشهر الرابع بعد الحادث، كان قد قرأ كتاب «أطلق الوحش الذي بداخلك» ثلاث مرّات، وحفظ كلّ مشاهد سلسلة أفلام إكس، وأنقصَ من وزنه أربعة كيلوجرامات، ورفع أثقال بوزن 12 كيلوجرام، وصار يقطع مسافة كيلومتر جريًا في إحدى عشرة دقيقة، واستمر لمدة خمسين ثانية بلا نفس تحت الماء. كما أنَّه تمكَّن من أداء خمس حركات دفاعيّة من ضمنها قفزة النِّسر الصعبة، ابتكرَها في خياله وطبَّقها في غرفته حتى أتقنها، وهي قفزة واستدارة في الهواء ثم الرَّكل بكَعْب القدم قبل أن تمسّ القدم الأخرى الأرض، واستطاع أن يدخُل مطعم برجر كنج جائعًا؛ تكنيك ابتدعه لزيادة قوة التحمل النفسي. وينظر في عيني الكاشير

مباشرة ثم يوجّه أسئلة عشوائيّة، مثل: «كم عدد الثّروة الحيوانية في السودان؟»، «ماذا ستفعل الآن لو أنّك مِتَّ قبل يومين؟»، «ما دافع قاتل جون كندي؟»، «ماذا تعرف عن الثقوب السوداء؟» ثم يخرج من دون أن يفكر بطلب وجبة.

وصل إلى مرحلة سيارة السِّباق المستعِدّة أمام خط الانطلاق، تُزمجِر ماكينتها حماسًا في انتظار إشارة البدء، وكلّما طال الانتظار زاد احتراق البنزين وارتفعت حرارة الماكينة ونفد خزان الوقود.

وهذا ما حدث قبل بداية الشهر الخامس.

الإنسانُ مخلوقٌ يكبُرُ

أوشك أمير الظلام على كسر الرَّقم السابق لقطع كيلومتر جريًا، عندما بزغ في وعيه سؤال «ماذا بعد؟». لقد انقضت أربعة أشهر وسبعة عشر يومًا، دون أن تتواصل معه المعجزة ولو بتلويحة من البعيد تدلّه إلى ماذا تريد منه؟ توقَّفت عن الهرولة قبل الوصول إلى نقطة نهاية الكيلومتر، ونطق كلمته الشهيرة وهو يلهث: «الوصول إلى النهاية لا يعني النهاية».

سار متمهِّلًا إلى كرسي أسمنتيّ في أول المَمْشى، تقف أمامه سيارة بيع آيسكريم. مسح وجهه ورأسه بفوطته، وجلس يشاهد الناس يشترون الآيسكريم والماء البارد والعصير. بعث منظرهم الاطمئنان في نفسه. فوسوَسَ له اليأس: لماذا أنت متأكّد أن هناك مهمّة؟

في تلك اللحظة، وقعت عيناه على «حسن صواب» يتناول من البائع كيسًا ويستلم الباقي، ثم أتاه يدفع رأسه إلى الأمام حتى جلس بجانبه من دون أن ينظر إليه. أخرج حسن من الكيس زجاجة ماء صغيرة وصاروخ آيسكريم ملوَّنًا، شرِبَ الماء كله بنَفَسٍ واحد وأعاد الزجاجة الفارغة إلى

الكيس ثم أزال غلاف الآيسكريم وأخذ يلعق الصاروخ الثلجي الملون بتأنٍّ.

شابَ شعَرُ رأسه وشاربه بالكامل، فالإنسان مخلوق يكبُر، أما لحيته فكانت محلوقة للتوّ. ذكّرت عينه اليمنى أمير الظلام بالقصة التي قصّها عليهم وهم صغار، أنّه فقد سواد عينه بسبب ضربة تلقّاها في عراك مع مجرم كان سيخطف فتاة جميلة لولا استنجادها باسمه. أما خدّاه فكانا متغضّنين كأيّ خدَّيْن مرَّ عليهما خمسون عامًا.

آخر مرة رآه كانت في ظهيرة يوم ربيعي رائق من سنة 2000.(*)

---

* كنتُ جالسًا في سيارتي أنتظرها تحتمي، مُنزِلًا نصف زجاج النافذة وأنفخُ دخان سيجارة، فوقف قربي رجل غريب، حسبتُه سيسأل عن طريق بيت أحدهم، أو مكان ما، حتى قال: «عطني زقارة يالغالي».

فعرفته، وضحكت: «حسن، ما هذه الأناقة؟».

كرَّر حسن من دون أن يجيب: «عطني زقارة يالغالي».

نزلتُ من السيارة أطالِعُ حسن وأضحك من ذوقه في اللباس، إذ لم تكن ملابسه متناسقة. كان يرتدي تيشيرت أخضرَ عليه صورة علبة سفن أب، وبنطلونًا كُحليًّا من نوع الذي يرتديه الطلاب في المدرسة، يصل إلى حذاء أبيض لامع، وقد بالغ في تثبيت شَعرِه إلى الوراء بأحَدِ مُثبِّتات الشعر اللامعة، لكنَّ الشيء الأكثر إضحاكًا هو أنّه كان يرتدي نظّارات شمسيّة فَضِّيّة العدسات. أنزل النَّظّارة عن عينيه، فألقت عينه البيضاء عليَّ رهبتها. فكففتُ عن الضحك، ثم أخرجت له سيجارة.

استزادني سيجارة أخرى لأنّه مرتبط بموعد مُهمّ ولا وقت لديه ليشتري سجائر. أعطيته علبة كاملة شريطة أن يُخبرني عن الموعد المهم. دسَّ العلبة في جيبه وأخبرني: «سيُقام في السوق الجديد برنامج جماهيري من ضمن فعاليات مهرجان الربيع، تُصدِّق؟ مذيعة جميلة اسمها رشا ستُقدِّمه». ابتسم ابتسامة دهاء وذهبت عينه البيضاء شمالًا وسألني: «ما رأيك برائحة عطري؟». قرَّبت أنفي وشممتُ رائحةً ليمونيَّةً تشبه رائحة مزيلات العرق. امتدحته. فقال حسن: «رائحة الليمون تعجب الإناث، تُصدِّق؟»، أخذ حسن شمَّة وقال: «هل تعتقد أنّها ستصمد أمامي؟». لم أربط بين هذا كله، فسألته: «من هي؟». أخذ شمة أخرى من التيشيرت،

مدَّ صاروخ الآيسكريم، لما رأى أمير الظلام يطيل النظر إليه، وقال: «جرِّب، أحبّ الآيسكريم إذا كان باردًا، تُصدّق؟». شكره أمير الظلام ثم سأله عن صحّته.

أخرج الآيسكريم من فمه وأجاب: «زين، الجوّ ممتاز، أنا هنا أتمرَّن، تُصدِّق؟ هل تتمرن أنت؟».

وقال:

«المذيعة رشا، إنّها تبحث عن حُبٍّ حقيقي، تضحك مع الجميع، تُصدِّق؟».

«آهِ، المذيعة.. ستعجبُ بك، لكن لماذا عطر الليمون؟».

وضع السيجارة في فمه، وأعطيته ولّاعة، أشعلها ودسّ الولاعة في جيبه، ثم نفخ نفسًا من الدخان، وقال: «شاهدتُ دعاية لرجل رشّه على جسده، ولما مر بجانب امرأة، تخيَّل ماذا الذي حصل؟! التفتت إليه، ثم في نهاية الدعاية كانا يسيران معًا ويتهامسان بسعادة، تُصدِّق؟».

انفجرت ضحكًا فقال حسن: «ألا تصدِّق؟ البرنامج يُعرض على الهواء مباشرة، تابِعْه وانظر بنفسك كيف ستذهب رشا معي... إلى أين طريقك؟»، وقبل أن أجيب حاوَلَ حسن إغرائي: «أستطيع أن أسألها إذا كان لها أخت أو صديقة إذا أردت»، أخبرته -وأنا بالكاد ألتقط أنفاسي من الضحك- أنني ذاهب إلى فرع الجمعيّة. شكرني على علبة السجائر والولّاعة، ثم قدم لي نصيحة: «اسمه ريكسونا بالليمون، إذا لم تعرف كيف تتهامس مع إحداهنّ».

ثم ذهب إلى الشارع العام ليبحث عن تاكسي، يمد وجهه بمشيته المميزة إلى الأمام.

حين مررتُ بسيّارتي على الشارع العام، وجدته واقفًا على الرصيف، بيده سيجارة، ويجرّ بالأخرى صدر تيشيرته السفن أب إلى أنفه.

في نفس اليوم، جلستُ مع أمّي في الصالة آكل وجبة برجر كنج، وأشاهد على التلفاز برنامج مسابقات جماهيريًّا، فإذا برجل يُسرِّح شعره إلى الوراء ويرتدي تيشيرت أخضر عليه علبة سفن أب، يقترب من مقدِّمة البرنامج ليُجيبَ عن سؤال، وحين قرَّبت الميكروفون من فمه ليقول الإجابة، انتظر الرجل ثواني ثم قال كلامًا لم يتَّضح منه إلا كلمة: «نتهامس». طلبت المذيعة منه بلطف أن يرفع صوته، فصمت ثواني ثم قفز عليها وهو يرفع صدر تيشيرته إلى أنفها. صرخت، فتخدَّر ثلاثة رجال، وذهبت الكاميرا إلى سقف السوق وتحوَّلت الشّاشة إلى فاصل إعلاني لدعاية مزيل العرق ريكسونا.

«نعم أتمرّن».

«التمرين زين للناس، تُصدّق؟»، ثم سكت يطالع سيارة المشروبات الباردة ويلعق صاروخ الآيسكريم.

فكّر أمير الظلام وهو يتأمّله: ها هو إنسان سيتجاوز الخمسين سنة تقريبًا، ويبدو معافىً خاليًا من تكاليف الحياة الثقيلة، فهو أحد القلّة الذين لديهم قالب عقلي على قدر عالٍ من المرونة.

رمى «حسن صواب» عود الآيسكريم وعلبة الماء في القمامة وعاد وأصبعيه على شفتيه، يقول: «عطني زقارة يالغالي».

«سجائري في البيت».

«بيتك قريب من هنا؟».

«في الشارع الذي قبل شارعكم».

«أوه، تعرفني أنت؟».

«أعرفك، أنت حسن صواب».

«صحيح، أنا معروف تُصدِّق؟ زين.. متى تذهب إلى بيتكم؟ ليس معي زقاير».

قام أمير الظلام إلى البيت، وتبعه حسن صواب.

أخذ حسن يسأله -طوال الطريق- عن وظيفته ونوع سيارته، وأين يسافر كلّ صيف؟ وهل سبق وسُجِن بقضية سرقة بنك، هل لديه صديقة عندها أخت تبحث عن حب حقيقي؟

***

أشعل أمير الظلام سيجارة لحَسَن أمام الباب. نفخ حسن الدّخان ببُطْء، ثم لمظَ يتذوَّق نكهته. بصَقَ ثم هزَّ رأسه مُستحسِنًا، وقال: إنه يفضِّلها، فهذا النوع -دوفيدوف- وأيضًا إل إم أحمر، نكهتها قوية وتبعد النوم. أما المالبورو فنكهته حارقة مثل تدخين ورق الجرائد، لا يُساعد العين إذا ثقل عليها الجفن، والسبب يعود إلى أنَّ التبغ الذي تصنعه دوفيدوف وإل أم مأخوذ من شجرة تبغ أنثى، لا أحد يعرف هذه المعلومة، فأنثى التبغ تُكنِز النيكوتين في أوراقها، عكس ذكر التبغ، يخزنه في جذوره، ومالبورو تستخدم أوراق ذكر التبغ في سجائرها، لأنّه لا يكلف الشركة إلا القليل من الماء، وشيئًا قليلًا من سماد رخيص، أما أنثى التّبغ فهي لا ترضى بهذه المعاملة، وإلا لتركت المكان وذهبَت تنغرس في مكان آخر، لهذا سيجارة إل إم أفضل من عشر سجائر مالبورو. كانت فرصة ذهبية أن يدرِّب عقله على تجاوز المنطق، وما أن استبعد تلك المقاييس المتزمِّتة حتى بدأ يستطعم نكهة أنثوية في سيجارته.

تحدَّث حسن عن شجرة تبغ أنثى كانت في حديقتهم، قبل خمسة وعشرين عامًا، حينها كانت السيجارة الواحدة تردّ الرّوح. كان يُجفِّف ورقتين كلّ يوم، ثم يطحنهما ويلفّهما بورق خفيف ويدخنها.

نفخ الدخان وهو ينظر إلى السيجارة بازدراء: «بالرغم من أنّني كنت أدلّلها، إلا أنّني قمت في أحد الأيام من النوم ولم أجدها مكانها، تُصدِّق؟ بحثت عنها في الحدائق المجاورة، لعلّ أحد ذكور السدر أغراها، فلم أعثر عليها، لا يغرّك شكل السدر المسكين، إنَّها شجرة نذلة إذا وجدت الفرصة».

اشتهى أمير الظلام اثنين دبل برجر فقط، بعد أن رأى كيف يدخِّن حسن

صواب باستمتاع، ويتحدث بلا خشية من ردٍّ فعله، ثم رآها فرصة مناسبة لوضع قوة التحمُّل التي مرّنها طوال الأربعة أشهر الماضية محلّ التطبيق، فذهب حين انصرف حسن صواب، إلى مطعم برجر كنج وهو يفكّر بوحي من الأسى الذي أصاب بواعث العزم بداخله: ماذا لو أتت المهمّة وهو في عمر حسن صواب؟ ماذا سيفعل إذا لم يمدّه جسده -الذي سيشيخ مع مرور الزمن- بالقوة الكافية لمواجهة الخطر الذي يرمِق البشرية بنظرة حاقدة؟ الإنسان يشيخ ويريد أن يفعل كلّ شيء قبل ذلك الحين، لأنّه يرى بعينه كيف يشكو المُسنّون من صعوبة الحياة ويتذمرون من قلة المُتَع فيها؟ حتى الطعام، لا يأكلون إلا الأطعمة الخالية من الطعم، ويطيلون المضغ.

وقف أمام الكاشير في المطعم، وسأله بصلافة:

«لماذا نكهة إل أم أحمر أقوى من نكهة المالبورو؟».

طالعه الكاشير غير متأكّد مما يقول: «أعد طلبك لو سمحت».

فأجابه ونهاية الكيلومتر تنطوي:

«اثنان دبل برجر مع جبنة»، شهق وتابع: «شبس وكوكاكولا حجم كبير».

تأمَّل المسألة بتجرُّد من أحكامه المسبقة، وهو يلتهم آخر أصابع الشيبس: لا يوجد شيء يستحق القلق. لعلّني بالغت في اتخاذ القرارات قليلًا ولم آخُذ عامل الزمن في الحسبان، طالما أنّ نية إنقاذ البشرية موجودة، فالمعجزة تستطيع أن تفعل شيئًا حيال وزني وقواي البدنية إذا جاء وقت النداء.

الإنسانُ مخلوقٌ يُريحُهُ اليقينُ

أدرج أمير الظلام في برنامجه وجبة هامبرجر مرة واحدة في الأسبوع، وفي اليوم التالي شعر بعد جولة غطس أنّه بحاجة إلى إدراج وجبة هامبرجر أخرى، فعدّله تجاوبًا مع الحاجة، وفي اليوم الذي بعده قرّر أن تكون مرة في اليوم فقط لا غير؛ لأنَّ النَّفْس إذا حُرِمت من كلّ الملذات فلن تجد في الحياة شيئًا يستحقّ الدفاع عنها، وغيَّر فقرة الهرولة، توفيرًا لطاقته، من يوميًّا إلى يومين كلّ أسبوع وفي وقت مفتوح لقطع الكيلومتر. النادي مرَّتين في الأسبوع كي لا يبرُد دمه ولا يسخن فتذوب العناصر المُغذِّية. واكتفى بأداء مقاطع الفنون القتالية بخياله. ولم يطرأ أيّ تغيير على مدة مكوثه تحت الماء. وفيما يختصّ بالعقل اشترى مجموعة من روايات إحسان عبد القدّوس، تساعد الذهن على الاسترخاء، وكتابين عن مواجهة الجمهور، وكيف تدير مشروعًا ناجحًا؟ وكُتيِّبًا عن استغلال قوة الذكاء في حلّ النزاعات.

تجنَّب الحديث عن الحادث ما استطاع، لأنَّه كان يقوده إلى إخراج نقّاله وفتح الأستوديو على صورة سيارته وتمريرها إلى المستمِع، وهذا ما كان

يسمعه؛ كلمات متهكمة. كما حدث مرة، انفعل فيها محمود رجب محمود عندما أراه الصورة للمرة المائة كما يزعم، كان أمير الظلام يريد أن يبيِّن له كذبة أحد زملائهم الذي يَدَّعي أنه خرج من النافذة، فأشار لمحمود إلى حجم النافذة وحجم جسمه: «كيف أخرجُ منها؟»، فقال محمود نافد الصبر: «خلاص، والله العظيم أعلم أنها معجزة، هات القرآن أُقسم عليه». وذهب عدة دقائق ثم عاد يقول: إنَّ المدير يريده في مكتبه. وهناك سأل المدير أمير الظلام بصوت يريد به إثبات أنه يستحق منصبه: «لماذا تعرقل سير العمل في الإدارة؟». كان محمود رجب محمود يستمع عند الباب.

واصلَتْ نرجس في العمل مكالمة صديقاتها، تنتقد فلسفة الرجيم السابق الذي بعثته لهنّ في الواتس آب، وتصرّ على أنَّ تكنيك ملعقة السكر هو الأفضل لأصحاب البشرة الفاتحة.

لم يتفاجأ أمير الظلام لمَّا وجد وزنه قد زاد سبعة كيلوجرامات، بعد شهر من تعديلاته على الجدول. تعامل مع الزيادة بمرونة وقرَّر أن يوظّفها في حركة قتالية أطلق عليها اسم «جاذبية الكتلة المندفعة»، ابتكرَها من دمج خبرته الحسابيّة مع عدة حركات هجومية شاهدها على اليوتيوب. وهي أن يحضن الخصم ويركض، بكامل سرعته إلى أقرب جدار: السرعة+ الوزن+ المسافة المقطوعة+ وزن الخصم= كتلة الجدار= أثر حادث دهس.

خَصَّص جزءًا من الاسترخاء اليوميّ لاستعادة تفاصيل الحادث، فقد لاحظ أنَّها بدأت تتحلَّل من أطرافها تدريجيًّا بعوامل الزمن ومجريات الحياة اليوميّة. يغيب منفصِلًا عن الواقع في انغماسه العميق بين أغصان شجرة الياسمين، ويستحضر المشهد كاملًا إلى أن يرفعه المسعفون. دخلَت أمّه غرفته مرَّة وهو ثاوٍ في حالة استرخاء غائرة العُمق، يحاول شمّ رائحة

الدّخان الأبيض الذي كانت سيارته تنفثه يوم الحادث، أخذت أمه تناديه من دون أن يجيبها، فحسبته ميّتًا، ولم يُجِبْها إلا حين غرست عصاها في بطنه.

تكرَّر الجدول بمجريات اليوم، حتى صارت خطواته عادة، والعادة تصير روتينًا بطريقة خفيّة، والروتين يجعل الحياة تمضي مثل آلة ميكانيكيّة تعمل على تصنيع معلبات متشابهة. فتح الدّكتور رشيد عينه على أشياء لم يكُن يفكِّر بها، فهُنا مكمَن حيرة الإنسان، إنّه يعمل لأجل شيء وينسى بعد مُضيِّ الوقت ما الشيء الذي كان يعمل من أجله؟ وهكذا تُنضد أيامه على رفّ العمر متشابهة بجانب بعضها. هذا الأمر انتبه له أكثر من مرّة؛ مرّة عندما كان يفكِّر في مقطع الدّكتور مصلح وارتدى ملابسه الرياضيّة بلا إدراك، ولم يعِ إلا وهو يهرول في منتصف طريق المشى، ومرة كان يتجوَّل في ممرات العمل ويشاهد الزملاء وهم يتحدثون عن شيء وأيديهم تقوم بشيء آخر، ومرة وجد نفسه يركن سيارته أمام مطعم، ولم يذكُر الطريق الذي سلكه والسيارات التي تجاوزها والإشارات التي توقَّف عندها حتى وصل إلى هنا.

ومرّة أثناء عودته من العمل سأل نفسه: لماذا أذهب إلى العمل؟

فتوغل مرة - كان جالسًا أمام بيتهم يتأمَّل هيكل سيارته - في التفكير في هذه الهوة السحيقة: إنسان هذا اليوم يقوم من النوم صباحًا ويذهب إلى العمل حتى الظهر ثم يعود إلى البيت. يتزوج وينجب، يكبر أولاده ويذهبون إلى العمل صباحًا حتى الظهر ثم يعودون إلى البيت، ويتزوّجون وينجبون، ويكبر أولادهم ويذهبون إلى العمل، وهكذا يتم الأمر في مصانع المعلّبات.

ثم خمَّن أنَّ المهمّة ربما تكون في تنبيه البشر إلى أنّهم صاروا آلات..

فالمجتمع يتحوَّل إلى مصنع إنتاج أدوات تفعل كلَّ شيء بتكرار. يحتاجون صرخة تُنبّههم إلى الأسلاك التي يشبكون أنفسهم بها، تيار كهربائي من الخداع والغش ونكران المقصد من الحياة يحرّك رغباتهم، وبينما هو في ذلك الانهماك في التعمّق في الأشياء، إذا بجارهم فرحان العجوز يأتيه مرتديًا بيجامة نوم، ويسير خلفه اثنان من أبنائه، يحمل شيئًا في يده؛ الشيء الذي سيعطيه أول الخيط الذي سيدُلّه على المهمة. ملأ فرحان وجهه بابتسامة قبل بضع خطوات، وقال بنبرة دارجة: «شلونك؟».

أراد أمير الظلام أن يعطيه درسًا في كسر النمطيّة، فقال: «حنطي».

ضحك فرحان: «أين هذا الحادث من قبل، جعل دمك خفيفًا».

التفت أمير الظلام إلى ابنَيْ فرحان وهما يتّجهان إلى سيارته تحت الشجرة. فوقف وتمطّى، ثم صافح فرحان، وقال بنبرة متوازنة الأطراف: «فرحان.. يجب أن نعيد النظر في بعض العبارات التي أفسدتها كثرة التداول، مثلًا: ما معنى «شلونك»؟ لماذا لا تقول: «كيف تشعر؟»، أو «ما حجم سعادتك في الحياة؟»، أعرف أنك تريد بـ»شلونك» السؤال عن حالي، لكن حالي ليس لوني».

ضحك فرحان وأكمل أمير الظلام رسالته: «يجب أن نختار كلامًا يعبِّر عنَّا ولا نكُنْ ببغاوات نردِّد وراء الناس ما يردِّدونه، إذا مشينا وراء العقل الجمعي سوف نتوه، فلنفكِّر خارج الصندوق مرة واحدة على الأقل كلّ يوم».

ضحك فرحًا وقال: «يا لهذا الحادث»، ثم مدَّ الشيء الذي في يده وقال: «رأيتك من الشباك فقلت أريك هذه الصورة».

كانت صورة التقطت لهما في شارعهم قبل ثلاثين عامًا.

«وجدتها اليوم في ألبوم قديم، كانت في أول يوم لنا في الثانوية، ولا تزعل من الحركة التي وراءك»، وضحك بصوت عالٍ.

أخذ أمير الظّلام الصورة وألقى نظرة بطريقته الجديدة في النظر لرؤية الأشياء من الداخل. كان الشكل العام لفرحان هو ذاته الآن؛ نحيف ورقبته طويلة، إلا من بطنه البارز الآن وشَيْب لحيته، بينما كان بدينًا كما هو دائمًا، بلا رقبة، كان شعره ناعمًا وطويلًا. يقفان بجانب بعضهما، يرفع فرحان وراء رأس أمير الظلام أصبعين.

سرعان ما لفت انتباهه شيء غريب في الصورة، شيء لا ينتبه له صاحب العين التي دجَّنها الاعتياد، وهو شجر الياسمين الذي كان يبدو سعيدًا وهو يزيِّن الشارع العام خلفهما في الصورة، وانتبه إلى أنه اختفى الآن تمامًا.

تقدَّم يطالِعُ الشارع العام، فرأى أنَّ أشجار الكوناكاربس قد استولت على كلِّ شيء.

«انظر»، أشار إلى الصورة: «شجر الياسمين.. أين اختفى؟».

لم يكترث فرحان لهذه الغرابة لأنَّه مثَّل كلّ الناس، لا يتعدّى القشرة، يحبُّ الطّمأنينة التي توحيها ظواهر الأشياء المألوفة، أما هو، على ضوء العَداء الذي نَصبه لقشرة الأشياء، والتأثُّر بالمعجزة التي حصلت، وقصص العظماء، والانتقال الأثيري، والتحوّل إلى ضوء، فقد نفذ بسرعة إلى اللُّب وبدأ الشّك ينقر صدره بأرقام كثيرة يريده أن يعيد تدقيقها: «متى وكيف اختفى الياسمين؟ ومتى وكيف حلّ مكانه الكوناكاربس؟».

التفتَ فرحان وقال: «إنّه لا يذكُر». انقبض صدر أمير الظلام ريبة،

فاستأذن فرحان لأخذ صورة لصورتها بكاميرا نقّاله، ثم شكره.

كان ابنا فرحان يحاولان الدخول إلى هيكل السيارة، فناداهما أبوهما ليعودا معه. أخرج أحدهما رأسه من زاوية ضيّقة في باب السائق المجعّد، ونزل الآخر من المقدِّمة المطعوجة. عندها رأى أمير الظلام أنَّ الشجرة التي ركن سيارته تحتها هي شجرة كوناكاربس، فهمَسَ لنفسه بارتياب خافت: «انتباه انتباه». يعرف أنَّ هناك ظلّ شجرة وضع تحته سيارته لكنه لم ينتبه يومًا أنها كوناكاربس. «أيّ عين أليفة لديَّ!». سأل نفسه وهو يفتِّش عن هذه الشَّجرة بذاكرته: «متى زُرعت؟ ومن زرَعَها؟ وكيف نمَتْ من دون أشعر بها؟». كانت إجابة السؤال الأخير سهلة: «بسبب الاعتياد»، أما السؤال الأول والثاني فلم يجِد إجابتيهما.

دخل البيت يفكِّر في الأشياء التي اعتاد عليها أيضًا حتى فقد القدرة على رؤيتها وهي تخرج عن الدور المحدَّد لها.

كانت صالتهم تعبِّر عن نفسها ككُلٍّ مرة يمرّ بها، وأمه كانت جالسة باطمئنان تشاهد التلفزيون من على أريكتها، والخادمة في الزاوية البعيدة تكوي ملابس على طاولة الكيّ. صعد إلى غرفته يجسّ بعينه نبض درجات السلّم. يستطيع أن يصل إلى غرفته وهو مُغمِض العينين، واعتمادًا على الصورة المحفوظة في ذهنه للطريق. علم أنّه يرى العالم من خلال ذاكرته أكثر من رؤيته من خلال عينه. كم لعبة انطلت عليه بسبب اطمئنانه الأبله للقشور التي تحجب لبّ الحقيقة؟! يجب أن يعيد النظر في كلِّ شيء. صحيح أنَّ الطريق إلى غرفته منذ أربعين سنة لا يزال على حاله، لكن ما أدراه.. لربما تغيَّر شيء ببطء ولم ينتبه له، فالإنسان مخلوق يريحه اليقين ويقلقه الشك، وهذا ناجم عن طبعه الكسول وإرادته التي تتوق إلى الاضطجاع.

طالَعَ غرفته، هنا قضى أكثر عمره؛ السَّرير وأمامه الأريكة التي يجلس عليها، التلفاز الذي أمامها، متى اشتراه؟ ألم يكن في الزاوية الأخرى؟ تصبَّب العرق من جبينه، الجدار يحتاج إلى صبغ، زاده التعرّق رغبة في الغطس في البانيو، باب حمّام غرفته به ثلاثة ثقوب، الموكيت أزرق منذ متى؟ دخل الحمّام كأنّه يدخُله للمرة الأولى، فتح ماء البانيو وانتظره يمتلئ وهو يفكّر: ما التّغيرات التي حدثت دون أن أعي تغيّرها؟ الأشياء تتعرّى أمامه، فيما يحاول عقله سترها بحِيَلٍ منطقيّة. أليست هذه المشكلة التي تحدث عنها الدكتور مصلح؟ التبرير؛ حينما يجتهد العقل ليجد سببًا يُطمئِن النفس به.

تمدَّد بملابسه في الماء الفاتر وانغمس بسكون.

استحضر الصورة لمّا وصل مستوى أعمق من الاسترخاء، كاتمًا أنفاسه، وفكَّر في شجرة الكوناكاربس؛ شكلُها مريب، اسمها يمهِّد الطريق للأخبار السيّئة، يصلح اسمًا لديناصور يتغذّى على اللحم النّيء. ما ضرر الياسمين حتى يُستغنى عنه؟ اسمه يليق بعصفور أو عطر أو حليب أطفال. كيف لم ينتبه لهذا الانتشار المنظّم والجَلِيّ؟

كان ذلك طرف الخيط الذي قاده إلى اكتشاف المؤامرة.

ما قاله الدكتور مصلح رشيد

«قالب العقل»

فتح الفيديو على وجه الدكتور مصلح آينشتايني القسمات، ينظِّف عدسات نظارته بمنديل، يستمرّ في النظيف، ويقول:

«أهلًا بك مرَّة أخرى أيّها المشاهد، أنت الآن حائر، وتسعى إلى التشبُّث بأساليبك التفكيريّة السابقة، هذا شيء طبيعي، لأنَّك مُبرمَج على أنّك إذا فكرت بهذه الطريقة ستصِلُ إلى الحقيقة، وبالتالي ستكون مرتاح الضمير لأنّك تفعل الصواب، أمّا الطرق الأخرى، فأنت تعتقد أنها تقود إلى مناطق مظلِمة لا تستطيع بواسطتها التأكّد من وجهتك، وهذا مُقلِق، وأنت لا تحبّ أن تكون قلِقًا».

يرتدي نظاراته ويُكمِل:

«لقد مرَّ وقت طويل عليك في الحياة من دون أن تنتبه لذلك. صار كلّ شيء لديك مألوفًا وفقدَت الأشياء جاذبيّتها بالنسبة لك، فأنت تعرف

كلّ شيء وفقًا للقالب، وتنظُر إلى كلِّ شيء عبر صورته التي في ذاكرتك، وتكون قد جرَّبت كلّ شيء، حتى مللتَ. مثل طفل ملَّ من لعبة كان مبهورًا بها أوّل مرة. لم يعُد يغريك شيء، لأنَّ قالبك تصلَّب بسبب طول التّكرار. تحتاج شيئًا جديدًا، لكن لا يمكنك أن تتصرَّف كيفما تشاء، فأنت لا شعوريًّا مقيَّد بشروط المجتمع لسلامة سمعة مَنْ هُم في مثل عمرك الآن. تتذكَّر أيام الماضي مثل جنّة أُخرِجْت منها عنوة. هذا باختصار هو سبب الحزن الذي أنت فيه.

والآن أعِرْني سمعك الرّهيف:

قلنا في الفيديو السّابق: إنَّ المنطق هو الأدوات، وإنَّ العقل يستخدمها ليتأكّد من صحة الأشياء التي يرى تطابقها مع شكل قالبه.

الآن سنتحدَّث عن الأدوات التي تُشكِّل قالب العقل، وإذا فهمناها يمكِنُنا أن نعرف كيف نجعل هذا القالب مرِنًا، وننطلِق في العالم بشروط مستحَبَّة ولكن غير ملزِمة.

هذه الأدوات هي: الروتين والعادات والمألوف.

إذا فكَّرْت في يومك الذي تصحوه من الصباح إلى الليل، ستجد أنَّك تقطعه بخطوات ثابتة لا تتغيَّر إلا نادرًا؛ الاستيقاظ، الإفطار، الذّهاب إلى العمل، العمل، العودة إلى البيت، البيت، الذهاب إلى النادي، النادي، العودة إلى البيت، البيت، النوم، الاستيقاظ، الإفطار.. وهكذا دواليك.

هذا نسمّيه «روتينًا»؛ إنّه الخطوات الثابتة الأساسية التي تفعلها كلّ يوم في نفس الوقت وبذات الطريقة.

الذّهاب للبحر مثلًا، أو التسوق، أو سرقة السَّيارات، أو الزِّيارات

العائلية والالتقاء بالأصدقاء، السّينما، خوض الحروب، هذه ليست من الروتين، حتى وإن كانت ثابتة شهريًا أو أسبوعيًا.

الرّوتين أيّها المشاهد الرائع هو مشكلتك الأولى. إنّه الطريق المُفضَّل للمَلل، والملل هو التربة التي ينمو فيها الاكتئاب، والاكتئاب هو الذي يقبض صدرك هذه الأيام، فلِكَيْ تتخلَّص منه يجب أن تنصب العداء لمجريات يومك منذ الآن، تحرَّش بها، واجِهْها، وهاجمها إذا رأيتها غافلة. (غمز بعينه اليسرى): سأعطيك الخطة آخر الفيديو.. ابتسم الآن.

أنت الآن تسأل: «كيف الروتين هو المسؤول والمنطق والقالب مسؤول؟».. الله ينوّر عليك..

ينزع نظّاراته ويضعها أمامه على الطاولة ويتابع:

«الرّوتين يعمل على أمرين؛ الأول هو أنّه يكرِّر الأيام، يجعلها نسخًا كربونيّة، فلا تذكُر ما جرى لك يوم أمس ولا اليوم الذي قبله، ومن المرجَّح أنّك نسيت ما هو أهم شيء فعلته قبل أسبوع. يمرّ الشّهر وراء الشهر، العالم يتغيَّر حولك من دون أن تنتبه، يمضي العام في أثر العام، وأنت تُكرِّر يومك باستمرار، حتى تأتي اللحظة التي تُنبِّه إلى تبدُّل كل شيء حولك وأنت لا تزال على ما أنت، تجد أنك جرَّبت كلَّ شيء ولم يعُد هناك شيء جديد لتكتشفه، فتصبح الحياة علكة مضغتها حتى فقدت طعمها ولا زلت تمضغها، والآن تنبَّهت إلى أنك لست المكان الذي حدّده المجتمع لمن هم في مثل عمرك. قرَّر المجتمع أنّ الذي في مثل عمرك يجب أن يكون متزوِّجًا ولديه أولاد يأخذهم كلّ يوم إلى المدرسة ويتابع تعليمهم ويرسم لهم مستقبلًا آمنًا، لديه مأوى خاص: بيت، شقة، خيمة... إلخ. يشارك

المجتمع في أنشطتهم التقليديّة ويسألونه عن عائلته، إذا شعرت أنّك غير ناجح في المرحلة التي وَضعَك بها مجتمعك فستأتيك الانقباضة، سترى بعد أسابيع الهالة السوداء الآثمة للحزن تستدير حول جفنيك.

الأمر الثاني الذي يقوم به الروتين - بصفته تكرارًا- هو تحويل كلّ شيء يتكرَّر إلى عادة، يصير العمل عادة، الاستيقاظ عادة، والأكل، والخروج، وممارسة الرياضة. يحجب الطريق إلى العمل، ويخفي المعالم المحيطة به، لأنَّ العقل اللاواعي رسمه، يصبح عادة، تذهب بلا وعي، من دون أن تقصد تجاوز السيارة التي أمامك، أو الوقوف قبل الإشارة، أو تخفيف السرعة للسماح بمرور سيارة أخرى، كأنَّك تعمل على برنامج قيادة آليّ، تصل إلى مكتبك بسلام، وتقوم بمهامك، بلا شعور أيضًا، لأنّك اعتدت على القيام بها مرارًا وتكرارًا حتى صِرْت آلة ميكانيكيّة مبرمَجة، تعود إلى البيت ولا تعلم كيف قدت؟ تفكّر طوال الطريق في أشياء كثيرة، تفتح الباب وتبحلق في المكان من دون أن تراه، تذهب إلى غرفتك بلا انتباه إلى الطريق، لأنّك تسير على الصورة التي خزَّنَتْها ذاكرتك من طول التكرار، لا تعرف ما لونُ السجادة التي أمام باب غرفتك، ولا لون السرير؟ ولا متى آخر مرّة طالعت الممرّ المؤدي إلى طاولة الطعام، ولا لون طاولة الطعام، لأنّ الروتين أخذ هذا كلّه إلى غياهب الاعتياد، وتحوّلت إلى شيء سائد، والأشياء السائدة لا تصبح مرئيّة».

يرتدي نظّاراته وينظر إلى السقف، وهو يقول:

«هل نظرتَ إلى غرابة السماء.. إلى الطريقة الغريبة التي تنبسط بها الأرض؟ لقد فقدنا الدّهشة التي يستحقّها شكل الجبال والغيوم؛ التّكرار

والاعتياد أدخلا هذه المعجزات إلى المألوف حتى صِرنا ننظُرُ إليها على أنّها أشياء سهلة، حاوِل مرّة أن تتجرَّد من كلِّ نفسك ومعارفك المسبقة وانظر إلى العالم بصدق وستعرف كيف يقتل الروتين جمال الحياة؟ ما نحتاج إليه دائمًا هو التغيير».

يعيد عينيه إلى الكاميرا:

«النَّفس تركن إلى المعتاد خوفًا من التغيير، لذلك تعمَد مع كلِّ شيء جديد إلى نظام «الارتياب» الذي تبثّ به ذبذبات القلق لتشوِّش على مهارات استخدام أدوات المنطق، وتستخدم شكل القالب لصالحها، اعتادت أن ترى الأشياء باللون الأحمر، فأيّ لون آخر يثير توجّسها من أنه تغيير للأسوأ. ومتى كثرت عليها الألوان زاد تمسكها باللون الأحمر ورأت فيه لونًا يمثل الأمان والحقيقة، وسخَّرت أدوات المنطق لإثبات ذلك. وهذا واضح في أيِّ مجتمع تأتيه دعوات الحداثة، تصير رجعيته إلى الماضي أشرس ومبنيّة على أدوات منطقية أمتن، وهذا الدفاع لم يأتِ من بحث علمي يكشف مفاسد الحداثة، بل هو ردُّ فعلٍ طبيعي لفكرة الخوف على الأجيال من التغيير، فيقوم المجتمع بشيطنة الحداثة وفق «شكل القالب للعقل الجمعي»، فلذلك تمرّ سنوات طويلة حتى يتغير ذلك الشكل. اقرأ قصص العظماء الذين غيَّروا مسار التاريخ، ستجد أنَّ العوامل المشتركة في قصصهم أربع، وهي: الصبر، ومواجهة المجتمع، والاتهام بالجنون، والتفكير خارج شكل قالب العقل الجمعي، ثم لمّا يُخدش قالب العقل الجمعي مرارًا يلين ويعيد التفكير فيما جاء به هؤلاء العظماء، وبعد ذلك -لا شعوريًّا- يأخذ الشكل الجديد في القالب مكان الشكل القديم ولا

يعود أبدًا للقديم. انظر إلى العرب بعد نجاح دعوة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ورضوخهم لها، كثيرون ادّعوا النبوّة بعده، لكن لم تقُم دعوة واحدة بالعودة إلى عبادة الأصنام، لأنَّ شكل القالب الجمعي القديم تغيَّر، وصارت النبوة توافق القالب الجديد.

أيضًا حين رُفِضَت فكرة بيضاويّة الأرض منذ مئات السنين، لم يكن رفضها مبنيًّا على بحث علمي بل لأنَّ فكرة أنّها مسطحة جاءت من قبل، وتشكَّل قالب العقل الجمعي على هذا، رفضوا الفكرة استنادًا إلى دليل واحد يجسِّد قالب العقل الجمعي، وهو: لم يقُل مَن قبلنا مثل هذا، ولو سألتُهم أين الدليل الذي جاء من قِبَلِكم على أنها مسطَّحة، هنا سيقولون دليلهم الآخر: أنت مجنون.

بعد سنوات طويلة من نشر البحوث والصور الفضائية القاطعة ببيضاويّة الأرض، خُدِش قالب العقل الجمعي الذي تشكَّل على أنَّ الأرض مسطّحة، وأخذ الشكل الجديد.

إذا اقتنع المجتمع أنَّ الدجاجة محفظة نقود سيحمل كلّ واحد من أفراده في جيبه دجاجة.

تعال الآن أُخبرك عن الحقيقة التي طرحتها في بداية الفيديو السابق: العقل لعبة النفس.

هذا الأمر يتجلّى في الوسواس والشّكّ، وهو أنَّ النفس ترغب برؤية شيء غير موجود فيعمل العقل على إيجاد قرائنه، فإذا وجد قرائنه اشتعلت نار الخوف والغضب، وهنا يعمل العقل على مدِّها بالوقود اللازم لإحراق الأعصاب، حتى يُجبر المخيلة على تخيُّل أمر لم يحدث فتتلقّفه النفس تحت ألسنة اللهب المستعِرة، من دون أن تتأكَّد من صحته، فقط لأنّه يوافق

القرائن التي أتى بها العقل، ومن ثمّ يستمرّ القالب بالانصهار والتشكُّل كلّ يوم على شكل حتى يصبح بلا شكل.. وهذا هو الجنون.

ألم يحدث لك أن وقع بينك وبين شخص كنت تحبّه خلاف نتج عنه قطيعة؟ ألم تسأل نفسك عن سلبياته وأخلاقه السيِّئة التي صارت واضحة فجأة؟ أين كنت عن كذبه الذي قاله على نحو مكشوف حتى لِأَغبى الناس؟ كيف انطلى عليك تمثيله بأنّه شخص طيب ومُحبّ؟ في الحقيقة لا يوجد شيء تغيَّر، المسألة هي أنَّ عقلك وقع تحت سيطرة موقفك النفسي منه، فقد لا يكون هناك كذب وربما أخلاقه التي تراها سيئة الآن ليست موجودة. أنت ترى فيه الذي تريد أن تراه فيه.

عندك ثلاثة واجبات حتى الفيديو القادم:

مَسْح كلّ الصور الذهنيّة التي لبَّدها التكرار في عقلك الباطن، انظر إلى بيتك، سيّارتك، غرفتك، شارعك، مكان عملك، ستعرف أنَّ هناك تفاصيل كثيرة تغيَّرت من دون أن تلاحظ.

خالِف الأقوال النمطية مثل التحايا اليومية: كيف حالك؟ شلونك؟ بخير الحمد لله، صباح الخير. ابحث عن ردود تعبِّر عنك وحدك.

غيِّر ترتيب غرفتك، غيِّر مكان مكتبك، إذا كانت لك لحية احلقها، إذا كنت سمينًا انتظم في رجيم من ابتكارك فورًا.

ضَعْ في بالِك أنَّ القَدَر اختارك ليجعلك شخصًا أفضل.

كان معك الدكتور مصلح رشيد».

يخرج من وراء الطاولة ويُنهي التَّسجيل.

الإنسانُ مخلوقٌ يبتكِرُ

لمّا حلَّ الليل ذهب أمير الظلام إلى الممشى، وفي يده غصنُ شجرة كوناكاربس، قطعه من الشجرة التي أمام بيتهم ليتأمّله عن كثب، اشترى زجاجة مياه من محلٍّ قريب، ثم تابع السير وهو يطالع في طريقه أشجار الكوناكاربس الكثيرة، مستغرِبًا كيف جعله الاعتياد لا ينتبه لها من قبل؟! رأى «حسن صواب» على الضوء الفضيّ الذي تضخّه الإضاءة الداخلية لسيارة المشروبات الباردة، جالسًا على الكرسي الخرسانيّ المُسلَّح، يرتدي ثوب نوم رماديًّا مقلَّمًا بخطوط سوداء، وعلى رأسه قبّعة رياضيّة زرقاء، يلعق صاروخ آيسكريم مُلوَّن.

حيَّاه: «مساء جميل أتمنّاه لك»، وجلس بجانبه.

أخرج حسن الصاروخ الملوَّن من فمه، ودون أن يحرك عينه قال: «هلا هلا، كيف حالك؟ منذ زمن لم أرَك».

«بدأ الصيف، الهواء ألطف بالليل.. ما الذي جاء بك هذا الوقت؟».

وجّه عينه البيضاء إلى أمير الظلام: «ليس عندي شيء أفعله».

اشترى أمير الظلام علبة ماء، وعاد بجانبه وشربها على مهل مستمتِعًا برِقَّةِ الهواء. قام حسن ليرمي عود الآيسكريم في القمامة، وأتى يضع إصبعيه على شفتيه: «عطني زقارة يالغالي».

«سجائري في البيت».

«هل ستذهب الآن؟ أنا لم أُدخِّن منذ الظهر».

سأله -وهما في الطريق- عن الغصن الذي يحمله أمير الظلام. أوحت عين حسن اليمنى البيضاء -بسبب التصاقها الشديد بوجهه- بأنّه سيُولي قصته غاية انتباهه. فأبطأ الخَطْوَ حتى يقول كل ما لديه، بدءًا من حالة فقدان الأهمية التي جعلته يُنكر صورته في المرآة، مختصرًا ما قاله الدكتور مصلح عن الحزن اللاسببي، مرورًا بالروتين وخطواته التي تعمل على تكلُّس الوعي وضمور عضلات الانتباه، ثم التوسُّع في وصف معجزة الحادث ودلالته القاطعة بأنه سيكون عنصرًا فاعلًا في قدَرٍ سيَرْسو بالبشريّة على برِّ الأمان، إلى الصورة التي جاءه بها فرحان يوم أمس وصولًا إلى ارتيابه من شجرة الكوناكاربس.

ظلّت عين حسن البيضاء متحفِّزة طوال الحديث، كلّما التفت إليه أمير الظلام في أثناء السير، وجدها متنبهة كأنها تُبصِر لبّ الكلمات. يجهل أمير الظلام ذلك الشعور الذي خامره وهو يطالع وجه حسن صواب، فيما كان يخوض في آخر التفاصيل، شعور كأنّه طالب يشرح لأحد العباقرة -الذين يتصرّفون بطريقة غير نمطيّة- جدول الضرب. العبقرية جنون واعٍ كما قال الدكتور مصلح. ولمعت في رأسه فكرة متجرِّدة من المنطق: ربما عينُ حسن اليُمنى تبصر أشياء لا نراها.

أخذ حسن سيجارته وراح يدخّنها عند الرفاة الحديديّة للسيارة. جلس أمير الظلام على الرصيف يشاهده وهو يُدخِل رأسه في الغمرة من عدة أماكن، وينحني تحتها، يذهب إلى المُقدِّمة ويعود يُدخِل رأسه، ويتلمَّس جذع الكوناكاربس بحذرٍ من يلمِس صاجًا ملتهبًا، يدور حول السيارة ويرجع إلى باب السائق ويتفحَّص المقعد، كأنّه وجد رابطًا غير مرئيٍّ بين السيارة والشجرة. تشمشم باب السائق، قرَّب أنفه من المِقبض، شمّه قليلًا، لعق الباب يستطعمه، ثم وقف يتأمّل المقدمة.

استغرقه الأمر سيجارة كاملة حتى خلص إلى نتيجة متوقَّعة:

«اسمع، أنا معروف بأنني لا أُجامل، الذي حدث معجزة، تُصدِّق؟».

ابتسمَ أمير الظلام، وقال: «فعلًا معجزة».

«لكِن توجد نكهة أنثى إنسان جميلة على الباب، تُصدِّق؟ يصعب التفريق بين نكهة إناث الإنسان الجميلات ونكهة المعجزات، تُصدِّق؟».

ثم جلس بجانب أمير الظلام صامتًا، وتراءى للأخير أنَّ عين حسن البيضاء تُواصِل البحث عن مغزى الحادث. لا يعلم ما كان يدور في ذهنه، لكن من اِلْتِمامِ جبينه وتكوُّر جفنَيْه على عينَيْه جزَمَ أنه اخترق الشَّكل، وبصره يمضي الآن في طريقه إلى العمق، حيث تستلقي الحقيقة عارية. أعطاه سيجارة أخرى، ومن دون تَحوُّل نظرته عن السيارة وضعها حسن بين شفتيه وأخذ الولّاعة وأشعلها. استمرّ ساكِنًا يتأمَّل السيارة حتى انتصف الرّماد، فأخذ تنهيدةً متقطّعةً، ثم شفط نفسًا عميقًا من السيجارة، وأخرج الدّخان بهذه الخلاصة: «لا أحد ينجو من حادث كهذا بلا هدف».

«وهذا ما أُلْقِيَ في يقيني ساعة الحادث».

غاب حسن في صمت مشحون بتعبير الإدراك إلى أن أنهى سيجارته، فقال، فيما عيناه تمزّقان الحجب التي تلفّ الشجرة: «الكوناكاسيس لها قصّة معي، غدرت بي مرة، تُصدِّق؟».

صحَّح أمير الظلام له نطقها: «كونا.. كار.. بس، كيف غدرت بك؟».

وقف يقول: «لن أُخبرك الآن، لا يوجد لديَّ وقت، غدًا سأقصّ عليك القصّة كاملة، سأذهب الآن».

«غدًا متى؟».

«غدًا مثل اليوم، في الممشى وأحضر علبة سجائر كاملة معك، فالقصة طويلة».

***

أخذ أمير الظلام وضعيّة الاسترخاء بعد الاستحمام، في الخمس وأربعين دقيقة التي أمامه حتى يصل المطعم، استمع إلى نبض قلبه ينخفض، حتى صار كرعشة دبيب نملة على الجلد، واندمج مع صمت الغرفة إلى أن صار في المستوى الذي يتخلّى فيه العقل عن أحكامه المسبقة وقناعاته. استحضر صورة حسن صواب بجانب شجرة الكوناكاربس قبل قليل. والنتيجة البديهية التي وافقت ظنونه: لا أحد ينجو من حادث كهذا بلا هدف. انتبه إلى شيء، كان الروتين يخنقه طوال الوقت من دون أن يشعر، هو اسم «حسن صواب»، اسم درسته الأقدار قبل أن تقرّه له، وتمنحه العين البيضاء التي لا ينطلي عليها الألاعيب التي تحاول الأشياء أن تخفي حقيقتها بها.

ذهب في ذاكرته إلى قصصه التي كانوا يضحكون عليها.. ماذا لو كانت عقولهم هي الحائل بين حقيقتها وتصديقهم؟

حدَّث أمير الظلام نفسه: ماذا لو لم تكُن كوناكاربس شجرة؟

أبعد عقله وأخذ صورة الكوناكاربس بتجرُّد عن كلِّ ما عرفه: ماذا لو أنّها مخلوق فضائي له جسم حربائي متطوِّر يستطيع بجزيئاته محاكاة طبيعة الشجر ويتشكّل لنا بهذا الشكل؟ أو ماذا لو كانت نتاج تعديل جينات وراثية؟ العلماء العباقرة لا منطق لديهم، ربما دمجوا جين أنثى شجر التبغ مع جين ذكر الأفعى، وكانت النتيجة شجرة بهذا الشكل المريب، الإنسان مخلوق يبتكر أشياء جديدة.

أرجعَهُ ارتفاع نبضه إلى المستوى العادي لاستهلاك العوام، وظلَّ مرتميًا بلا تفكير حتى رنَّ نقّاله ليقول صوت منهك: إنّ المطعم أمام الباب. حمل الطلب وعاد إلى غرفته. جاءته وجبة الهامبرجر في وقتها. كان في حاجة شيء يمنع به الجوع من إفساد التفكير.

لملَمَ جسده عند اللابتوب، وفتحه على قوقل وكتب: «شجرة الكوناكاربس»، وقضم من الساندويتش.

أتته الشاشة بنتائج كثيرة، توحي جميع عناوينها بوجود مؤامرة: «من أين جاءت شجرة الكوناكاربس؟»، «مضار شجرة الكوناكاربس»، «الحساسية وكوناكاربس»، «هل كوناكاربس سبب تفشي السرطان؟»، «أطفالنا وشجرة كوناكاربس»، «كوناكاربس الشجرة القاتلة»، «فيلم وثائقي: شجرة الكوناكاربس»، «تفسير شجرة الكوناكاربس في المنام»، «الكوناكاربس: التاريخ والتحديات».

ركض قلبه عندما قرأ كلمة «قاتلة» في العنوان «كوناكاربس الشجرة القاتلة»، فضغط على الرابط. كانت صرخة من مزارع قبل سنتين عبر إحدى الصحف، يحذِّر فيها من مضارّ هذه الشجرة، وفيه أن أشجاره الأخرى

-بعد سنة من زرعها في مزرعته- لقيت حتفها بشكل غامض، فاكتشف أن كوناكاربس تمدّ جذورها إلى الأشجار التي حولها وتسلبها نصيبها من الماء حتى تهلكها. لديها ظمأ مسعور للماء. فتح خبر «الكوناكاربس.. التاريخ والتحديات»، كان معلومات تحمل تحذيرًا بطريقة عرض شرائح باوربوينت، وفيها أنَّ أصلها من أستراليا، أُستزرعت في الكويت منذ العام 2000، لا أحد يعرف مَن وقَّع على قرار الاستزراع، تُسبِّب الحساسية، وهي حاضنة للفيروسات، تستهلِك الماء بغزارة، تنتشر جذورها أفقيًّا لتبحث عن أيّ شيء تدسّ أنفها فيه، وتنمو بسرعة مريبة، فكَّر: لم يضع كاتب الخبر كلمة «مريبة» هنا عبثًا، من الواضح أنّه كان يريد أن يقول شيئًا يخشى على نفسه من الاغتيال إن أفصح عنه مباشرة.

أما خبر «أطفالنا وشجرة كوناكاربس» فقد وجَدَه محجوبًا. حاول أن يجد طريقة أخرى لفتحه لكن بلا جدوى، فأخذ الحجب وكلمة «مريبة» وخفْقَةَ قلبه لكلمة «قاتلة» على محمل الشَّكِّ لجلسة استرخاء مكثفة.

ثم شاهد الفيلم الوثائقي على اليوتيوب، مدته خمس عشرة دقيقة. كانت الفيديوهات المقترحة تحته عن مؤامرة الماسونية، وحرب نهاية العالم، وأشهر الجواسيس، والوباء الأسود.

ظهَرَ رجُلٌ توحي ملامحه أنه مُذنِب يشرَعُ في التوبة، وتحدَّث بأسفٍ عن تعارُضِ هذه الشجرة والبيئة، وقال كلامًا مُهِمًّا عن الشجر والبيئة، فيما يستعرض مضار جذور الكوناكاربس التي تندس في مصارف الأمطار لتسدّها ومواسير المياه لتشرب نصيب البشر من الماء، وتخترق أساسات البيوت لتهدمها، وأكد أنَّ أمراض الحساسية ازدادت بعد أن استُخدِمت لتزيين الشوارع، وتكلَّم عن قدر الماء الذي تستهلكه هذه الشجرة مقارنة

بأشجار أخرى، كالصفصاف والأثل والنخل، أو كالتي تحبّها البيئة، وأشجار لم يحفظ أسماءها لصعوبة نطقها. وفي نهاية الفيديو توسَّل الرجل إلى الحكومة أن تستأصلها قبل أن تنهك الأجساد بالأمراض وتفسد التربة وتُودي بالحياة المدنية إلى الهلاك.

عاد إلى صفحة نتائج البحث، وفتح الرابط: «تفسير شجرة الكوناكاربس في المنام» وقرأ أول فقرة: «كوناكاربس عدو مندسّ، طويل الصبر، يسعى لامتلاك المكان».

الإنسان مخلوق يُبررُ

وقف أمير الظلام صباحًا أمام الباب يدخّن قبل أن يصعد السيارة، وعيناه تتسلّقان الكوناكاربس وتهبطان. يحاول ألا ينظر إليها من خلال الذّاكرة ولا بنفس العين التي كانت تتجاهلها، بل من خلال شعوره بشكلها؛ ليمزق الصورة النمطية للشجرة في ذهنه؛ حتّى يسفِّه الأحكام القاطعة بأنها هكذا، فتنكشف الحقيقة التي تتربّص خلفها.

لم يأتِه النوم ليلة البارحة إلا متأخِّرًا، تأرَّق وتقلَّب على الفراش مشغولًا بما تغير أيضًا بعد العام 2000، غير الحساسيّة التي أفسدت الهواء، والسَّرطان الذي أطاح بالأبدان. الفساد أيضًا ظهر بعد تلك السنة واستشرى في الدوائر الحكومية، كل سنة أجرأ من التي قبلها، لعلَّ هذه الأشجار تنفث غازًا من مسامها، يسبب تهيُّجًا لمنابع الطمع في النفس، فالناس في العشرين سنة الفائتة صاروا يركضون خلف المادة. وقد تكون رؤيتها كل يوم هي السبب. فتأثير المنظر في نفس الإنسان مثبت علميًّا، حسب الفيديو الذي شاهده على اليوتيوب، فالذي يعيش بين الورد طبعه أكثر رقّة من الذي

يعيش بين النَّخل، فكّر معي: والذي يعيش بين الكوناكاربس، كيف يكون طبعه؟

اقترب منها وعقله يجتهد في جرِّ تفكيره بحبال المنطق إلى اتجاه آخر.

تأمَّل شكلها بتجرُّد.. ترفع أغصانها كثيفة الأوراق بجذع مفتول، ثم تنتشر في السماء بدهاء متظاهِرة بأنّها طيبة. لحاؤها داكن ومتشقِّق، يعطي صورة حقيقيّة عمّا تضمره. أوراقها خضراء صغيرة مثل أجنحة الجراد. حين تمعَّن أكثر وجدها تخلو من أعشاش العصافير.

كوناكاربس والأطفال.. قاتلة.. مريبة.. عدوٌّ يسعى لامتلاك المكان.

شفط دخان السيجارة عميقًا ورمى العقب عليها، ثم نفَخ في وجهها ما تبقّى في صدره من دخان، بمقصد عدائي سافر، وانطلق إلى العمل.

انتبه طوال الطَّريق إلى امتلاكها المكان، كما أكّد مُفسِّرو الأحلام، منتصبة في كلِّ متر في الشوارع، متشابِهة، تسدّ واجهات البيوت وتمنع رؤية الحدائق، تُخفي مسارات الشوارع عن بعضها، تتمايل أغصانها مع الهواء باستسلام، وحين استقلّ الشارع العام وجدها تسير في طابور عسكري مُنظَّم عن يمين الشارع وشماله وفي الخط الفاصل بينهما، وتجتمع في منتصف الدوّارات بمجموعات مُقلَّمة، كأنّها تهمس في أذن بعضها شيئًا لا تريد أن يسمعه أحد. ولمّا وصل العمل، كانت صدمته متوقّعة، إذ وجدها أيضًا في الحديقة الأمامية تحيط بالسور الحديدي الخارجي.

ركَنَ سيّارته تحت المظلّة، وسار يلتفِتُ إليها وهي تحيط بالمبنى، سأل نفسه: متى جاءت وتكاثرت؟ لماذا لم أنتبه لكُلّ هذا؟

وقبل أن يدخُل الباب الرئيس، أوقفه رؤية ثلاث كوناكابريسات، تقف

عن يمين الباب، مقلّمة على هيئة الأبراج. حاول أن يتذكّر متى زُرِعت؟ ومتى قُلِّمت بهذا الإتقان من دون أن تلفت الأنظار؟! يذكُر المبنى في أول يوم عمل، لم تكُن حوله شجر، ثلاث وعشرون سنة، تتمدَّد وتنبث هنا وهناك، أمام عينيه ولم ينتبِه!

«صباح الخير»، حيّاه لطيف وهو يقترب بخطوات سريعة.

كاد يجيبه بصباح النور فتذكَّر أنّها تعيده إلى المألوف، وردَّ عليه: «لم أفهم».

«صباح.. الخير»، قال لطيف متأنّيًا.

تصافحا وأجّل أمير الظلام ارتيابه من الشجر إلى وقت آخر، وسارا إلى الدّاخل. جرَّأه أدب لطيف لإعطائه درسًا في التمرُّد على الاعتياد: «أعرف أنّك قلت صباح الخير، لكن لم أفهم، كلمة «صباح الخير» لا تدلّ على شيء»، ودخلا البوابة الرئيسة معًا، واستمر: «لو قلتُ لك ميزانية المحبة، أو فاتورة الشمس، هل هذا شيء يمكن فهمه».

قال لطيف والدهشة ترفع حاجبيه: «لا».

«إذًا، فكِّر في كلمة صباح الخير.. ماذا بها صباح الخير؟ هل ذهب في حال سبيله أم عزمته على الغداء؟».

ضحك لطيف: «صباح الخير بمعنى: أتمنى لك صباحًا تجد فيه خيرًا». صعد أمير الظلام السّلَّم الكهربائي، واستدار إلى لطيف خلفه: «لماذا إذن لا تقول: أتمنّى لك صباحًا تجد فيه خيرًا».

«طويلة، هذا اختصار شائع بين الناس».

لم يستطِع أمير الظلام إخفاء غضبه، الإنسان مخلوق يبرِّر دائمًا: «حسنًا..

إذا شاع بين الناس اختصار «يا أحمق»، كتحية «صباح الخير»، هل أحييك «يا أحمق» كلّ صباح؟».

تشنَّج أدب لطيف في وجهه للحظة ثم انفرد بضحكة باردة، لم يسمع أمير الظلام إجابته، إذ وصلا آخر السلّم، وباغتهما أحد موظفي إدارة الخدمات الفنية بيده مصافحًا، وطلب من أمير الظلام الاستعجال في تسليم الآلة الحاسبة القديمة لاستلام الجديدة المتطوِّرة، ثم مزح مع لطيف في انتقاد فريق كرة قدم خسر يوم أمس مباراة مفصليّة. تركهما أمير الظلام يتبادلان أخطاء الفريقين وذهب إلى مكتبه.

حمل آلته الحاسبة وذهب إلى إدارة الخدمات الفنية في الدور الأرضي، حيّاهم: «أرجو أن تنالوا يومًا ناجحًا تنجزون فيه أعمالكم بسهولة وإتقان». لم يردّ أحد من الموظفين الأربعة الذين كانوا يرتّبون مجموعة كراتين، فأعاد عليهم التحيّة بصوت أعلى. التفتَ أحدهم وهو يُخرِج آلة حاسبة من إحدى الكراتين: «أهلًا وحيد، تعال وقِّع على الاستلام».

وضع الآلة الحاسبة الجديدة على مكتبه وتفحَّصها؛ أزرارها كثيرة، وشاشتها أكبر من القديمة وتظهر الأرقام أوضح. أخرج مجموعة فواتير، وشرع يجمعها ببطء. لم تتعرّف أصابعه إلى مكان الأزرار بعد لتسير بتلقائية، لكنه خمَّن أنها أفضل من القديمة.

دخلت نرجس بخُطاها المستعجلة، وحيَّته تحيَّتها اليومية: «أنت هنا؟».

«لا، أنا الآن استحمّ في البيت».

اهتزّت وهي تقلِّص حاجبيها استغرابًا من ردّه: «ماذا قلت؟».

«أنتِ سألتني «أنت هنا؟»، فهل يبدو شكلي أنني إلى الآن لم أصل؟».

انتبه فجأة أنه يفكّر بحَنق منذ الصباح، أخَذَ نفسًا عميقًا وأجابها بحِياد:

«أمزح معك أمزح.. كما ترين.. نعم، أنا هنا».

همستُ بشيء لم يسمعه وانشغلتُ قليلًا بمِرآتِها، وبعد ذلك خرجت بآلتها الحاسبة ثم عادت بعد دقائق تحمل الجديدة. «الموظّفون في الإدارة الفنية يوشكون على الموت من كسلهم، وقفت خمس دقائق حتى تبرَّع أحدهم ورمى الآلة أمامي! مثل زومبي».

«ربما مشغولون بشيء أهم»، قال وهو يبحث عن زرّ الضرب.

انتفضت: «هل يوجد أهم من شغلهم؟ أتدافع عن التقاعس؟».

تراجع: «كلامك صحيح، صحيح، مرضى، يوشكون على الموت».

سألته عن أداء الآلة، فقال إنها متطوِّرة وتحتاج لفَهْمٍ فقط.

أخرجت فواتيرها وأخذت تجمعها، وبعد قليل ذكّرت الآلة القديمة بالخير، كانت أصابعها تصل إلى مكان كل زرّ تريده دون أن تبحث عنه، حتى أنّها تستطيع الحساب بها، وهي تتحدث في الهاتف.

عاوده الحَنَق، توقَّف عن حساب فواتيره، رأى أنّها تمتدح الاعتياد الذي أفسد الكثير من الأشياء وأعمى عن الكثير. لو ترك الأمر لاعتيادها لظلّت تنقُرُ على آلتها القديمة إلى نهاية خدمتها ووفاتها، هذه الآلة ذات الميّزات الأفضل. من واجبه الآن، كمُطّلع على فيديوهات الدكتور مصلح رشيد، لفت انتباهها إلى هذه المعضلة البشرية الكبرى:

«هل تعرفين ما مجالات استخدام آلتك الحاسبة القديمة؟».

رفعَتْ رأسها وقالت باستهزاء: «هل يوجد شيء غير الحساب؟».

«نعم الحساب، وأيضًا؟».

«قُلْ ما تريد».

«ونستطيع استخدامها في أكثر من غرض».

هزَّت رأسها: «مثل ماذا؟».

«مثلًا.. تكتبين بها رقم هاتف إذا أملاه عليكِ أحد ولم تجدي قلمًا، إذا قلبتِها تستطيعين أن تستعمليها كصينيّة لتقديم كوب ماء، عصير، أو طبق حلوى.. ماذا أيضًا؟ آهِ، تظلّلين بها رأسك من الشمس.. تثبّتين بها الباب... لا أعرف ماذا أيضًا، لكن يمكن أن تجدي لها استخدامات عديدة إذا أخرجتِ من ذهنك الحكم المسبق بأنها آلة حاسبة فقط».

خرج صوت ضحكة من أنفها: «دمّك خفيف اليوم». عادت تنقُر على الآلة الجديدة، وسمعها تقلِّد صوته باستهزاء هامسة: «طبق حلوى».

لم تصمد الآلة الجديدة طويلًا في إبعاد عقله عن تقليب أشجار الكوناكاربس وغربلتها. توقف عن جمع الفواتير وطالَع الشُّباك، كان الشارع السريع من بعيد محجوبًا وراء أشجار كوناكاربس، متحاذية على امتداده. منفوشة الأغصان للأعلى، خضراء بشراهة، تمسك بيد بعضها بعضًا.

كلما استبعد صورتها في ذاكرته ووجه لها نظرة محايدة رأى بها حراكًا مُريبًا.

«نرجس.. ألا تلاحظين أنَّ شجر الكوناكاربس استولى على البيئة؟».

رفعت رأسها تتطلّع باستغراب، وتابع: «انتبهت قبل يومين إلى أن هذه الشجرة تفشَّت في كلِّ مكان، انتبهي إليها وستجدينها أمام بيتكِ وأينما

ذهبتِ».

انتظرَتْ عدة ثوانٍ، وقالت: «وماذا في الأمر؟».

«في الأمر علامات استفهام كثيرة، هل تَذْكُرينها لمّا كانت فسيلة؟ هل لاحظتِها تنمو وتحجب السماء؟ بدأ استزراعها سنة 2000، لماذا هذه الشجرة بالذات؟ هي لا تصلح لبيئتنا، أين شجر الياسمين الأمين؟ مَن أزاله؟ أين الصَّفصاف؟ أتذكرينهما أم أنّ...؟».. أوقفَتْه فكرة جديدة فعاد إلى الشُّباك ينظر، وأكمل هامسًا: «أتذكرينهما أم أنَّ الكوناكاربس استولى على مكانهما في الذاكرة أيضًا؟».

تركت نرجس مكتبها وذهبت إلى الشّباك، ألقت نظرة وقالت: «ما الذي يزعجك في الأمر؟ الشجر ينقّي الهواء، والحكومة تعتني بها».

«لكن كوناكاربس ليست شجرة نافعة»، وأخبرها بنتائج البحث على قوقل: قاتلة، مريبة، أمراض، الأطفال، تسعى لامتلاك المكان.

أخذ نقّالَه وقام إلى جانبها، بحَثَ عن كلمة كوناكاربس وأعطاها نتائج البحث.

وراح ينظر إلى صفوف الكوناكاربس ويتخيّلها جنودًا أحاطوا بالشارع وأوقفوا السيّارات ونهبوها. لم يستبعد هذا، فالخيال يحتوي على تقنيّات استشراف المستقبل إذا أُستخدِم بوعي خارج حدود المنطق، لماذا لا؟ المكائد العسكرية تطوِّر أجهزة لا نعلم مدى قيامها بهذا الأمر، ربما يكونون اخترعوا جهازًا يروِّض الأشجار ذات الجينات الثعبانيّة، كشجرة الكوناكاربس، ويستخدمونها في حرب متطوِّرة تنتهز فرصة حبّ الإنسان للأشجار لتستخدمها في احتلاله.

«كلام فارغ»، قالت وهي تناوله النّقّال. «الانترنت مليء بالكلام الفارغ»

عاد إلى مكتبه هاربا من صوتها الجاد. كيف سيقنعها أن الانترنت مصمم لنقل الأخبار والتجارب المفيدة أيضا.

توجه ببصره إلى الشُّباك، وأطلق خياله بلا قيود، وتخيَّل إذا كانت هذه الشجرة مخلوقًا يمكنه الحركة والتفكير، كيف سيكون حال كوكب الأرض؟ أوقف عمل عقله الذي لا وظيفة له إلا تسفيه الخيال، وذهبت بعيدًا في تخيلاته، إذ حاول أن يسمع نبرة صوتها وتخيَّل ملابسها، يرى نظرات عينَيْها وهي تسير في الشّوارع، ترمي جذورها في الأرض فتعب المياه الجوفيّة كلّها، تقتل بقية النباتات، وربما تسعى لامتلاك وظيفة الإنسان على الكوكب. شعر أنَّ رأسه لا يكاد يلتقط أنفاسه من المجهود الذي بذله في تخيُّل ما يمكن لهذه الشجرة الكوناكاربس أن تفعل.

وقّع على طلب استئذان وعاد إلى البيت يزيح أشجار الكوناكاربس التي أخذت تتهافت على عينه.

***

صحا بعد غروب الشمس، أكل غداءه أمام أمه وهي تشاهد التلفزيون. سألها متى زرعت شجرة الكوناكاربس التي أمام الباب؟ فأجابت إنّها لا تعلم، ثم خرج عند الباب يدخِّن. وجد الليل قد انبسط على السَّماء، وكان السّائق كومار يرشّ سيارته تحت الشّجرة بالماء. سأله عنها، فقال إنه لا يعلم.. شجرة أمام بيتهم غُرِست وسُقِيت ونمت وصار لها ظلّ ولا أحد يعلم متى حدث هذا كله؟! كان قد بقي القليل على صلاة العشاء وبعدها سيلتقي بـ«حسن صواب» في الممشى وسيسأله عنها.

مارس تمرين استرخاء عميقًا، أرسل من خلاله عينيه إلى ذكرياته القديمة يبحث فيها عن صورة لنمو هذه الشجرة أمام بيتهم، للعثور على صورة غير التي هي عليه الآن. بحث حتى أذّن العشاء وأقام وانقضت الصلاة، فلم يجد؛ هل خلقت هذه الشجرة فجأة بهذه الصورة؟ ارتدى ملابس رياضة وأخذ علبة سجائر كاملة كما طلب «حسن صواب» وانطلق إلى الممشى.

جعلته أشجار الكوناكاربس -التي لقيها واقفة أمام كلّ بيت- يُغيِّر طريقه المعتاد، أخذ يعطس لدى اقترابه منها، شعر أنّها تنفث من مسام أوراقها غازًا باتجاهه، أحسَّ باختناق؛ لا بدّ أنّه أحد أنواع الحساسيّة التي تتقن بثّها.

وصل إلى سيارة المشروبات الباردة التي تقف عند الممشى، غسل وجهه من قارورة ماء بارد وجلس ينتظر حسن. ركض ذهنه في هذه الأثناء وراء خيالات بهَيْئةِ أشجار هاربة. في تلك اللحظة قال كلمته التي ستنير طريق البشرية: «على الإنسان أن يترك ذهنه يجري خلف الخيالات، وسوف يصطاد الحقيقة».

انتظر طويلًا فلم يأتِ صواب، فقرَّر العودة إلى البيت من طريق آخر فيه القليل من تلك الأشجار. غطّى فمي بفانيلته وسرَّع الخطى، ومن طريق إلى طريق حتى وجد نفسه يمرّ من خلف بيوت جيرانهم التي أمام بيتهم، حيث كانت حدائقهم الخلفيّة محاطة بسياج خشبي واطئ، عدا حديقة بيت فرحان، كانت مُحاطة بمستطيل سواقي محروث في القاع، في منتصفها شجرة كوناكاربس ضخمة وكثيفة الأوراق، شجرة قديمة، أمامها شجرتا كوناكاربس غُرستا حديثًا.

ما قاله الدكتور مصلح رشيد

«سلاح المخيّلة»

يبدأ التَّسجيل وهو جالس على المكتب، يُمسِك بقلمٍ ويخطّ به شيئًا على ورقة، ثوانٍ ثم يرفع القلم ويتأمَّل ما كتبه، ثم يتوجه إلى الكاميرا:

«أهلًا أهلًا بك عزيزي المشاهد، لا أشكّ أنّك الآن جاهز للبدء في التغيير. أنت الآن تنظر إلى الخلف وترى نفسك -سابقًا- نادمًا على فوات الكثير. تحسُّ كأنّك على جهاز المشي، تركض ثابتًا فيما كلّ ما حولك ثابت، لا تندم، ما زال لديك وقت. الآن لا تنظر إلى الوراء، انظر إلى أين ستضع قدمك في الخطوة التالية، سأعطيك الخطوات التي من شأنها أن تُغيِّرك إلى الأفضل إذا طبقتها كما يجب.

اختُبِر أثر هذه الخطوات كثيرًا، حتى ثبت أنَّ فاعليتها تتطلَّب شرطًا واحدًا فقط، هذا الشرط يعتمد على مدى رغبتك في تغيير شكل قالب عقلك، أنا متأكِّد من أنّك ترغب في ذلك. حسنًا، هيّا نُغيِّره».

يضع القلم ويضمَّ يديه ثم يسند خدّه عليهما:

«شرحنا أنَّ الجزء اللاواعي في العقل هو الذي يحمل شكل القالب، وهو جزء لا يُفهَم، يتلقّى الأوامر ويقوم بتنفيذها، إنّه لا يُفرِّق بين الحقيقة والخيال، ولذلك فإنَّ طريقة تغيير شكل القالب تعتمد عليه بتكثيف الصّور المتخيَّلة حتى تكون صورًا ذهنيّة، وبالتّالي يتغيَّر شكل القالب تدريجيًّا من دون معاناة وجهد. لهذا يجب أن تهتم بالخيال، وتنتبه لوضوح الصور المتخيلة جيِّدًا، وأن تحاول قدر المستطاع أن تجعلها حيّة، حقيقيّة، كأنّك عشتها من قبل.

دعني أضرب لكَ مثالًا.. لنفترض أنَّ لديك رهابًا من الديناصورات، قيل لك: إنّ الديناصور مخلوق أنانيّ ويشتهي أكل اللَّحم النيّء بشراهة، تخيَّل أنَّك تواجه ديناصورًا، تخيَّله بالكامل، شمّ رائحة أنفاسه، تخيّلها. ربَت على رقبته، تحسَّس ملمس جِلده الخشن، تخيَّله يبتسم لك ويقول: «أنا سعيد بلقائِك، ولا يمكنني إيذاؤك لأنّني مخلوق طيِّب وأحبّ الآخرين».

إذا كرَّرت هذا الخيال، سيُصدّق العقل اللاواعي أن الديناصورات مخلوقات طيّبة، وإذا واجهت أحدها لن تشعر بالرّهاب، بل ستربِت على رقبته بكُلّ طمأنينة.

لكنْ عليك أن تعرف ما الخيال أولًا؟

الخيال قسمان: خيال مُقيَّد وخيال منطلِق.

خيال تريد به اكتشاف شيء، مثل أن تتخيَّل طريقًا يؤدي إلى المنزل، وخيال تريد به اختراع شيء، مثل أن تتخيَّل المنزل الذي يؤدي إليه الطريق.

تخيَّل الآن، أنّك ترى سيارة متَّجهة إلى جدار بسرعة عالية، وليس بها فرامل ولا مِقود، يمكنك تخيُّل ما سيحصل لأنَّك قيَّدت الخيال بالمنطق

لتعرف النتيجة؛ حادث. أنت هنا باحث.

تخيَّل أنّك أنت السائق، وتخيَّل كيف ستنقذ نفسك؟ ستتخلّى عن المنطق، وتبحث عن شيء يُخرجك من السيارة، أنت هنا مبدع.

كلّ شيء مبتكَر في العالم كان في بدايته صورة في الخيال، وهذه الصورة لو حلَّلْناها، لوجدنا أنّها عبارة عن دمج لعدة صور، عدة أفكار، حتى خرجت بهذا الشكل الفريد. الخيال هو الشيء الوحيد الذي نواجه به الواقع، ونحلّ به معضلاته، وعملية التفكير التي تجري في رأسنا هي جزء من هذا الخيال، وصدِّقني عزيزي المشاهد، لا يوجد أشدّ تصلُّبًا من ذهن يفتقر إلى الخيال، ولا يمكن أن يكون صاحب المخيلة الثريّة شخصًا متزمِّتًا. لماذا؟ لأنَّ الخيال يليِّن قالب العقل».

يُنزل نظّارته الطبِّيَّة، ويكمل:

«لكن.. لكي يثمر الخيال يجب أن تكون أرضك مهيّأة له. ستسألني: كيف؟ سأقول لك: بالاسترخاء. أجل أجل. الاسترخاء هو تهيئة نفسك لاستقبال الخيال. عندما نسترخي ترتفع حالة الاستعداد الداخلي للحواس وينشُطُ الجزء اللاواعي، فيما ينغمس الواعي في حالة هدوء، فيسهل التحكّم بالقالب. تعالَ أُخبرك بالخطوات الأربع للاسترخاء؛ إذا طبَّقتها جيِّدًا ستتحرَّر من جسدك وستشعُر بأنّك كالهواء أو أخفّ. وأريدك أن تطبِّقها معي.. هيا.. اعثر على مكان مريح الآن، وقل لي إنّك جاهز.

حسنًا.

الخطوة الأولى: استلقِ على ظهرك أيّها المشاهِد الرائع، مدِّد أطرافك

قريبًا منك، كأنَّك تضع جسدك عن كاهلك.

الخطوة الثّانية: أفلت كلّ عضلاتك الآن، أغمِض عينيك، حاوِل -قدر المستطاع- أن تشعر بالجاذبيّة الأرضيّة.

الخطوة الثالثة: خُذْ نفسًا طويلًا من أنفك، املأ صدرك، ثم أخرجه ببطء من فمك، حتى المنتصف، وأخرج الباقي بزفرة واحدة.

كرِّر العملية ثلاث مرات متتاليات.

ستشعُر أنَّك عُدتَ إلى نفسِكَ الطبيعي، ممتاز، أنت تشعُر الآن أنَّك تنغمس في الأرض، رائع، ستتثاءب أيضًا، هذا طبيعي، أعِدْ الخطوة الثالثة ببطء.

الخطوة الرابعة: تخيَّل أنَّك تنغمس في ماء بحيرةٍ صافية، يسحبك التيار إلى الأسفل، باستسلام تنغمس، سيأتيك النَّوم فلا تنام، آآآهِ، أيّها المشاهِد المُسترخي، أنت الآن مُهيّأ للصور.

والآن انهض، لا تنَمْ، ارتد جسدك.

كرِّر هذه الطريقة دائمًا في كلِّ مرة تريد أن تُغيِّر شيئًا، وتخيَّل أنّك تُغيِّره، ستتفاجأ عندما تصحو أنَّ التغيير صار أسهل منه قبل الاسترخاء. ليس ذلك فقط، إذا صعُب عليك فَهْمَ أمرٍ ما، طبِّق الخطوات الأربع وتخيَّل أنَّك تفهمه، وأعِدُك أنَّك عندما تصحو ستقول: أوه.. كيف غاب عني هذا الأمر؟

أنت الآن جاهز، ومُدجَّج بالسّلاح القادر على التغيير، أستطيع أن أقول لك: انطلِق أيّها المشاهد الجاهز للتغيير».

الإنسان مخلوقٌ يُحرِّكُه الحماس

لم يجد أمير الظلام «حسن صواب» في الليلة التالية؛ الليلة التي رفعت المعجزة يدها له بإشارة جديدة التقطتها كما يجب لأيِّ إنسان أنقذته معجزة.

يحبّ الإنسان فعل الأشياء التي تثير حماسه، فالإنسان مخلوق يحرِّكه الحماس أكثر من القناعة، وعندما يفعل ذلك يظنّ أنّه فعَلَ الصواب، أو إن قام بما يجب عليه فعله، وبعدها يقول لنفسه: «فعلت الشيء الذي يريح ضميري». ولا يعلم أنّه فعل الذي يريد أن يفعله. لذلك عندما عرف أمير الظلام بحقيقة المَهمّة استاء كإنسان؛ لأنّها كانت خالية من الحماس. ولكنه -بعد بُرهة- كمخلوق تحوَّل ضوءًا ذات مرة، وضع نفسه جانبًا وفَعَل ما يتطلَّبه الصواب، حتى لو كان خاليًا من الإثارة.

حيث كان عائدًا من الممشى متحاشيًا الاقتراب من الكوناكاربس، يُخمِّن في طريقه أنَّ غياب «حسن صواب» عن موعده بسبب حساسية استفزَّت أنفه وانتقل صديدها -كما شرح الطبيب في اليوتيوب- إلى صدره، وهو الآن طريح الفراش مرتفع الحرارة يقاوم فَوْرات السّعال.

أما هو فقد ساعدته حبوب الحساسية «آريوس» في الوقاية من سمومها، بعد أن نصح بها طبيب، ظهر في فيديو على اليوتيوب عن سبل الوقاية من الحساسية.

انتقل بمخيّلته -وهو يقترب من بيتهم- إلى تصوُّر حسن مضطجعًا في فراش أزرق، يحيط عينه البيضاء احمرار التحسّس، بالكاد يُدخِل أنفاسه ويخرجها. قدَّر من خلال شكل حسن في خياله أنّه يحتاج إلى ثلاثة أيام ليتعافى، وربما يلتقيه في اليوم الرابع.

وقبل أن يدخل البيت، حام حول سيارته والشَّجرة، يعيد ما تخيّله ليلة البارحة لعلّه يصل إلى حلٍّ يزيل الأشكال الحادة التي تتدافع عشوائيًّا في روعه كلما رآها.

فقد قام ليلة البارحة بجلسة استرخاء، بذل ما في وسعه ليصير واحدًا غيره. أدّاها بتأنٍّ وتركيز بالغَيْن، إلى أن وصل إلى مستوى عميق من نكران الذات، وتخيَّل شجرة كوناكاربس على هيئة أنثويّة، ترتدي لباس التمريض الأبيض، وتبدو في غاية السَّعادة وهي تصحب امرأة في مستوصف منطقتهم إلى غرفة المختبر، ثم جعلها تبتسم لطفل وهي تقيس حرارته، ورآها تدفع مُسِنًّا على كرسيٍّ متحرك يشير لها إلى باب مفتوح، ويضحكان.

وتخيَّل ذكر كوناكاربس، جذعه مفتول، يقف بجانب سائق ثُقِب إطار سيارته في طريق مقطوع، يساعده في تبديله. وثالثة صغيرة، بذل جهدًا خياليًّا مضاعفًا لجعلها تكسر القلب، ترتدي ملابس فقيرة، تكتم بكاءها أمام واجهة محل ألعاب داخله أطفال يمرحون.

حرص على الإكثار من التفاصيل في خياله حتى يغرس التجربة كما لو أنّها واقعيّة، غير أنّه، عندما عاد بوعيه إلى المستوى العادي، لم يلمس فرقًا

يُذكَر، إذ لم يتغبَّر شكلها الآثم.

جلس أمام بيتهم ينظر إليها.

أشعل سيجارة وطالعها من وراء الدخان، وفكَّر: لست في وضع يسمح لي بفتح جبهة ذهنية أخرى تؤخّر استجابتي للمهمة إذا انقدحت شرارتها، شيء ما في هذه الشجرة يثير ريبتي، ويجب أن أكشفه.

ترك لعقله اللاواعي التعامل مع الأمر وتقدَّم إليها. شجَّعه خلو الشارع من المارة أن يقوم بجلسة استرخاء تحتها؛ ليستمدّ من شكلها -في الحقيقة- القدرة على تغيير شكلها في مخيِّلته، يستثمر الواقع في تعميق تجربة الخيال ليغير مشاعره نحاهها.

اندهش لذكاء الفكرة، وابتسم لاندهاشه.

رمى عقب السيجارة، ووقف تحتها يلتفت، وحين تأكَّد من تمام خلوّ المكان اضطجع. طالَعَ أغصانها وأغمض عينيه وأدّى تمارين الاسترخاء الأربعة بسرعة، حتى شعَرَ أنّه في الوضع المناسِب لتغيير صورة العالم.

ثم فتح عينيه على أوراقها وهي تغطّي السماء، فقبَضَ على صورتها وأغمض عينيه مرة أخرى.

تخيَّلَ أنّه سقط من جسر شاهق، شعر بالهواء يخفق ثوبه، تجرّه الجاذبية لموتٍ مُحقَّق، خاف، تلقَّفَتْه أغصان كوناكاربس المحبّة للخير، أحسَّ بأصابع ليِّنة تثبّته، كفّت الجاذبية عن جرّه وتوقّف الهواء. مدّدته الأغصان على الأرض بحرص شديدٍ، وسمع صوتًا جماعيًّا مبتهجًا يقول: «بسلامتك، كأنّنا في حمام دافئ».. وقفت فوقه إحداهنّ تبتسم برِقّة وتقول: «سعادتي لا تُوصف بأنّني أنقذتُك». ثم فتحتُ عيني على الكوناكاربس فوقه ليشعر

بابتسامتها، إلا أنّها كانت مكفهِرّة كوجهٍ مُقبِلٍ على جريمة قتل عمدًا، فثقل جسده وشدَّت الجاذبية أعصابه بسرعة.

حاول أن يعاود الكرّة ويصل بالاسترخاء إلى مستوى أعمق، ويتخيَّل شجرة كوناكاربس تُقدِّم له وجبة في مطعم، لعلّه إذا أكلها في خياله يتحرَّر من حكمه المسبق عنها، إلا أنَّ أعصابه المشدودة استمرّت بالشدّ أقوى، ولم يقدِر على إكمال الوجبة.

فكَّر وهو مستلْقٍ تحتها: هذه الشجرة تبثّ طاقة سلبيّة تمنع حُسن الظنّ، فلا عجب أنَّ الناس صاروا بعد سنة 2000 أكثر شكًّا في نوايا بعضهم.

ظلَّ مستلقِيًا تحتها، يتطلَّع إلى أوراقها الجراديّة وأغصانها المسنونة، هائِمًا بلا تفكير، حتى حين همَّ بالنُّهوض جاءه الإلهام بصورة بريقٍ لمع بعقله، فعاد يُبحلِق بها.

هنا انتبه إلى أمرٍ جوهريّ لا ينتبه له أحد إلا بإشارة غير مدرَكة من القدر، أمْر لم يحدث مصادفةً أبدًا، موجود طيلة الوقت لكنّه مثل الأمور العظيمة التي تريد نظرة ملهمة حتى تُرى، وهو وجود سيارته بالذات تحت هذه الشجرة تحديدًا، ليس قشرة الشكل الخارجي، بل.. بل لُبّ المعنى الداخلي.. المعنى..

المعجزة لا تختار إلا أصحاب الأذهان المخترِقة للقشور، وإلا لحَدَث مع الناس معجزة وصارت المعجزات أمرًا مألوفًا، وإذا صارت مألوفة تصبح عادية، وإذا أصبحت عادية تنتهي حقيقتها كمعجزة.

في ذهنه الذي يتميَّز باختراق القشور، التقط إشارتها بحركة يجهلها حتى علماء الفيزياء الكونية..

دقَّق النظر..

ترمز السيارة إلى المعجزة.

ترمز الشجرة إلى عدوٍّ يسعى للاستيلاء على المكان.

سيارة + شجرة= معجزة × عدو= ؟

نحّى المنطق ليستقبِل عناصر الأشياء بصورتها الطبيعيّة الخالية من أحكامه المسبقة، فوجد أنَّ الحقيقة كانت تتخفّى من البداية في الشكل، فالياسمينة التي أنقذته في أحضانها كانت إشارة إلى أنَّها شجرة نافعة، واكتشافه مضار شجرة الكوناكاربس كان إشارة إلى المهمّة. المعادلة إذن هي:

الحزن + البكاء + البحث عن أسباب الحزن والبكاء × فيديوهات الدكتور مصلح رشيد × التحوّل إلى ضوء والتواجد في مكانين في وقت واحد= أنا.

ثم ناتج:

سيارة + شجرة= معجزة × عدو= الكوناكاربس عدوّ يجب محاربته وإنقاذ البلاد والعباد من شرّه.

الكوناكاربس × أنا= إمّا أنا أو شجرة الكوناكاربس.

حاول عقله للحظة إجباره -بأدوات منطقه التي لقَّنها له الآخرون- أنه على خطأ؛ ولولا استبعاده لأيّ فكرة تتظاهر بأنها صحيحة، لكان الآن عاديًّا أكثر من أيِّ شخص يمشي في الشارع.

نهض.. دنا من سيّارته، وتحسَّس جسدها المنكوب.. أغمَضَ عينيه وتخيَّل أنَّ الكوناكاربس تتحرَّك كلّها في صفٍّ واحد وتتّجه إلى مدرسة

أطفال تريد اختطافهم.

سرعان ما استجابت مشاعره لهذا التخيُّل، فتح عينيه وبصق عليها.

وقال هامسًا: «المَهمَّة هي عودة شجرة الياسمين إلى الأرض.. يجب أن أزيل كلّ أشجار كوناكاربس السيِّئة، وأزرع مكانها أشجار ياسمين حميدة».

لعَقَ باب السَّيارة، ثم وضع خدَّه عليها وفرد ذراعيه يحتضنها.

بقدر ما أفرحه الاكتشاف أحزنه، فلا يوجد بطولة في الزراعة، ولا فيها الحماسة التي تُشعِلها المواجهة التي تقلّ فيها فرصة النجاة. تذكَّر الأيام التي كان يتدرَّب فيها، التعب الذي أضاعه.. المعاناة التي قاساها.. الحيرة التي أدارت نفسه على كلِّ حائط.. لن يهجم على أحد إذن، لن يضع حركة «جاذبية الكتلة المندفِعة» محلّ التطبيق، لن يكتم أنفاسه داخل بحر هائج الأمواج، ولن يقطع مسافة كيلومتر واحد خلف أحدهم في وقت قياسي. كلّ ما عليه فعله هو اقتلاع وغرس وسقاية.

تحسَّس الشّروخ على باب سيّارته ولام نفسه: ماذا سيفعل غاندي لو كان مكاني؟ هل سيشعر بالإحباط لأنّه لا توجد إثارة في المهمة؟

تركَ السَّيارة خجَلًا وعاد إلى بيتهم مواصِلًا اللوم: ماذا سيقول مالكوم إكس عني إذا عرف أنّني حزنت، لأنَّ المَهمَّة ليس بها بطولة؟

قبل أن يدخل البيت، وقف على العتبة وتوجَّه إلى الكوناكاربس، ووضع عينه بعينها وقال النبرة نفسها التي يطلب بها عنتر ابن شداد الآخرين للقتال:

«فات الأوان، ولن ينفعك الندم الآن».

***

كان استرخاءً جديدًا، ذاك الذي قام به قبل النوم، ضاعف شعور السّعادة تعميقه، فقد عرف أخيرًا ما المَهمَّة؟ وانتهت حالة الترنُّح التي كانت تقذفه في كلِّ اتجاه، بلغ بالاسترخاء مستوى يبلغه لأول مرّة، إذ أحسّ أنه يستطيع استحضار أي وجبة تخطر في باله وإزالة غلافها الورقي، وشمَّ رائحتها، والاستمتاع بتذوق مكوناتها إلى حدِّ الشبع. أعمَلَ مخيِّلته في محاكاة الواقع وتخيَّل نفسه يقتلِع شجرة كوناكاربس كبيرة، فرغم ما تحملُه تلك المَهمَّة من سهولة إلا أنّها في الواقع مُجهِدة، لكنَّ الجهد آخر شيء يفكِّر به الذين غيَّروا شكل العالم وحَموا البشرية من الاندثار.

نهضَ من الاسترخاء بعد ساعة بخفَّةٍ لم يعهدها ببدنه. ألقى نظرةً سريعة عند أرفُف الكتب في الزاوية على غلاف كتاب «كيف تصبح قائدًا ناجحًا»، كانت على الغلاف رسمة رجل على قمة جبل يساعد آخرين في الصعود. فتح فهرس كتاب «خطِّط عملك يقل زللُك»، مرَّ سريعًا على أسماء الفصول: «احترس من اليأس»، «عدوّك النبيل الوقت»، «جدول المهام مُهمّ»، «الراحة هي السرّ»، أغلقَه وجلسَ على الأريكة التي يلعب عليها بلايستيشن، ليرسم الخُطّة التي ستمكِّنه من قطع رقاب أشجار الكوناكاربس.

بحث في قوقل قليلًا عن الأدوات المُمكنة، أمدَّته فطنته بالطريقة الصحيحة، سيتواصل مع رئيس هيئة البيئة، يطرَح أمامه القضية بأدلتها القاطعة والمأزق الوجودي الذي يمرّ به مصير الإنسان، سيتحرَّك الرئيس بدافع رغبته في كتابة اسمه في التاريخ الوطني، كمساهم في إنقاذ الوطن من خطر محيق، وسيضع يدَه بيدِه.

***

أطبَقَ عينيه تلك الليلة، وتخيَّل أنه يمسك كتابًا عنوانه «العظماء وما قدموه للبشرية»، كانت صورته من ضمن الصور التي على الغلاف تحت صورة غاندي، وبين ويليس كارير، مخترع التكييف، ورجل لا يعرفُه له لحية كثَّة. تخيَّل أنّه يفتح الفهرس، ويجد أول اسم: «نابليون بونابارت.. إمبراطور فرنسا المهم»، والفصل الذي يليه: «توماس أديسن.. العالم الذي أنار العالم». بحث عن اسمه حتى وجده في الفصل الثلاثين: «وحيد هادي.. الرجل الذي أنقذ بلاده من الهلاك»، وقف يتذوَّق شكل اسمه، لم يكُن مُميّزًا، ليس مثل اسم «إبراهام لينكون»، الذي فوقه بخمسة عشر فصلًا، «إبراهام» اسم مسدّس سيطلق النار، ولا يشبه شكل الحربة المشحوذة في اسم «جنكيزخان» في الفصل الثامن. «وحيد هادي» اسم موظّف ينتظر راتبه الشهري، لا بدّ له من اسم مهيب، إذ جامل نفسه وقال إنَّ اسمه يليق بما هو مُقدِم عليه، فإنَّ التاريخ لن يجامل، لم يقرأ عن عظيم من قبل اسمه «وحيد». «وحيد» من الأسماء التي تسقط سهوًا من السجلات دائمًا. خرج معه اسم «غارس» على وزن فارس، من فِعْل غرس الأشجار، أو «جثَّاث»، الذي اجتثّ أشجارًا كانت تؤذي الناس، أو ربما آن الأوان للقب «أمير الظلام» أن يرى النور. راح يقرأ سيرته في الكتاب الذي تخيَّله حتى شدّ النعاس جفنيه، وانزلق في نوم عميق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الإنسانُ مخلوقٌ ينفِّذ الأوامر

«أنت هنا؟».

حيَّته نرجس وهو ينتقل من شاشة نقّاله إلى ورقة رقم مكتب مدير هيئة البيئة، استخرجها من قوقل، ليأخذ موعدًا يشرح له كلّ ما لديه عن لؤم هذه الشجرة وخسَّتها، ويطلب منه فورًا البدء بإجراءات إزالتها من أرض البلاد.

كان قد اتخذ -في طريقه إلى العمل- قرارًا لا رجعة فيه؛ تحذير الآخرين منها سيُسهِّل القضاء عليها إذا وعِيَ الناس الخطر الذي تُحدِقه كوناكاربس بهم وبأبنائهم وبمواسير الصرف الصحي في بيوتهم.

توجّه إليها بعد أن دوَّن الأرقام:

«أنا في مهمةٍ خارج مهام العمل».

«آهِ، مهمة مهمة»، وأخرجت بعض الفواتير وجهَّزت آلتها للحساب، فيما كان أمير الظلام يُدخِل أحد الأرقام في نقّاله، نظر إليها، يدغدغ مخيِّلته

بتخمين ردّ فعلها إذا سمعته يطلب مقابلة مدير هيئة البيئة لأمر ضروري، ستنصهر لتعرف الموضوع، خنق ضحكته واتصل.

حين تمطّت نغمة الاتصال البليدة اعتدل؛ لتسير الأمور بشكلها الجاد الذي رسمه، ووجّه إليها كل حاسة السمع. ركّز وهو يهيئ الجملة المهيبة التي ضمّنها مفاتيح الموضوع بتشويق عالٍ.

رقدت النَّغمة ولم يُجِبه أحد. نظر إلى نرجس، وجدَها تبحث بأصبعها عن زرٍّ ما في الآلة. أعاد الاتصال، فتسكَّعت النّغمة قليلًا حتى ثوَتْ من غير إجابة. اتّصل المرة الثالثة والرابعة والخامسة، بلا كَلل، مُركِّزًا عينيه على ورقة الأرقام التي دوَّنها، وما أن بدأ عقله بصياغة خطة بديلة -وكانت في طور التَّبلور حول الذهاب إلى مبنى هيئة البيئة- حتى استجاب صوت أجشّ مستعجل على الطرف الآخر، وسأله من هو وماذا يريد؟ تنحنح ودلق الجملة المشحونة بالحماس، وهو ينظر إلى نرجس ليرى تأثير الجملة عليها: «ألو، السلام، أنا المواطن وحيد هادي، أريد موعدًا مع مدير الهيئة لأضع يدي بيده لنقضي على الخطر الذي يهدِّد البلاد، والتاريخ سيشهد».

كان يعوِّل على عبارة «التاريخ سيشهد» لجعل مدير الهيئة يلغي مواعيده ويفرغ جهازه الإداري للقائه. من سيرفض شهادة التاريخ على قيامه ببطولة ستخلدها الأيام للأجيال القادمة؟

قلَّصت علامات الاندهاش حاجبَيْ نرجس، وأحاطت بعينيها انقباضات خفيفة.

«مَن أنت؟ وماذا تريد بالضبط؟»، توتَّر الصَّوت.

فأعاد أمير الظلام: «أنا المواطن وحيد هادي، أريدُ موعِدًا مع مدير الهيئة

لأضَعَ يدي بيده لنقضي على...».

أُغلق الخط بوجهه، فيما أُذُنا نرجس تحاولان الاقتراب من السَّمّاعة لالتقاط الحوار. تظاهر أمير الظّلام بأنَّ الصوت منحه قدرًا من الاحترام، وتابع: «شكرًا لك.. بلّغه سلامي وقل له سأكون موجودًا قبل الموعد، ومعي الأدلّة الدامغة كافة، مع السَّلامة».

أغلق الخطّ، وألقى عينيه من الشّباك يفكّر: لا بدّ أن اسمه كان السبب، كيف لم يأخذ في حسبانه هذا الأمر المُهم، ماذا يريد «وحيد هادي» غير الشكوى على كلب الجيران أو طلبَ جزّ عشبة نفشت شوكها أمام بابه؟

سألته نرجس، وملامحها تتحرّك اتجاهه: «ماذا هناك؟».

وجدَها فرصة، فذكّرها بحديثه قبل ثلاثة أيام عن الكوناكاربس، وعرض أمامها خطته لإنقاذ بيئتهم من براثن هذه الشجر المُضرَّة. استمعت نرجس إلى شرحه مُطبِقة شفتيها تحدِّق إليه بصمت متفكِّر حتى انتهى، وعندما انتهى قالت: «أتمنّى ألا يشغلك هذا عن أداء عملك هنا».

قام إلى مكتب لطيف بخطوات سريعة. وجد لطيف يطبع كتاب تغطية لطلب أدوات مكتبيّة، رحَّب به وأجلسَه على كرسيٍّ أمامه. فكّر أمير الظلام وهو ينتظر لطيف ينتهي من الطباعة: لطيف اسم طريّ، من الأسماء التي لا يفضّلها التاريخ، لم يمرّ عليَّ شخص اسمه لطيف، قائدًا كان أو سائسًا لخيل القائد، اسم مثالي لموظف مدني يطبع كتب تغطية. حاول تخيُّله يقاتل في معركة لكن اسم «لطيف» أجبر مخيّلته على التوقُّف، وحين أنهى لطيف عمله أعطى أمير الظلام وجهًا باسمًا، فطلب أمير الظلام منه أن يطبع له بعض الأوراق المُهمّة التي سيستخرجها من قوقل.

استغرب لطيف من الطلب، وكاد ينطق باستغرابه لولا أنَّ أدبه الجمَّ تدخَّل في اللحظة الأخيرة ومنعه من إحراج زميل يطلب منه المساعدة، فأرجع -متلطِّفًا- كرسيّه ليسمح لأمير الظلام بإدخال كلمات البحث.

قفز استغرابه بحاجبَيْه، لمّا رأى نتائج البحث عن «مضار شجرة الكوناكاربس»، وسأل عن الموضوع. شرح أمير الظلام كلّ شيء باختصار، ثم وضع أمامه شريحة حبوب أيروس، ليؤكد أنَّ الخطر حقيقي، وأنَّ الحساسية قد أخذت خطوة فعليّة في خنقه.

وافقه لطيف على أنَّ الجو تغيَّر منذ سنة 2000، وأنَّه لم يلحَظْ انتشارها أيضًا، ثم أطبَقَ شفتَيْه الرفيعتين يقرأ نتائج البحث، تتنقّل عيناه من اليمين إلى الشمال، حتى قال: «سمعت من قبل أنها ليست شجرة جيدة».

لم يستسِغْ أمير الظلام أدبه: «ليست شجرة جيّدة! قل شجرة دنيئة، تَرَبَّت في الشّوارع».

اتّسعت عينا لطيف من هذه الألفاظ الغاضبة، وأشار أمير الظلام إلى مقال «السرطان وكوناكاربس»، فقرأه لطيف سريعًا وامتطّت شفتاه، ثم أعاده أمير الظلام إلى نتائج البحث وطلب منه أن يحاول دخول «كوناكاربس وأطفالنا» فلم يقدِرْ، فقال أمير الظلام له: «أرأيت؟ حُجِب لأنهم لا يريدون أن نعلم الحقيقة، فربّما كانت هي سبب شلل الأطفال، أو خنقهم بالربو. ستتزوّج وسيكون لديك أولاد، وكذلك أخوك، وابن عمّك وجارك وإخوانك في الوطن، سيكون سكوتك خيانة لهؤلاء جميعًا».

صعدت تفاحة آدم في حنجرة لطيف وهبطت، يطالع بعينَيْن خاليتَيْن من الإرادة، فطمأنَه أمير الظلام بأنَّ مدير هيئة البيئة ينتظر لقاءه بفارغ الصبر، وأنّهما سيضعان نتائج هذا البحث أمام الحكومة.

طبع لطيف نتائج البحث، وكاد يحمل الأوراق إلى مكتبه، لكنّ أمير الظلام رفض.

في المَسافة بين غرفة مكتب لطيف وغرفة مكتبه ابتكر حيلة ينفخ بها صورته في ذهن من يسمع صوته المضحك، ستجعل الصوت الأجشّ يرتعد؛ الإنسان مخلوق ينفّذ أوامر من يخيفه تجنّبًا لضرره أكثر من تنفيذه أوامر من يحبّه جلبًا لرضاه؛ فالخوف والحبّ، إذا تخيلناهما سيارتين، يصل الخوف أسرع إلى قلب الإنسان من الحبّ.

كانت نرجس تطالِع بشرتها في مرآتها الصغيرة عندما وضع أمير الظلام الأوراق على مكتبه، وسألَتْ من دون أن تطالِعَه: «هل أنهيت فواتير عقود شركتَيْ التنظيف؟». أصدر صوت إيجاب من أنفه، وعاود الاتصال على الرقم الآخر لمكتب مدير هيئة البيئة. تجشّأت نغمة طلب الاتصال ولم يَبدُ أنّها ستصله بطرف آخر. لن يستخدم صفة «المواطن» التي قدَّم بها نفسه قبل قليل، من يصف نفسه بالمواطن هذه الأيام لا يستغرب إغلاق الخط بوجهه. تجسَّد توتره في اهتزاز قدمه وهو يكرِّر المحاولة للمرة الثالثة. أخرجت نرجس نقّالها وتابعت شيئًا على شاشته تُصاحِبه موسيقى حزينة. ثم أجابه صوت أنثوي جاد من الجهة الأخرى فهمس: «ألو، ألو، السلام». التفت إلى نرجس فإذا هي مندمجة بحُزن مع الشاشة، وقال حانقًا صوته: «أنا أمير الظلام». تسارعت أنفاسه: «أريد أن أقابل مدير هيئة البيئة، لديَّ أمرٌ مُهِم». تعرَّق جبينه حين قالت السكرتيرة: إنَّها ستبحث في الساعات المُحدَّدة لاستقبال المواطنين عن فرجة تكفي اسمه. عادت نرجس ترمقه، ابتسم متظاهِرًا بالسَّعادة، ومسَحَ جبينه. عادت السكرتيرة بعد لحظة تُخبِرُه عن وجود ربع ساعة متاحة في التاسعة صباح يوم الأربعاء، وافق بلا تردُّد.

فطلبَتْ منه أن يعيد اسمه: «في الهوية اسمي وحيد هادي، لكنّه لا يهمّني بشيء». ولمّا أنهى المكالمة وجد نفسه يلهث ويتصبّب عرقًا. سألته نرجس: «ماذا بك؟».

أحاط بأنفاسه وأجاب: «إنّها الحساسية».

الإنسان مخلوقٌ يستهلِكُ الخذلانُ طاقتَه

وصل باكرًا إلى مبنى هيئة البيئة، متحمِّسًا، ومدجَّجًا بآخر فنون الإقناع.

جاهَدَ قدر الإمكان لتبدو جلسته -في صالة الانتظار- جديرة بأهمية الملف الذي يحمله؛ فقد كادت مجموعة أشجار كوناكاربس -تقف أمام مبنى الهيئة- أنْ تهزّ ثقته بقضيّته حين مرّ بجانبها، إذ شعر أنّها تنظر إليه وتنتفِش.

كانت صالة الاستقبال ثريّة، جدرانها وأرضيتها من الرّخام اللامع، تتدلّى من منتصف سقفها ثُرَيّا ذهبيّة ضخمة، وفي الزاوية التي عن يمين الباب الرئيس يوجد باب آليّ يؤدّي إلى مكتب سكرتارية الاستقبال والمتابعة، له شباك يفتح على الصالة. كانت تصلح للاسترخاء.

كان هناك ثلاثة عشر مواطنًا يتنظرون دورهم، ويحملون ملفات تبدو من جلساتهم أنّها ليست ذات أهميّة. كرَّس أمير الظلام وقته طيلة اليومين السابقين للبحث عن أكثر طرق الإقناع قدرة على كسب مدير الهيئة إلى

صفِّه، أمدَّه قوقل بروابط مهمة للوصول إلى المستوى المطلوب، ووجد في اليوتيوب فيديوهات كثيرة عن تدريبات تنمِّي الأهمية الذاتية، انتقى الأكثر مشاهدة منها، وطبَّقها أمام المِرآة حتى شعر بالأهمية الذاتية بسهولة، وقام ببحث سريع عن مدير هيئة البيئة ليدرس شخصيّته ويبني معه أسلاكًا غير مرئيّة من التواصل اقترحتها عليه بعض الفيديوهات، لخلق أُلفة تُسقِط الكُلفة. لم يجِدْ عنه أيّ خبر إلا اسمه الذي أربكه، بدر الكامل، اسم يجعل صاحبه يستلقي، لا يطلب الزيادة؛ مكتفٍ بمعناه.

حين نادى موظف من شباك المكتب: «وحيد هادي»، ارتبك أمير الظلام من الصَّدى. كرَّر الموظف: «وحيد بن هادي»، فقام يتبَع الموظف إلى مصعد في نهاية الممرّ، دون أن يتكلّما حتى دخلا مكتبًا يحفَلُ بأثاث يُعبِّر عن ميزانية لا تُدقَّق بحِرْص، حيث كان مدير الهيئة جالسًا وراء مكتب يقطُر فخامة، مسترخِيًا على كرسيٍّ يلعق من تلك الفخامة، وتلعب أصابع يده بحَبّات مسبحة حمراء، وراءه لوحة بها صورة أبراج مياه أخذت من زاوية عالية، كتب عليها: «كلنا للوطن».

أشار المدير لأمير الظلام بالجلوس، ثم قال بصوتٍ أجشّ: «أهلًا بك، تفضَّل، ماذا تريد؟».

ارتبكَ أميرُ الظلام، بدا لهُ أنَّ الرّوابط غير المرئية لم تكن معقودة جيّدًا، سيطر على ارتباكه بتقنية «كيف تسيطر على ارتباكك؟»، وهي حركة تعتمد على إخراج اللسان مرَّتين وقضم طرفه، ودخل مباشرة: «شجرة الكوناكاربس تُهدِّد البلاد، ويجب أن تُزال من أرضنا، وهذا الملف فيه معلومات تقطَع بذلك»، تنقَّل المدير بعينَيْه بين وجه أمير الظلام والملف، فيما إيقاع صوت حبات المسبحة لم يتغيَّر. اختار أمير الظلام طبقة الصوت

المناسبة للمعلومات الخطيرة، وقال: «إنَّها تنشُر الحساسية، ولها علاقة مريبة مع مرض السرطان، وخَمِّن ماذا أيضًا؟ تشويه خلايا الرئتين في صدور الأطفال، وثبُتَ أنَّها تُفسِد أساسات البيوت والبنية التحتيّة، وغير هذا هي تسدّ رؤية قائدي المركبات في الشوارع، مُسبِّبة أغلب الحوادث على مداخل الدوّارات، وخُذْ عندك؛ حجب موقع نشَرَ تقريرًا خطيرًا عنها». لم تُبْدِ ملامح المدير أنه اقتنع، فأكمل أمير الظلام: «واقتلاعها من أرضنا واجب وطني، إزالتها من أراضي البلاد كافة، من ثم نراسل الدول الشقيقة عن مخاطرها، وبعد ذلك نكون جبهة ونترك الصرخة تصل إلى أصقاع الأرض كافة، فهكذا نشر غاندي دعوته لتحرير الشعوب من المستعمرين، وكن على ثقة بأنَّ اسمك سيدخل أحد كتب التاريخ».

وضع الملف على الطاولة، وأخذ مِنديلًا من علبة أمامه ومسح عرق جبينه.

جارى صوت سقوط حبّات المسبحة إيقاع مرور الثواني، فيما عينا المدير تمسحان غلاف الملف، حتى قال: «تُسوِّر هذه الشجرة حديقتي منذ عشر سنوات، وها أنا بصحة جيدة وأولادي أيضًا».

توقَّع أمير الظلام أن يلعب عقل المدير هذه اللعبة المنطقية الساذجة، فرد عليه الهجمة بذكاء: «يموت سنويًا عشرة ملايين شخص حول العالم بسبب التدخين، وأنا أدخن منذ ثلاث وعشرين سنة، وها أنا أمامك بصحة جيدة، هل هذا دليل على أن العشرة ملايين ميت لا يفهمون؟».

بُهِت المدير وكاد يتلفَّظ بكلمات إعجاب برَدِّ أمير الظلام، لكنَّ اسمه أوحى له بأن إبداء الإعجاب نقصان.

واجهه أمير الظلام: «لا أريد منك كلمة إعجاب واحدة، أريدك فقط أن تبعد خلفيّتك الثقافية وكلّ ما قالوه لك منذ الصغر ثم تتلقّى الأشياء

باعتبارها حدثت للتوّ، ستجد صعوبة في البداية، لكن بعد ذلك...».

قاطعه بلهجة حاسمة: «وراءك مواطنون، لا تأخذ وقتهم، تفضَّل».

وأشار لموظف الاستقبال بإنهاء المقابلة.

أخذ أمير الظلام الملفّ بقبضة من حديد وخرج، وقبل أن يخرج، قال بصوت اجتمعت فيه خيوط كثيرة يصعب تفكيكها: «التاريخ سيشهد».

خرج شاردًا ذلك اليوم، يتخيَّل مصير الأطفال، والناس، والبيوت، والبلاد، فالعظماء يفكِّرون في غيرهم قبل أن يفكروا في أنفسهم، وهذا أحد الأمور التي تُميِّزهم عن الناس العاديين. بدأ عزمه يترنَّح بسبب الشعور بأنَّه قام بواجبه تجاه الحياة، كرِه هذا الشعور الذي يليق بالمدراء؛ لأنّه إذا رأى أنّه أدى ما عليه، وأكمل حياته متظاهِرًا بأن واجبه انتهى، سيأتي اليوم الذي يصبح إنقاذ البلاد مهمة مستحيلة، وسيموت بسبب شعوره بأنه خذل المعجزة.

حين مرَّ بجانب أشجار الكوناكاربس التي أمام المبنى، سمع صوت ضحكة مستهزئة: «هشهش هشهشهشهش هشهشهشهش». التفتَ، لم يكن بجانبه أحدٌ غيرها، فركل إحدى تلك الأشجار وأكمل الطريق.

بدأ شاحن روحه ينفد، الإنسان مخلوق يستهلك الخذلان طاقته بسرعة. قاد سيارته إلى المكان الوحيد الذي سيزوِّدها بالطاقة.

كانت الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، حين صعَدَ الجسر الذي شهد المعجزة، حيث كانت الشوارع تتشابك في بداية ازدحام الظهيرة. ركَنَ سيّارته في خانة الأمان وأشعل أضواء التَّنبيه، ونزل إلى أشجار الياسمين التي رأته لما صار ضوءًا. كانت مجموعة عمال الزراعة يوزِّعون السَّماد على المسطحات الخضراء تحت الجسر. اضطجع أمير الظلام

تحت ظل الأغصان الرحيمة، كأي عظيم وضع اليأسُ صبرَه في محنة قاسيةٍ. على لرغم من جلَبَة الازدحام، إلا أنَّ ذهنه أخذ يصفو بيُسْرٍ. كانت رائحة الياسمين تعطِّر رائحة السماد، وتزوِّده بطمأنينة دافئة. قام بأداء خطوات الاسترخاء الأربعة ثم أفلت كلّ عضو في جسده مكانه وصار والأرض سواء، وسرعان ما نفد الهواء عبر مسامه.

أغمض عينَيْه واستعاد الحادث، سأل: «ماذا سيكون شكل جسدي لو أنَّ المعجزة لم تقع، وبقيتُ مخذولًا في غمرة السيارة؟». حين استعاد استخفاف الذي ينجو من الموت بمصائب الحياة، صارت الأشياء في عينه سهلة وممكنة، وقال لنفسه: الخطاب الذي سيكون الركيزة الأساسية لكُلِّ عمل يجب أن ينشد سلامة الناس، متخيِّلًا تشي جيفارا يعدِّل طاقيته العسكرية، وعنتر جالسًا يحدّ سيفه بحجر، ونيكسون مانديلا ينتظره يتكلّم، وثلاثة لا يعرفهم ويبدون أنهم عظماء لم يكتبهم التاريخ، أتوا ووقفوا بالقرب منه، وقف خلفهم ابن سينا معه شيء لم يستطِع رؤيته، كثيرون لم يُحصِهم، اجتمعوا يستمعون لما سيقول، فتنحنَحَ، وقال بصوت انتشر مثل ذرات ضوئية:

«أيّها العظماء، إنّني هنا أخاطِبُكم ولا أعرف ماذا أقول؟ لكن كما جربنم في حياتكم جميعًا فإن الخذلان يعمل على إطفاء نار العزم، أعلم أنَّ لكُلِّ واحد منكم معجزة يتذكّرها إذا ما اللهب خفت داخله، فلنتذكَّر أنَّ المعجزة لا يراها أحد إلا نحن، ليس لأنَّنا غير عاديين مثل بقية الناس، بل لأنَّ المعجزة تريد منا أن نؤمن بأنفسنا؛ بأنَّ الأشياء التي يظنّ اليأس أنها لن تحدث، قد حدث شيء أكبر منها، أنا مثلًا تحوَّلت إلى ضوء، أنت هناك، نعم أنت، الصديق الإسكندر الأكبر، (وضع الاسكندر يده على صدره ليُحيّه)،

أمعجزتُك أنك صِرْتَ ريحًا؟ مَن أيضا.. نعم.. عباس بن فرناس، مرحبًا بك، (لوَّح له عباس): صِرْت طائرًا مرة، ثم حاولتَ أن تطير بنفسك مرة أخرى فتخلّت المعجزة عنه لأنّك لم تفهم مَهمَّتك، لذا أهم شيء لدينا نحن العظماء أن نفهم المَهَمَّة ونضع أنفسنا رهنًا لنجاحها وإلا صرنا عاديين، والعاديون مثل ساندويتش الهامبرجر البائت، يُتفتَّتون بسرعة. أنا الآن مخذول ويائس، ولا رغبة لي بإكمال المهمة، لكن على الرغم من هذا كله، أشعر كما شعرتم، بأن التضحية بالحياة هي طريقنا الذي شقَّته الأقدار لنا».

تقدَّم رجُلٌ مُسِنٌّ صينيّ الوجه واللباس، من بين الجموع، بدا أنّه ينعم بنظرة معتادة على اختراق الشّكل الظاهر من الحياة، فقال: «الخذلان أول عقبة تواجه مغيرَيْ مجرى التاريخ عزيزي أمير الظلام، إذا غلَبَك فهذا دليل أنّك لست عظيمًا ولن يمنحك التاريخ رفًا تضع أعمالك عليه».

وكَزَهُ أحدهم، فتبدَّد الصيني الحكيم، آخذًا معه بقية العظماء، وبقي أمير الظلام وحده ينظر إلى ثلاثة من عمال الزراعة أرادوا أن يتأكّدوا أنه حيّ.

سأله أحد العمال عن صِحَّته، فلم يردّ أمير الظلام عليه. جلس وطالع ما حوله بنظرة الحكيم الصيني نفسها. تمطّى، ومدّ أحدهم له علبة ماء، أخذها بطريقة عظيم يأخذ علبة ماء، وشكرهم: «تستحقّون أن تكون الحياة من أجلكم أفضل».

***

أجرى تغييرًا تكتيكيًّا للحقيقة، ومن الخطأ اعتبار التغيير التكتيكي للحقيقة كذبًا إذا كان يهدف إلى المصلحة العامة. فقال لنرجس: بعد «أنت هنا؟» الصباحيّة، طلب مدير هيئة البيئة طلبًا منه تشكيل جبهة وطنية تعمل على التشهير بهذه الشجرة.

أعطاها مهمتها التي حددها في الخطة: «ستكونين المسؤولة عن حسابات التواصل الاجتماعي في حملتنا. أنا أعطيك المعلومات عنها وأنت تجعلين سيرتها على كلِّ لسان، سهل جدًا».

أطَلَت نرجس بوجهها بابتسامة عدم الرضا، ووزعت اهتمامها بين تفتيش أدراجها وتنضيد حاجياتها على الطاولة. حاصرها أمير الظلام بورقة كتب عليها مُعرّف حساب تويتر الذي أنشأه يوم أمس وكلمة المرور.

توقّفَتْ عن التهرُّب وأخذتْها منه تقرأ، فقال يدفعها بالاتجاه الصحيح:

«صورة المُعرِّف عبارة عن صورة التقطتها ظهر يوم أمس لشجرة ياسمين، الخطوة الأولى التي ستبدئين بها هي إضافة أكبر قدر ممكن من حسابات المُغرِّدين، والثانية نشر المقالات التي تناولت تلك الشجـ...».

مدَّت إليه الورقة: «آسفة».

تابَع من دون أن يأخذها: «مدير الهيئة قال اختر مَنْ تثق به، وأنا أثق بك».

أبعدَتْ وجهها عنه وقالت: «رُحْ إلى إدارة العلاقات العامة، إنّهم مضطجعون بلا عمل طيلة الدوام».

حشد أعمق طبقات صوته، وحاصرها بخيالات لأطفال يختنقون، وعجائز يتقيّؤون دمًا، وحدائق يملؤها العفن، وبيوت طافحة بالمجاري، ولصوص يشدّون حقيبة سيّدة تسير وحيدة في شارع مظلم، فقأ أحدهم عينها بموس، أخذوا الشَّنطة وهربوا.

بذل نبرة متألِّمة حتى كاد يتأوَّه، ثم حزينة حتى أوشك يتوسّل. فما كان منها إلا أن اختارت طبقة متسائلة، تنطوي على استنكار، مصحوبًا بتصرف غير لائق، إذ مزَّقت الورقة وهي تقول: «هل يوقفك هذا عن تصديع رأسي؟».

«لا بأس»، ربَت أمير الظلام على نفسه، وهو يرخي ظهره على كرسيّه: «الخذلان أول عقبة تواجه مُغيِّري مجرى التاريخ».

طالعها بشفقةٍ وهي تخرج مِرآتها: «المسكينة، سيكون الوقت قد فات عندما تعرف أنّها رَفَضَت مَهمَّة ستضع اسمها الفاني في صفحة مُعمِّرة، ستبقى موظَّفة طيلة حياتها، والتّاريخ لا يذكر الموظفين أو المواطنين».

وضعت المِرآة، وقالت بنبرة نادمة: «وحيد، أنت أخرجتني عن طوعي، قلت لك من البداية لا أصلح، لكنَّك لم تفهم».

وراحت تحاول تثبيط عزمه بأنَّ كلَّ ما لديه ظنون ووساوس، وحبّذَتْ لو أنه يأخذ إجازة لمدة شهر ويقضيها في مكان مريح، فهي لم ترَهُ منذ عمِلا معًا في إجازة، ولم تسمعه مرةً يتحدَّث عن رحلة خارج البلاد، لأنَّ هذا بالضبط ما حدث مع إحدى صديقاتها، إذ كانت منهمِكة في العمل لسنوات، حتى بدأت تشكو من قِطِّها الذي صار يغنّي في منتصف الليل ويرقص، فلما أخذت إجازة، واستجمَّت على شاطئ شرق آسيوي: «خمِّن ماذا حدث؟ انتبهت إلى أنّه ليس لديها قطّ أصلًا، كانت مجرد أوهام».

هزَّ أمير الظلام رأسه وهو يفرِد نفسه من الشباك، وقال عبارته الشهيرة: «الإنسان يعتقد أنّه يفهم الأشياء التي يفهمها».

الإنسان جاهل مثل لطيف، عندما اعتذر بنمطيّة مُفرطة عن المَهمّة، مُغرِقًا وجهه بموجة حرج وهو يعيد الورقة إليه بأدب: «حسبتك تمزح في البداية، فعلًا أنا لا أعرف ماذا أقول؟ وأرتب للزواج كما تعلم...».

قاطعه أمير الظّلام بأدب فاق أدبه بمراحل، يطلب منه أن يقرأ مقال شجرة «الكوناكاربس والحساسية» ثانيةً، وفكّر في أثناء ذلك أن يختار له

اسمًا مستعارًا يمرِّر به ذكره في أحد الأسطر التي ستُكتب عن الواقعة: «شرارة النار» أو «الشرس» أو ربما «قليل الأدب».

تطلَّع لطيف إليه بكَسَلٍ إنساني صَرْف، وقال: «أعتذر منك، لا أعتقد أنني الشخص المناسب، عنـ...»، لم يُعِر أمير الظلام سمعه لما قاله لطيف بعد ذلك، فهو في النهاية كأيّ إنسان عادي يعدّ الحياة هي حياته فقط.

الإنسان مثل محمود رجب محمود، عندما رفض أخذ الورقة، وغيَّر الحقيقة تغييرًا غير تكتيكيٍّ بأنّ أمير الظلام موسوس، وسخر منه يقول: «أنت محاسب أم مزارع؟».

الإنسان مثل عبد الله، لمَّا فتح باب مكتبه لأمير الظلام، واعتذر عن استقباله لأنّه مشغول بكتابة خاتمة فصل مُهمّ من رواية.

لقد جاءتهم فرصة ليكونوا أعضاء في مهمة تاريخيّة، لكنّهم ركنوا إلى عاديّتهم ومارسوها بطريقة نمطيّة تتَّبع شكل قالب عقولهم. الأشياء العادية لا تتميّز، وتختفي مثل رماد سيجارة هبّ عليه هواء. تفهَّم أمير الظلام تصرّفاتهم هذه بالطريقة المتسامحة التي ينظر بها العظماء إلى تصرفات الناس العاديين؛ تظلُّ هناك أشياء يصعب فهمها على مَن لم تمْسَسْه الأقدار بمعجزة.

استند أمير الظلام على حائط ممرّ الخروج، في طريقه للتدخين، كانت الانقباضة ترقُص في صدره على أنغام لحن حرين. نهى نفسه عن الإذعان لليأس بمقولته الأبدية: «الإنسان اخترع السَّرير واخترع الكمبيوتر، لكنه طوَّر الكمبيوتر، ولم يطوِّر السرير».

***

عرِفَ أمير الظلام خطأه بسُرعة، بعد ممارسةٍ سطحيّة للاسترخاء، مرّ

خلالها مرورًا سريعًا فوق أسماء الذين غيَّروا مسار التاريخ؛ خطؤه أنّه اعتمد على غيره وبنى خطّته على وجود أيدي الآخرين في يده. سيمضي وحده في تنفيذ الخطّة، وإذا رآه البقيّة يقاتِل الأخطار، وأشعة الشمس تسطع على جبيني، سيلحقون به.

فتح تويتر وأضاف الحسابات المؤثِّرة: الفنانة «زهرة المساء»، وحساب المقاطع المُضحكة «امسك بطنك»، وخمس حسابات إخبارية، وأضاف المغرد الشهير «أبو فوز»، وحساب وزارة الصحة ووزارة الخارجيّة الأمريكية، وكتب لكُلٍّ منهم:

«تحسبون الكوناكاربس مفيد، هههه، تجرَّدوا من أحكامكم المُسبَقة، وابحثوا عنها في قوقل.

#أمير_الظلام».

نزل إلى مخزَن وراء الحوش الخلفي للبيت، سحب سِلْكًا معدنيًّا يُستخدَم لجَرِّ السيارات، ونادى كومار سائقهم ليساعده في لفّ السلك حول رقبة شجرة الكوناكاربس التي أمام بيتهم، وإيصال الطرف الآخر إلى مشبك السّحب بمؤخرة السيارة، والبدء بتصفيتها. ما أن يخطو الإنسان الخطوة الأولى حتى يجِدَ الدَّرب يركض إليه.

عندما لفَّ السّلك حولها شعر أمير الظلام بارتعاشها، سأل كومار ليتأكّد: «هل تشعر برعشتها؟»، فهزَّ رأسه هزّة غير نمطيّة تفيد التأكيد.

وسَّعَ زاوية فمه اليسرى بابتسامة تشفي، ثم أمر كومار بالتخلّي عن قلبه قليلًا وجرَّها بوحشيّة. فحصت السيارة في مكانها وأخذت إطاراتها

تصرخ، لم تتزحزح الشجرة، أثار تشبّثها حنق أمير الظلام، إنّها تتحدى خطوات الإصلاح التي يقوم بها، ولن تمضي الأمور بيسر. فصرخ: «كومار، زِد السرعة». علا صريخ الإطارات وامتلأ شارعهم بشواظها، والشجرة ما تزال تعضّ على قاعها، عدا أنّ جذورها برزت. ارتفع غضبه: إنّها تزداد عنادًا. فأنزل كومار وركِبَ مكانه. ربط حزام الأمان، ورجع حتى ارتخى السلك، ثم تظاهر بأنه يبحث عن شيء في الدرج ليخدعها، حتى قدَّر أنها أرخت جذورها لتستريح فانطلق بكُلّ سرعة السيارة. رجّته قوة الشدّ، سمع صوت عظم ينكسر، ووجد أنها مالت قليلًا.

أعاد الكَرَّة مرة أخرى.. ثم ثالثة ورابعة.. وفي المرة الخامسة، كان قد بلغ به الغضب مبلغًا جعله يصرخ: «لن أسمح لأحد بإيذاء العالم»، خرجت منها صيحة على هيئة تحطُّم خشب مألوفة، وفقدت القدرة على مواصلة العناد.

سحلها أمير الظلام مترين عن مكانها وترجَّل يلهث. كان غبار المعركة عالقًا في الهواء وهو يتقدَّم إلى جسدها الخاسئ، وضع قدَمَه فوقها، ومرَّر نظرة المنتصر على الجميع. شعر تلك اللحظة أن المعجزة تنظر إليه بفخر.

كانت أمه تنظر من عند الباب إلى ما يجري، وخرج جارهم الملاصق لبيتهم على الجلبة، ووقف فرحان وولده البكر عند بابهم ينظران. هدأ صدر أمير الظلام فأخرج نقاله والتقطت صورة ليبدأ بها المشوار في تويتر.

قال لكومار وهو يسير متَّجهًا إلى فرحان الذي أتى حافي القدمين: «تخلَّص منها في ساحة المدرسة، هناك».

***

غرَّد أمير الظلام بالصورة قبل أن يأوي إلى الاسترخاء وذيَّلَها بهاشتاق كان ملتهبًا بالنقاشات:

«إنها تتكاثر، تفسد البلاد..

اجتثاثها هو الحل

#أمير_الظلام #فلتسقط_وزيرة_الشؤون».

عندما استيقظ في الصباح وجد أنَّ أحد كبار المغردين قد أعاد التغريد بتغريدة صورة الكوناكاربس المسحولة معلِّقًا: «اقرأوا ما وراء السطور، وتعلموا فن التَّورية». وصلت تغريدته إلى أربع عشرة إعادة تغريد، وستّة وأربعين إعجابًا، وثلاثة ردود.

أول الرّدود من طبيب متقاعد أكَّد أنّه لاحظ ازدياد حالات الربو منذ سنة 2000، وأشاد بوعيه. ردَّ أمير الظلام بأنَّ عليه كطبيب أن يقوم بدوره في توعية المجتمع ومحاربة هذه الشجرة الجالبة للهلاك، ودعاه للانضمام إلى جبهة إنقاذ البلاد، لكنَّ الطبيب تجاهل الأمر وغرَّد بعدها بمقطع رجل واجم يعزف بيانو. والردّ الثاني كان من حساب شاب يُدعى بشير سعد، اقتبس التغريدة وعلَّق: «الكوناكاربس كثير في وزارة الشؤون». ردّ عليه أمير الظلام: «الكوناكاربس في كلّ الوزارات أخي بشير سعد، علينا أن نجتثّها ونزرع مكانها الياسمين، وُجودك معنا سيكون بشيرًا بالسَّعد، فهل أنت مستعدّ؟». والثالث كان من حساب بيع كريمات تفتيح البشرة يعرض علاجات للأكزيما.

الإنسان مخلوقٌ يُصدِّق

بكى أمير الظلام، بلا دموع أو صوت، وهو يزرع فسيلة ياسمين في النتوء التي تركتها الكوناكاربس التي كانت أمام بيتهم. فسيلة ضعيفة، مرتعشة، لا تدرك بعد ما عليها فعله. اشتراها من أحد المشاتل مع اثنتين غيرها بأقل من سعر وجبة بيج ماك. كان يريد أكبر منها عمرًا، إلا أنَّ البائع أخبره أنَّ النبات كلما كان قريبًا من مرحلة البرعم كانت قدرته على التأقلم أكبر.

فكَّر وهو يتأملها: ستمرّ بسرعة السنتان اللتان تحتاجهما هذه الفسيلة حتى يقوى عودها، سأقف خلفها حتى ذلك الحين.

أخرج نقّالَه والتقط لها صورة من زاوية كانت أشعة شمس العصر الحانية تربت على أوراقها، وأرسلها للعالم بأسره في تغريدة على تويتر، مع اقتباس لتغريدة صورة كوناكاربس المجتثّة، التي أرسلها قبل ثلاثة أيام، وعلَّق:

«لا يكفي أن نزيل الشرّ

بل يجب أن نترك في مكانه الخير،

حتى إذا فكر الشَّرّ بالعودة لن يجد لنفسه مكانًا..

#أمير_الظلام. #وزيرة_الشؤون_الغبية».

أخذ الفسيلتين الأُخريَيْن إلى بيت فرحان.

كانت سيارة فرحان واقفة أمام بيته وبجانبها سيارة زوجته. طرق أمير الظلام الباب وابتعد خطوتين.

كان قد أقنع فرحان -لما اقتلع الشجرة، وشاهد معه بعض المقاطع في اليوتيوب عنها- أنْ يستبدل أشجار الكوناكاربس التي تتربَّص في حديقته بحياة أسرته، بأشجار ياسمين آمِنة على الأطفال. لم يأخذ فرحان الموضوع بهزل كالعادة، بعد أن شاهد من نَقّال أمير الظلام نتائج بحث مضار الكوناكاربس، بل ضرب جبينه بكفِّه وتألَّم من قلبه على كلِّ الأيام التي سقاها فيه. لم يستغرب أمير الظلام، فهذا ردّ فعل طبيعي؛ الإنسان مخلوق يصدِّق أخبار الشرّ بسهولة.

تواعَد مع فرحان مساء أمس على أن يبدآ عصر اليوم باجتثاث الشجرتين الصغيرتين في حديقته، ويغرسان مكان كلّ واحدة فسيلتَيْ ياسمين.

لكن لم يفتح أحد الباب، فخمَّن أمير الظلام أن فرحان خرج لقضاء حوائج أولاده بسيارة أحد أصدقائه، فعزم أن يعود مرّة أخرى بعد صلاة المغرب.

وضع الفسيلتين في حوش بيتهم برفقٍ، وأوصى سائقهم بحمايتهما. وصعد يستلقي على سريره ويكمل عمله على تويتر.

لم يشعر بخيبة أمل لأنه لم يجد تجاوبًا على تغريداته، يعلم أنّ عملية خدش قالب العقل تحتاج إلى بعض الوقت، سيستمر في التغريد، ويغيِّر التكتيك إذا واصلوا تجاهله.

حين أذَّن المغرب، نزل يُدخِّن أمام الباب، فطرَأ عليه «حسن صواب».. فقد مرّ أسبوعان على آخر مرّة رآه فيها، لا يعقل أنّ الحساسية ما تزال تنهش صدره أو ربما تعمَّد حسن أن يطيل غيابه ليُعطي أمير الظلام فرصة حتى يهيّئ نفسه لتصديق ما سيقول عن القصة التي حول شجر الكوناكاربس.

رمى السيجارة وحمل الفسيلتين إلى بيت فرحان، وطرَق الباب، فلم يُجِب أحد. سمع بالكاد صوت أولاده يتعاركون على شيء ما في الداخل. هنا هزّ أمير الظلام رأسه متأسفًا، فاحترام المواعيد هو الحد الأدنى لأخلاق الجادين في المحافظة على صحة العالم. أخرج النقّال واتصل بفرحان العجوز، فرَدَّ الأخير بسُرعة، بنبرة مريض وصلت حرارته الأربعين درجة:

«هلا وحيد هلا».

بسرعة بديهة تخيَّل أمير الظلام فرحان ملتحِفًا بغطاء ثقيل، وعلى رأسه كمَّادة باردة، وفي فمه مقياس حرارة:

«أتمنّى لك صحة تسمح بالركض مسافة طويلة».

«شكرًا شكرًا»، وأخذ يسعل: «اغتسلت وجلست تحت المكيّف».

«إذا التقى الماء والهواء في جسد فإنّ المرض يدخله، ما رأيك بهذه العبارة؟».

«خالدة»، أجاب فرحان بصوت مريض، وأضاف: «وحيد.. أرجوك قُم..» وسعل ثم تابع: «اقطع الكوناكاربس وقُمْ بما يلزم».

«دع الأمر لي، وقُمْ بخطوات الاسترخاء الأربع حتى تتخلَّص من بدنك المريض».

«أنا الآن في الخطوة الثانية، شكرًا لك».

حلَّ الليل، وخفَّ ارتباك العصافير على الأشجار، وبدأ الظلام يحتشد في الزَّوايا. دغدغ أمير الظلام ساق إحدى الفسيلتين قبل أن يدخل حديقة فرحان حتى لا تشعُر بالخوف، وقبَّل خد الأخرى ليُطمئِنَها، ثم شجّعهما: «أنتما الأمل».

كانت حديقة فرحان خالية إلا من نور مصباح مرهَق يحاول بوَهنٍ أن يزيح الظلام من فوق بعض أركانها. أخذ أمير الظلام جولة حاملًا الفسيلتين حتى يتعرّفا إلى المكان الذي ستنموان فيه. وضعهما على الأرض بلُطفٍ، ثم أخذ نظرة شاملة على الحديقة حتى توقَّف عند شجرة الكوناكاربس الكبيرة والكثّة، فوجدها تميل يمينًا بريبةٍ، ولاحظ -بسلكِ نورٍ واهنٍ- أنّه يوجد انتفاخ في جهتها اليمنى، كما لو أنّها تخبئ شيئًا خلف أوراقها الكثيفة، فقال:

«خبِّئي ما تشائين، فاليوم سأقتلع الشجرتين الصغيرتين أمام عينيك، وغدًا أو بعد غدٍ سأتناوب عليك مع فرحان بالمنشار».

ما أن انتهى من جملته حتى سمع صوت ضحكة صادرة من أنف ما، طالَع شبابيك بيت فرحان ذات الزجاج العاكس فلم يجد أثرًا لأنف. حين مال إلى أول شجرة كوناكاربس شادًا قلبه بأقصى درجات الكراهية

كي لا يرتخي لشكلها الطفولي، وأمسك بساقها الليِّن ليسحبها، اهتزّت الكوناكاربس العتيقة خلفه، فرجع خطوتين واتّخذ وضعية الاستعداد لصد هجمة.

الشيء الذي دعاه للريبة هو أنّه لم يكن ثمة هواء حتى تهتزّ بتلك القوة. بقي ثابتًا لدقيقة أو دقيقة ونصف الدقيقة، مستعدًّا للمواجهة، يغوص بعينيه في عُباب الظلام الذي يُغرِق الشجرة حتى يصل إلى عمقها الذي يخبّئ وراءه الحقيقة، فلم يجد ما يتطلب الاحتراز، أمِنَ الغدر وتقدَّم، هنا اهتزت الشجرة اهتزازًا مُلِحًّا، فتجمَّد، إذ رأى أنّه اهتزاز عاقل ولا يمكن تجاوزه، لم يكد يبدأ تخمين السبب حتى سمع صوتًا شجريًّا يصدر منها: «يا ويلك، يا سواد ليلك». ارتعدت ساقاه وسقط في ردّ فعل بشري طبيعي من الصدمة الأولى، وأتاه صوت ضحكة أو بكاء، لم يكن متأكّدًا، ثم اهتزّت الكوناكاربس اهتزازًا عدائيًّا أفقد قلبه نمط نبضه، تراجع خطوتين ثم سقط سقطة قد يسقطها أي بطل في معركة، فأخذ يحبو منسحبًا من الحديقة، وقد كفَّ عقله عن التحليل وظلّ يستقبل الأشياء بشكلها السَّطحي، ولمّا صار خارجها وقف مرتعِدًا ورفع سرواله من الخلف ليغطي ما انكشف، يطالِع حديقة فرحان وهي تسبح في ظلام يستفزّ عقله: «هل هي حيلة غيّرتْ نفسي بها الحقيقة تغييرًا تكتيكيًّا كي أترك الكوناكاربسة الصغيرة وشأنها، أم.. أم أن.. أم أن الشجرة.. الشجرة الكثة.. أم أنَّ الشجرة الكثة تكلَّمت؟».

لم يقُمْ عقله بأيِّ خطوة بسبب استسخاف اللحظة بكلّ البديهيات والمنطق وقصص العظماء ونظرية الانتقال الضوئي. مكث واقفًا ينظر إليها حتى استعادت قدماه رباطة جأشهما، ومضى إلى البيت يسبر قوقل عما جرى، ويُوغِر صدر تويتر.

عاد إلى البيت، بخُطى سريعة متقاربة، يزداد مع كلِّ خطوة خوفه على الفسيلتين؛ كيف تركهما تواجهان مصيرًا تجهلانه. صعد غرفته مستعينًا بشكل الطريق في الذاكرة. ارتمى على فراشه يهدّئ أنفاسه. حاول الاسترخاء من دون جدوى. كانت أعصابه متصلّبة، وأفكاره تحاول أن تحدّد الاتجاه.

كتب تغريدة:

«هل سمعتم شجرة تتكلّم؟ أيّ شجرة ليس من الضروري كوناكاربس

#أمير_الظلام

#الحكومة_ترعى_الفساد».

وبحث في قوقل فلم يقع على أيِّ خبر عن حادثة تكلّمت فيها الأشجار، ولا وَجَدَ في قَصص العظماء ما يشير إلى ذلك، إلا خبرًا عن رجل تعلَّم لغة الأشجار من طريقة ميلانها مع الريح.

نزَعَ ملابسه ودخل الحمام. استلقى في الحوض حتى امتلأ وغطس خمس مرات، وفي المرة السادسة شعر أنه ذاب في الماء، تمدَّدت نفسه عن انكماشها وتبادلت مع عقله هزّات الرأس. عندها أدرك حقيقة الذي حدث، ضحك، كيف.. كيف فاته.. كان صوت تلفاز، هذا هو، نعم، مسلسل كويتي كشف البطل فيه مؤامرة صديقه المقرَّب، وقال له: «يا ويلك يا سواد ليلك»، غطس المرة السابعة وضحك مُخرِجًا فقاقيع الهواء، لا بدّ أن طائرًا مُغفَّلًا حطّ على أغصان الكوناكاربس النَّجسة فجعله يتخبّط. سيجد الفسيلتين عصر غدٍ في مكانهما مطمئنَّتين.

خرج من البانيو وهو مبتسِم. وعندما فتح تويتر وجد ردًّا من شاب متأنق اسمه بدر على تغريدته الأخيرة:

«ولَيْتها لم تتكلّم..

#تصريح_وزيرة_الشؤون».

مسح أمير الظلام التغريدة الأصلية بسرعة، قبل أن تنتشر وتتسبَّب في حالة توهُّم للمغردين، فبدر من الأسماء سريعة الاستجابة للوَهْم، وهو اسم منتشر في البلاد. وكتب تغريدة أخرى:

«لا ترفعوا صوت التلفاز عاليًا حتى لا تتسبَّبوا بتوهُّم صوت الكوناكاربس

#أمير_الظلام

#تصريح_وزيرة_الشؤون».

***

صحا صباحًا مُفعَمًا بحُبِّ الإنسانيّة. دخل الإدارة ولم يُزِل عن وجهه الابتسامة المتسامحة التي خرج بها من البانيو، مرَّرها على جميع زملائه. كان العمل ذلك اليوم خفيفًا، أنهى أمير الظلام مهام عمله وجلس يُحصي كم يحتاج من التبرعات حتى يغطّي سعر تكلفة الفسائل التي ستغطي البلاد كلها؟ إذا نجح في فتح باب التطوّع في مجموعة سمَّاها «جبهة إنقاذ البيئة»، كانت النتائج الأوليّة تقول إنّه سيحتاج إلى سعر مليون وجبة ماك تشيكن.

ذهب عصرًا إلى حديقة فرحان، فوجده يربت على أكتاف الفسيلتين في تربة حديقته، وقد اقتلع الكوناكاربستَيْن الفتيَّتَيْن. هرول أمير الظلام مستعجلًا من الفرح. قال وهو يدخل الحديقة: «ممتاز ممتاز».

فضحك فرحان، ورحب به وهو يضحك.

كانت الفسيلتان مغروستان بنفس الطريقة التي أخبره بها البائع. مازح أمير الظلام فرحان: «لديك مهارة غير تقليد العجائز، قل لي، أين تعلَّمت الزراعة؟». كتم فرحان الضحكة، وقال: «ذهبت إلى اليوتيوب وشاهدتُ مقطعًا عن الزراعة». ثم فلتَت الضّحكة غصبًا عنه.

تمالَك فرحان نفسه وأضاف: «خرجتُ ظهرًا فوجدتها هنا، فقلت لا بدّ أنك وضعتها وذهبت».

«آهِ، نعم، أمس جاءني اتصال مهمّ، فأجَّلت الزراعة إلى الغد..»، انفجر فرحان ضاحكًا وأخذ يترنّح من شدّة الضحك. تفقد أمير الظلام الفسيلتين، لعلّ فرحان فعل بهما أحد مقالبه، بدتا مسرورتَيْن، ثم رجع إليه: «ما الذي يُضحِكُك؟». قال فرحان وهو مستمّر بالضحك بأنّه تذكّر موقفًا مضحكًا جرى اليوم في عمله.

كانت الشجرة المثيرة للاشمئزاز واقفة باستقامة، ذهب الانتفاش والميل اللذين رآهما في الأمس. لم يكترِث أمير الظلام لذلك؛ فالظلام يلهو بالحقيقة في كثير من الأحيان، وأصوات التلفزيونات تساعده في ذلك.

بعدما تأكَّد أنّ خطّته تسير بسلاسة، استأذن: «سأذهب لشراء منشار يعمل بالوقود، رأيته في المشتل»، أشار برأسه إلى الكوناكاربس الكثّة: «متى أردت قصَّها أنا جاهز».

فدخل فرحان في نوبة ضحك تشبه البكاء، حتى سالت الدّموع من عينيه. تأثَّر أمير الظلام وضحك معه حتى انقطعت أنفاسه من الضحك، فازداد فرحان ضحِكًا حتى جثا على ركبتيه وأمسك بطنه وهو يُخرِج أصوات حشرجة وقهقهة وسعال، وجد أمير الظلام نفسه يمسك بطنه من الضحك، فخرج من الحديقة قبل أن يتقيّأ.

الإنسان مخلوق يَكْذِب

اشترى أمير الظلام مِنشارًا يعمل بالبنزين، لونُه أصفر، له لسان مُسنَّن بطول ذراع، وفي مقبضه زِرٌّ يزيد هيجانه.

قطع به ثلاث شجرات كوناكاربس خلال يومين، بالإضافة إلى أربع صغيرات اجتثهنّ بيده.

إحدى الكبيرات الثّلاث، وجدها بجانب مواقف مدرسة، أغاظه اخضرارها بالرغم من عدم وجود مصدر ماء حولها، فعرف أنّها حشرَتْ جذورها داخل مواسير تمديد المياه في البنية التحتية واستولت على نصيب أحد الأبرياء. اختار بدء العملية قبل شروق الشمس؛ حتى يكون التصوير أوضح ويكون الناس أقلّ. تلثّم بشِماغ أبيض، ثم ثبّت كاميرا النَّقال على مقدمة السيارة ثم جرّ حبل التشغيل. أطلق المنشار زأرة غاضبة اتجاه الفساد الذي تقوم به الشجرة، ثم تفجَّر حنقه يريد أن ينقضّ وحده عليها، لولا أنَّ أمير الظلام كان مُحكِمًا السيطرة عليه. جرَت عملية القطع أسهل من المتوقّع، إذ ما أن لعق لسان المنشار الجذع حتى مضى، مثل سكين في قطعة زبدة.

لَمّا سقطت الشجرة ذليلة، توجّه أمير الظلام إلى الكاميرا، وقال مُلوِّحًا بالمنشار:

«إذا تكاسلت الحكومة، فعلى المواطن أن ينشط».

حمَّل التَّصوير في البيت على حسابه في تويتر، وأرسله مع تعليق رائع: «الحلّ في المشكلة».

الكبيرتان الأُخريان رآهما تتسكّعان في نهاية شارع مظلم في منطقة صناعيّة. استغرب لزراعتهما في هذا المكان اليابس، هناك من يفرضها في كلِّ شبر. وفي ظلام منتصف ليلة حالكة، مرتديًا بدلة رياضيّة سوداء جسَّدت لقب أمير الظلام، زأر المِنشار، فحرَّك الهواء أغصانهما كما لو أنهما تريدان الهرَب، فالتهم جذعيهما بأسنانه.

أما الصغيرات الأربع فوجدهنّ بالمصادفة يتعلَّمن أولى خطوات نشر السموم، في حديقة مجاورة للممشى. استسهل اجتثاثهنّ بيده لحداثة عهدهنّ بالأرض. فاشترى أربع فسائل ياسمين، واختار ساعة متأخِّرة من الليل، مرتدِيًا بدلة أمير الظلام ذاتها. تسلَّل على أطراف أصابعه بخِفّة لا تُصدَّق، وأجهز عليهنّ بسحبة واحدة لكُلِّ شجرة، ثم غرس الياسمينات وأحاطها بالتربة وخرج بقفزات هوائية غير محسوسة؛ وصار يمرّ بالحديقة كلّ ليلة، يتظاهر بأنَّه متعَب من الهرولة، ليتفقّد حالهنّ من بعيد.

حتى ليلة جمعة رائقة، بدأت فيها عطلة المدارس وصار الممشى مزدحِمًا، أناس يذهبون وأناس يأتون، وأطفال يلعبون حولهم، وشُغِلت جميع الكراسي معظم الليل، وازدهرت بقالة المشروبات الباردة. وقف أمير الظلام ينتظر دوره أمام شبّاك بيع سيارة المثلّجات، خلف سيدة معها ولدان يتشاغبان وهي تنهاهما دون أن يكفَّا، واستمرّا حتى أسكتهما صوت رجل وقف وراءه لتوِّه ونهاهما عن إزعاج والدتهما، وإلا سيتربّص بهما جِنّيٌّ

في زاوية مظلمة. عرِفه أمير الظلام من دون أن يرى وجهه؛ التفت، فوجد عين حسن صواب البيضاء خلفه، تعكس حالة السلام العميق التي تنعم بها روحه، كان يرتدي نفس ملابسه التي كانت عليه في آخر لقاء جمعهما قبل ثلاثة أسابيع. ثوب النوم الرَّمادي والمقلَّم بخطوط سوداء، والقبعة الرياضيّة الزرقاء.

«حسن!»، هتف أمير الظلام بسرور: «كيف حالك؟».

لم يبدُ على حسن التأثُّر وهو يقول: «هلا هلا، بخير، زحمة اليوم.. تُصدِّق؟ ما الأمر؟».

«بدأت عطلة الصيف، أين كنت طوال هذه المدّة؟».

ابتعدت عينه البيضاء لتحيط بالمكان علمًا، وقال: «أشغالٌ شغلتني»، ثم عادت عينه بقوة: «معك زقارة يالغالي؟».

«تركتها في البيت، لم أعلم أنّني سأراك».

جلسا على الأرض وراء الكراسي، شرب أمير الظلام قنينة الماء متمهِّلًا، ولعق حسن صاروخ الآيسكريم، مُصدرًا أصوات امتصاص تشبه القُبَل في الهواء. أخبر أمير الظلام حسن عن افتضاح أمر كوناكاربس، وكيف اكتشف سلوكها المشين، والأدلة القاطعة، والتدابير التي اتّخذها، ومدّ له شريط حبوب أريوس التي يقي صدره بها من شرّ الغازات.

رَمَيا ما في أيديهما في سلّة المهملات، وذهبا -على مهلٍ- إلى بيت أمير الظلام، حسن ينصت بصمت حكيم وأمير الظلام يُحدِّثه عن تقاعُس المسؤول وخذلان الزملاء في العمل، وشرح له الخطّة التي وضعها لأجل إزالة الشجرة من الأرض.

كان حسن يطرُق رأسه في إيماءة استيعاب جليلة، ويُخرِج بين لحظة وأخرى صوتًا متفهِّمًا من أنفه.

ازدادت شهية أمير الظلام للحديث، مع كلِّ نظره بيضاء يُرسلها حسن إليه، فتدفَّق عندما جلسا أمام بيته يدخّنان، وأراه الفيديوهات التي سجلها وهو يقطع الشجرة، وقرأ له تفاعل المغرّدين في تويتر مع القضية الحسَّاسة، أطلعه على الياسمينة الصغيرة التي زرعها مكان الشجرة التي كانت تفسد البيئة أمام بيتهم. انحنى حسن يتأمل الياسمينة البريئة، ثم ربَّت عليها واعتدل يقول: «هذه الياسمينة أنثى، أنثى الياسمين رائحتها أقوى من رائحة ذكر الياسمين، وتشفي النفس العليلة».

ذهبا خلف بيت فرحان وأراه الياسمينتين. أشار حسن إلى واحدة، وقال: إنها ذَكَر، لأنَّ ذكَر الياسمين يتميَّز بحَدْبة في نهاية جذعه، كسول، ينشط في الربيع فقط، وهو موسم التَّزاوج لدى الياسمين، ولا اعتماد على رائحته في تحسُّن المزاج.

دخَّنا أمام حديقة فرحان وسأله أمير الظلام: كيف تعرف أجناس النبات؟ فأشار حسن إلى عينه وهو يبتسم بتودُّد:

«لون عيني الأبيض تحسبونه مرضًا، لا وألف لا، هذا البياض نور».

كان عقل أمير الظلام يعمل بطبيعته العادية حين أشار إلى الكوناكاربسة الكبيرة وسأل -فيما كان حسن يُمضي عينه في صلبها- عن جنسها، لأنَّه سيقصّها غدًا أو بعد غدٍ مع فرحان، فتوقَّف حسن فجأة عن إطراقة رأسه المستوعِبة، وكفّ صوت أنفه المتفهّم، وانتشرت عينه البيضاء وحدها يمينًا وشمالًا، ثم غيَّر طريقة وقفته إلى أخرى متأهِّبة للهرب. أحَسَّ أمير الظلام أنَّ لدى حسن شيئًا مُهمًّا يخشى أن يطلعه عليه، شيء يتعلَّق بحقيقة تلك

الشّجرة. صمتا؛ أمير الظلام ينتظر حسن يتكلّم، وحسن يلتفت إلى كلّ اتجاه ولا يريد فتح فمه بكلمة. ارتاب أمير الظلام، فتقدَّم ثلاث خطوات واستدار يبحث في الأماكن التي هيّأها الليل للاندساس، لكنْ لم يجد ما يستحقّ الريبة، فرجع إلى حسن ووجده يتظاهر بأنَّ الأمر على ما يرام. فعَّل أمير الظلام إحدى تقنيات الحذر، وأشار إلى برج ماء قريب، وكأنَّه يتحدَّث عنه، وهمس: «هل هناك من يراقبنا؟». التفت حسن إلى برج الماء وسأله: «أحد يراقبنا؟ ما أدراك؟»، أشار أمير الظلام إلى نجمة في السماء: «لديَّ قوة ملاحظة مثيرة للإعجاب، هيا فلنبتعد». ورفع صوته للتشويش على الجاسوس: «حسنًا، برج ماء فيه الكثير من الماء، سيذهب كلّ واحد منا إلى بيته الآن»، وجرّ حسن إلى بيتهم.

مدّ أمير الظلام سيجارة، وقال: «اهدأ وقُل مَنْ هناك؟». أخذها حسن وقال بحذر: «من هناك؟».

تسارَعت أنفاس أمير الظلام، التفت إلى الوراء وعاد: «أخبِرْني ولا تخَفْ، سأقف معك مهما كان». أدار حسن صواب رأسه وأرجعه وعينه تشعّ: «قلت إنّك ستقص تلك الشجرة كـ..»، ولم يُكمِل جملته، فارتفع صوت أمير الظلام الداخلي بصيحة الشبح: «العدو أمامك». وحين وطِئا شارعهما قال أمير الظلام في نفسه: هل سمعها حسن تتكلم؟

سارا بضع خطوات صامتيْن، كاد أمير الظلام أن يبوح بتساؤله لولا أنْ منعه الحرج. فطرأ عليه أن يقول جملة مبتورة، إذ أكملها حسن، فقد سمع الشجرة تتكلَّم. مجَّ حسن سيجارته وعينه تجسّ الطريق، وعلى وجهه تعبير يقول: إنّه متوجِّس من أمر عظيم يخشى البوح به.

استولى أمير الظلام على انتباه حسن بطبقة صوت قياديّة: «حسن»،

وحين أعاره حسن عينيه السوداء والبيضاء معًا، خفّف أمير الظلام المشي، وقال: «يا ويلك يا..» ولم يكمل. توقّفا. ازداد تعبير التوجّس في ملامح حسن. كرَّر أمير الظلام: «يا ويلك يا..»، تنقّلت عينا حسن بين عينَيْ أمير الظلام، ثم أكمل: «يا سواد ليلك، تُصدِّق؟»، شهق أمير الظلام بالنبرة القيادية ذاتها وأكَّد مخاطِبًا نفسه: حسن سمع كلام الشجرة إذن!

نبح عقله قليلًا يعترض طريق استنتاجه، لكنَّه أمره بالابتعاد من هنا فورًا، فهذه الأمور لن يفهمها عقل يعتدّ بأدواته التي ترى الأشياء كما تبدو.

خطف يد حسن وأسرع به إلى بيته بلا كلام، يستدعي بسرعة فائقة كلّ الأحداث: الحادث المعجزة.. مكان السيارة.. الصورة مع فرحان.. حسن صواب.

فكَّر وهما في الطريق: الأمر منذ البداية متعلِّق بهذه الشجرة الفاسدة خبيثة رائحة الفم.

بدأت التفاصيل تتَّضح وتكتمل في الصورة، لم تضخ مخيله تلك الصور عنها عبثًا، وإنّما كانت تنبّهه طيلة الوقت بلُغتها الخاصّة عن المَهمّة. لم يخطئ، كان يسير في الاتجاه الصحيح لكنه سلك الطريق الخطأ، وها هو الطريق الصحيح يأتيه بنفسه. كان حسن يسبقه بخطوتين، وسيجارته لا تزال مشتعِلة حتى توقَّفا عند باب بيته. عبَّ أمير الظلام من الهواء، واستأنف حسن صواب التدخين. قال أمير الظلام وهو يجلس على الرصيف: «أنا لم أصدِّق، في أول الأمر استبعدت أنها تتكلَّم»، صرخ الغضب في داخله بصوت حسرة مكتومة: «تبًا للاعتياد، أفسد نباهتي، آهٍ».

جلس حسن بجانبه وآزره: «لا عليك»، وضع أمير الظلام رأسه بين يديه يتحسَّر على التبرير الذي اختلقه ذلك اليوم: «هههه، مسلسل هاه، هرعت وراء عقلي أبحث في تجاربي عن الشيء الذي يمكن أن يكون هو

الذي تكلّم، فجاء المنطق بصوت التلفاز، نسيت ما تعلمته، هههه.. إنّه العقل إذا أحنى ظهره لسلطة الاعتياد، ويبرِّر كلّ ما يخرج عن مألوفه بنفس الأدوات التي صنعت غشامته، هههه.. الإنسان مخلوق يكذب على نفسه ويصدِّق».

ضحك على نفسه بصوت عالٍ، فهُو الذي شاهد فيديوهات الدكتور مصلح رشيد ولم يصمد أمام أول اختبار في لعب النَّفس على العقل، فكيف ببقيّة الناس العاديّين؟ وقال كلمته الشهيرة التي يتهكم بها على المنطق: أنا إنسان إذن أنا أنسى.

أوّل شيء فكَّر به عندما صمت هو كيف ستُرْوى سيرته للأجيال الذين تُكرِّس المدارس فيهم أدوات العقل. كيف لهم استيعاب أنَّ هناك صنفًا من الشجر أو مخلوقًا -كُنّا نظنه شجرًا- يستطيع الحديث ولديه قدرة على خلق النّوايا؟ إذ إنَّه في مجتمع يُصدِر أحكامًا قطعيّة على كلِّ شيء يريد أن يراه كما يريد، من المستحيل أن تكون الشجرة إلا شجرة.

فسأل: «هل هذا الذي قلت إنَّك ستخبرني به ذلك المساء؟».

تردَّد حسن ثم هزّ رأسه بالإيجاب: «وأين كنت طوال تلك الأسابيع؟».

«كنت، كنـ، قلت، قلت أتركك تبصر الحقيقة بنفسك».

«سمعت الشجرة تتكلم إذن».

«نعم»، نظر حسن إلى البعيد، وأكمل: «هذا حدث منذ وقت طويل».

هدأ لهاث رأس أمير الظلام وسحب سيجارة، وقال: «أخبرني ماذا حدث؟». حين أشعلها رفع حسن صواب رأسه إلى السماء كأنَّه يبحث عن ذكرى قديمة مرمِيَّة في زاوية مهجورة في داخل رأسه، ثم حطَّ رأسه على

هيكل السيارة المُطعَّجة أمامهم، وقال:

«كان ذلك قبل عشرين سنة، أو ربما ثلاثين.. لا أذكر، أو.. مهلًا مهلًا، قبل ثلاث وثلاثين سنة، ما رأيك؟»، هزَّ أمير الظلام رأسه يحفّزه، فتحفّز حسن: «حسنًا، كنت أمشي في ساحة كلّها حدائق خلفية لبيوت، كان الوقت ليلًا، نعم ليلًا، الأشياء الغريبة تحدُث في الليل، وسمعت صوت فتاة تستنجد في إحدى الحدائق، فهبَبْتُ للنّجدة كما أفعل عادة، إلا أنّه صعب عليَّ تحديد الحديقة التي يأتي منها الصوت، فدخلت ثلاث حدائق حتى وجدت في الرابعة.. زمَّ شفتيه من الألم، ثم ملأ صدره بالهواء وأكمل: «وجدت فتاة باهرة الجمال في الخامسة والعشرين من عمرها»، لعقَ شفتيه وتابع: «العمر الذي تبثّ فيه الفتيات رائحة أنثى شجرة الياسمين.. ثم آهِ.. لا أعرف كيف أقول لك هذا، كانت، كانت إحدى الأشجار، شجرة.. أجل، رأيت شجرة تمسك يديها من الخلف وأمامها شجرة أخرى تخنقها بأغـ..»، قاطعه أمير الظلام لا شعوريًّا وقد أخذ جسده كله ينتفض غضبًا من التأثر: «الخسيسات!». فتابع حسن: «تخنقها بأغصانها، والفتاة تطالعني وهي توشك أن تموت»، هنا صرختُ عليهما صرخة جعلت أوراقهما تُحات من الخوف: يا شجرتَيْ الكلب، أنا حسن صواب والجميع يعرف ذلك، اتركاها وإلا هزمتكما بسهولة. فتبادلتا النظرات ثم تركتا الفتاة وهربتا بسرعة. تحسباننني تركتهما؟ لا وألف لا، ركضت وراءهما، حتى أمسكت التي كانت تخنق الفتاة وقطعت منها غصنًا عقابا لها، فعدتُ إلى الفتاة، كانت منهارة على الأرض، ساعدتها في الوقوف، ثم شكرتني وامتدحت شجاعتي، وخمّن ماذا أيضًا، قبَّلتني على خدّي.. تُصدِّق؟ تركتها تذهب من دون أن أسألها عن منزلها، لم أُرِد استغلال امتنانها لي لكي أبني معها علاقة حبٍّ من طرفين، ابتلع ريقه ونظر إلى البعيد، وتابع: «لكن الموضوع لم ينتهِ

هنا، فبعد يومين مررتُ بساحة أخرى، في الليل أيضًا، وسمعت صوت فتاة تستنجد باسمي، نعم، تقول: «أنقذني يا حسن صواب»، فهرعتُ للنجدة، كما هي عادتي التي لن أغيِّرها، غير أنَّ الصوت ظلّ يبتعد كلما اقتربت، قلت لنفسي: إنّ الفتاة مخطوفة واللصّ يركض بها، فانطلقت حتى وصلت إلى تلك الحديقة التي كنا بها قبل قليل، أشار إلى حديقة فرحان، فتجمّد أمير الظلام من الصدمة، وتابع حسن: «لم تكُن الحديقة على شكلها الآن، كان امتدادها أقصر، وبها عدد لم أُحْصِه من الأشجار، ربما سبع شجرات أو خمس وأربعون، مشكلتي أنّني أنسى بسرعة، وحين دخلت الحديقة لم أجِدْ فتاة أو حتى رائحة فتاة، وجدت ثلاث شجرات، من تلك النوعية الخسيسة، تحيط بي.. حاولت الهرب فلم أقدر، قالت إحداهنّ وهي تقترب وترفع أحد أغصانها عاليًا: «يا ويلك يا سواد ليلك»، ثم نزلَتْ به على رأسي، سقطت، فركلتني الأخرى في ظهري، الآن نسيت الباقي، لكن أذكر أنّني تقاتلت معهنّ بضراوة حتى هربت. وأذكر جيّدًا أيضًا أنَّ تلك الشجرة -التي تريد قصّها غدًا أو بعد غد- هي التي ضربتني بغُصنها، نعم، نعم لا تندهش، كبُرَت وتغيَّر شكلها لكنّني لا أُخطِئها، نعم إنّها هي، الملعونة الآن تحاول أن تبدو محترَمة».

منظَر عين حسن البيضاء النَّقيّة أعطى أمير الظلام فرصة ليتخلَّص من صدمة خدش القالب، مستحضرًا حديث الدكتور مصلح عن الرجل الذي أخبر قومه عن الطائرة، وكيف استقبلوا ما رآه؟

«هل تصدِّقني؟»، سأل حسن لمّا رأى أمير الظلام يطيل النظر في عينه البيضاء؛ فأضاف حسن بنبرة يخنقها الخذلان:

«كلّهم يُكذّبونَني، ويستمتعون بتكذيبي».

«كذبوك.. كذبوك لأنَّ شكل قالبهم العقلي اعتاد على رؤية الشجرة بهذا الشكل، حتى صار الاعتياد منطِقًا»، قال أمير الظلام بصوت يشعّ نورًا: «المنطق يقول الشجرة نبات، النّبات يُغرَس في الأرض، يشربُ الماء، لا يمكنه التحرّك أو الكلام، والكوناكاربس نبات، إذًا الكوناكاربس شجرة.. لكن أنا -فيما كنت تقصّ عليَّ ما جرى لك- وضعت كلّ هذا جانبًا؛ لأنَّ المنطق شوكة في حلق الحقيقة، ولأنّني مثلك سمعتها تتكلّم.. نعم.. أنا أصدّقك».

أطرى حسن وجهه بابتسامة، خالَ أمير الظلام من رقّتها أنه سيبكي.

قبل أن يفترقا تلك الليلة تعاهدا -أمام هيكل سيارة أمير الظلام المتجعّدة- على أن ينقذا العالم من نويا كوناكاربس السوداء، مهما كلفهما الأمر.

الإنسان مخلوقٌ يأكلُ ويذهبُ إلى العملِ

«لا بأسَ بفعلِ الشَّر إذا كان بنية فعل الخير».

هذه القاعدة، التي وضعها أمير الظلام مع «حسن صواب»، هي التي حدَّدت ما فعلاه في الثلاثة أيام التالية، بعدما تعاهدا -وهما يشعلان سيجارتين- على إنقاذ الحياة البشرية على كوكب الأرض.

كلّ الدلائل تؤكِّد أنَّ هذه الشجرة تريد الاستيلاء على الأرض، مثلما فعل الإنسان مع الديناصورات.

وصل أمير الظّلام إلى هذه النتيجة في جلسة استرخاء مكثَّفة، تخلَّص فيها من صوت العقل، وأبقى على صوته هو فقط، وغاص إلى عمق الزمن، فعرف كلّ ما حدث وما سيحدث: التاريخ يكتبه المنتصر، فمن كتب التاريخ غير الإنسان؟ أين ما كتَبَتْه الديناصورات؟ تعلَّم الإنسان أنّها حيوانات، فهل اختبر هذا بنفسه أم أنَّ أحدًا لقَّنه هذا الأمر؟ كيف تكون منتشِرة في الأرض بلا أي عمل تكسب منه قوت يومها؟ من كان يحرث الأرض ويزرع؟

ومن كان يربّي الدّواجن؟ ومن كان يجلب الماء؟ القول: إنّ الديناصورات حيوانات سيُقال على الإنسان بعد أن تستولي هذه الأشجار على الأرض، سيكتبون أنَّ الإنسان مخلوق يأكُل ويذهب إلى العمل ويرجع إلى البيت ويتكاثَر، بلا أهميّة للكوكب، مثلما كتب التاريخ الإنساني عن الديناصور.

***

وجد «حسن صواب» ينتظره وفق الموعد أمام البيت ضُحى يوم جمعة، يستحلك في عينه السوداء الغضب، ويبرق في عينه البيضاء الحماس. اختارا يوم الجمعة ليوظِّفا خلوّ الشوارع عنصرًا في نجاح الخطة. ساعد حسن بحمل الفَسائل العشرين التي اشتراها أمير الظلام يوم أمس من المشتل مع كيسَيْ سماد، ووضع بنفسه المِنشار في صندوق السيارة الخلفيّ، وقال قبل أن يغلق الصندوق:

«المشكلة في المناشير أنّك لا تستطيع أن تفرِّق بين الذكر منها والأنثى إلا حين القَطْع، ذَكَر المنشار يهتزّ أثناء القطع، والأنثى ترتعش».

ثم تناولا الإفطار في مطعم هنديّ ودخّنا وهما يشربان الشاي بالحليب على مهل، في انتظار الوقت الذي تضرب أشعة الشمس اللاهبة رؤوس كلّ شيء، وبعد ذلك تزوَّدا من بقالةٍ بعلب ماء وعصير وكاكاو، واشترى أمير الظلام لِحَسن علبة سجائر من نوع إل إم أحمر، وانطلقا إلى ممشى في إحدى المناطق المجاورة.

كان الممشى شارعًا مسفلتًا بحرصٍ شديد، يُظلِّله صفّا أشجار كوناكاربس عملاقة وبذيئة عن يمينه وشماله. أخذ أمير الظلام عند بدايته حبة إيريوس تحسُّبًا لردات فعلها، وفيما انشغل حسن بإنزال فسائل الياسمين، حقَنَ أمير الظلام خزّان المنشار بالوقود، ثم أوغره، وسرعان ما

أخرج المنشار الوحش الذي بداخله. وبعد ذلك أخذ صدر أمير الظلام يفور، وهو يتذكَّر التقارير التي قرأها عنها، وصرخ بجانب زئير المنشار: «شجرة هاه، لك ظل لطيف، جبانة، دعي التَّمثيل ينفعك الآن».

ثم ترك حُبّه للخير يُعبِّر عن نفسه بطريقته الخاصة، وراح يمزِّق الأشجار إربًا.

قال عقل أمير الظلام تفاهات تُسفِّه ما يفعله الآن، فأخرسه مخاطِبًا نفسه بصوته الخاص: «ماذا كان عقل لويس داجير يقول له عندما كان يفكر في صنع جهاز يلتقط صورًا؟ أو بماذا كان الأخوة رايان يردّان على عقليهما وهما يصنعان جناحي طائرة؟». فاستمر في القطع.

وانشغل حسن صواب -في تلك الأثناء- بإيمان كامل بوجوب التغيير، بغرس فسيلة ياسمين قرب كلّ شجرة تسقط، وبين غرسة وأخرى كان يركض ويرفس شجرة واقفة أو يبصق على التي تسقط. ورآه أمير الظلام في غضون انهماكه بقطْع إحداهنّ يضع غصنًا في مؤخرة شجرة مائلة من طولها الفارع؛ ليُخرجها عن صمتها. فأطفأ المنشار ونهاه، بدافع الشهامة التي تزدان بها أخلاقه: «لا يا حسن، لدينا شرف الخصومة».

واصلا القطع حتى نفد الوقود. لم يأتيا على كلّ أشجار الممشى. كانا منهكَيْن، فجلسا تحت شجرة صفصاف آمنة، يشربان الماء. تطلَّع كلّ منهما بالآخر ثم قال حسن: «قطع الأشجار مثل قطع الخشب، تُصدِّق؟».

أخرج صواب علبة سجائره، وأخرج أمير الظلام علبته ودخّنا وهما ينظران إلى الكوناكاربسات اللواتي قضيا عليهنّ مُمدّدات بذُلٍّ على جانبي الممشى، والفسائل محاطة بكمية سماد حَرَص حسن أن تكون كافية لسدّ رمقها لثلاثة أسابيع.

رفع حسن عينَه إلى أغصان الصفصاف ومكَثَ بُرهة صامتًا يتأمَّلها ثم قال:

«كانت الصفصافة مثمرة ذات يوم، ثمرها يشبه الموز لكنّه أخضر وأطرافه حمراء، طعمه سكر، لكن مات الذكور منها، على مدى عشر سنوات، الكوناكاربس هي السبب، قتلت ذكور الصفصاف، تُصدِّق؟ تريد أن تضطر إناث الصفصاف إليها، لكن أنثى الصفصاف وفيّة لذكورها، رفضت ذلك ولو على حساب ثمارها.. أما النخلة فحذرة، لا يغرّنّك شكلها الأبله، فالنخلة سريعة البديهة، لولا حذرها لكانت الذكور ميِّتة الآن.. أخبرتك مرة بأنثى التبغ التي كانت في حديقتي»، هزّ أمير الظلام رأسه، وتابع حسن: «قلت لك إنّني صحوت ولم أجدها، كانت الكوناكاربس هي التي اختطفتها، التبغ شجرة حمقاء، ذكرًا كانت أم أنثى».

تخيَّل أمير الظلام ثلاث شجرات كوناكاربس تحمل شجرة تبغ وتركض بها في الليل من خلف الحدائق، فسأله: «هل كُنّ ثلاث شجرات كوناكاربس؟».

«كيف عرفت؟».

ابتسم أمير الظلام وأجاب: «مخيّلتي جديرة بالاهتمام».

أخرج نَقّاله، شغَّلَ كاميرا الفيديو في برنامج تويتر وسار بين جثث الأشجار:

«اليوم قطعت -أنا وأحد الأبطال- هذه الكوناكاربسات، وغرسنا بجانب كلّ واحدة فسيلة ياسمينة كما ترون، أليست جميلة؟ الدور عليكم، لنُنَقّي بيئتنا من المخلوقات الضارة، أرسلوا هنا صور الكوناكاربس التي ستقطعونهنّ»، وقف بالكاميرا أمام شجرة كانت ترتعش ارتعاشات

خروج الروح وأضاف بطبقة صوت منشارية:

«لكم تحيّات مُحبّ البشرية..

أخوكم أمير الظلام

#أمير_الظلام #إسقاط_رئيس_الوزراء #التأهل_للدوري».

وطلب من حسن أن يلتقط له صورةً، وهو يمسك المنشار، وقدمه تطأ رأس شجرة كوناكاربس، وعلى وجهه علامة الانتهاء من معركة حاسمة. يريد أن تُنشَر بعد وفاته بعشر سنوات كصورة نادرة وهو في وضعيّة المنتصر.

عادا إلى البيت قبل الظهر، استلقى «حسن صواب» في غرفة السائق كومار، وفي أثناء استحمام أمير الظلام وتبديل ملابسه، ثم ذهبا إلى مطعم ليحتفلا بالبداية الموفّقة للمَهمَّة. وجد أمير الظلام تفاعُلًا من خمسة مُغرِّدين في تويتر على الفيديو، ردود تعكس مدى أخذ أصحابها بظواهر الأمور من دون الاقتراب من تفكير واحد عميق. أحد التعليقات لفتاة سطحيّة تُخفي وجهها وراء مكياج فاقع، وصفته بالهمجي فاقد الرحمة، وطالبت بإلقاء القبض عليه بتهمة إيذاء الأشجار. وردَّ آخر من شاب اجتهد في تسريحة شعره، قال: إنَّ مَن فعل هذا مجنون، فرح أمير الظلام؛ إنّها الصفة التي يطلقها الناس على مَن يخدش قالبهم العقلي.

قرأ أمير الظلام على «حسن صواب»، وهو مندمج مع طبق سباكيتي بولونيز يتناثر على فانيلته الصوص الأحمر، بعض الرّدود، فتوقّف عن مَصِّ خيوط السباكيتي فجأة، ثم أحاط أمير الظلام بعينَيْه من دون أن يتحرّك. علم أمير الظلام أنَّ عينه البيضاء أنشبت أظفارها في حقيقة ما، وها هي تجترّها الآن من عمقها، فيما كانت عينه السوداء تحاول معرفة الأمر. ثوانٍ

ثم تابع حسن شفط الإسباكيتي بهدوء. لما انتهيا من الغداء، دخّنا وهما يشربان الشاي؛ حسن في صمته يتتبّع في رؤيته جرّة الحقيقة، ويحك جمرة سيجارته في منفضة السجائر، وأمير الظلام يتأمّل منفضة السجائر؛ ينتظر حسن أن يأتي بها، وبعد قليل فاجأه حسن بالجملة التي سيذكرها بعد أسابيع قليلة، عندما تحيط الشرطة بأمير الظلام من جهة والعدو يتربصه من جهة أخرى، قال حسن: «سيقف العالم ضدّك وأنت تحاول إنقاذهم»، فقام حسن من كُرسيّه، ووضع يده على كتف أمير الظلام، شدّ قبضته وقال بنفس النبرة التي يقول بها التاريخُ الصِّدْقَ: «لا تستسلم أرجوك».

تجشّأ أمير الظلام وطمأنه: «هذا يتكرَّر دائمًا في التاريخ، وبعد أن يعرفوا الحقيقة سيقفون ورائي، هيا بنا الآن».

توجّها بعد ذلك إلى أحد المشاتل، وهناك سُلِب حسن في جمال الورود ورشاقة سيقان الأزهار في المحميات المكيَّفة. كانت الورود تبث روائح أنثويّة آسِرة كما وصفها حسن، ألوانها تحكم قبضتها على الضوء. لمس حسن ساق وردة جوري حمراء، وسأل أمير الظلام وهو يمتصّ بعينه البيضاء اللون الأحمر:

«لماذا لا نزرع هذه الورود بدلًا من الياسمين؟». عرف أمير الظلام أن حسن يختبر معرفته البيئية، فأجابه:

«لأنّها ليست من بيئتنا، لن تحتمل الحرارة وستموت بعد ثلاثة أيام من غرسها».

«وهل الياسمين من بيئتنا؟».

«لا، لكنه تكيَّف».

«ألا نستطيع تغيير بيئتنا، أو تدريب الورد على التكيُّف؟». هنا شعر أمير الظلام أنّه وقع في سؤال صعب لن يعرف إجابته، فصمت، ولمّا رأى حسن حَرَجه أزاحه بحكمته:

«للوَرْدِ طبْعٌ، تُصدِّق؟ وأبو طبع لا يترك طبعه».

اشتريا عشرين فسيلة، لفجر اليوم التالي، وأهدى البائع حسن وردة جوري حمراء إكرامًا لإعجابه.

***

وجد أمير الظلام حسن جالسًا فجر اليوم التالي عند فسيلة الياسمين التي أمام بيتهم. كان يوم سبت، من نوعية أيام السبت الكسولة التي يقضي الإنسان فيها كلَّ الوقت مستلقِيًا أمام الشاشات، أدخله أمير الظلام حمّام البيْت الداخلي ليُغسِّل وجهه وانطلقا لمباغتة أشجار المنطقة الصناعية.

ترك أمير الظلام لحَسَن مَهمَّة القطع للحماسة التي رآها منه، وتولّى مهمة غرس الفسائل. أظهر حسن مهارة مثيرة للإعجاب في النشر، حتى ليظنّ من لا يعرفه أنه محترف في رياضة قطع الأشجار.

«منشارك هذا ذكَر، اهتزازه يقول ذلك»، قال حسن ذلك بعد أن أطاح بالشجرة الثالثة، «المنشار الذَّكَر يسخُن بسرعة، الأنثى لا، تحتمل الحرارة».

أطاحا بأشجار شارع كامل قبل أن تفتح الوِرَش أبوابها. ولم يكُن لديهما وقت كافٍ لتغطية الشارع بفسائل الياسمين، اكتفيا بفسيلتين كبدايةٍ. التقط أمير الظلام صورة للأشجار وهي ممدَّدة على الشارع، وأرسلها في تويتر بتعليق: «لن نتوقّف حتى تتحرك الحكومة»، ثم ذهبا للإفطار في مطعم.

تحدَّثا -وهما يأكلان- عن أمور كثيرة تخصّ المهمة حتى شبعا، كان

المطعم يغصّ بالعمال، يرتفع فيه ضجيج مُفعَم بالأمل، تخيَّلَ أمير الظلام هذا العدد ينقسم إلى قسمين؛ قسم يقطع والآخر يغرس، سيُقضى على وجود هذه الشجرة في غضون سنتين فقط، فجلسا على الطاولات الخارجية ليشربا الشاي بالحليب، وحين فتح أمير الظلام تويتر رأى أمرًا غريبًا، إذ وجد تفاعلًا كبيرًا مع الصورة، التي أرسلها قبل ساعتين، وصل الريتويت بها إلى ستٍّ وستين، والإعجاب إلى مائة وخمسة وعشرين، أما التعليقات فكانت ثلاثة وثلاثين.

طالع حسن بحُبٍّ، وقال: «وجهك خير على البيئة، الرأي العام تحرَّك أخيرًا».

قرأ له التعليقات، بدأ من حساب المغرد الشهير أبو نور، يتبعه مائة وثلاثة عشر ألف متابع، كانت مرونة قالب عقله بادية في تعليقه:

«الذين ينتقدون صاحب الحساب أقول لهم إنَّ هذا أسلوب جديد، يعتمد على الرمز، شجرة الكوناكاربس تضرّ البنية التحتيّة ويجتمع حولها الفايروسات، قارنوها بالتعيينات التي غرستها الحكومة مؤخرًا.. هل فهمتم الآن؟ المايك لكم».

هزَّ «حسن صواب» رأسه مستحسِنًا، وتابع قراءة الردود، بعضها يؤيِّد ما فعلاه ويطالبهما بالاستمرار، والبعض الآخر يطالب بإلقاء القبض عليهما. وقرأ تغريدتين أبدى أصحابهما أنهما على استعداد للمشاركة في هذه الحملة. صفَّق حسن فَرَحًا بما سمعه وقال: «أقرأ ردود الفتيات»، كانت تغريدات الفتيات شتائم له وللبيئة التي نشأ بها، فاضطر أمير الظلام إلى عمل تغيير تكتيكي للحقيقة لتحفيز حسن: «نعم، أنظر إلى هذه الفتاة»، أراه معرّف فتاة طالبت بفحص عقله، دسَّ حسن عينه السوداء في الشاشة، وقال: «الشقراوات عنيدات لكنَّهن وفِّيات، ماذا تقول؟».

«تقول ستنتصر أنت والبطل الذي معك».

اقترب من صورتها ولهث يقول: «قل لها اسمه حسن صواب، مخلص في الحبّ».

فكتب أمير الظلام لها: «ستعرفين الحقيقة قريبًا؟».

انطلقا ومعهما ثماني عشرة فسيلة ياسمين، وطاقة عالية، يريدان ممشىً نائيًا رأى أمير الظلام فيه -قبل أيام- مجموعة مريبة من كوناكاربس، لكنهما عندما مرَّا بإحدى المناطق المترفة، اقترح حسن: «إذا سدَّدنا ضربة قوية إلى أشجار هذه المنطقة ستتناقل بقية الكوناكاربسات في كلّ المناطق الرعب، تصدَّق؟». أيّده أمير الظلام بروح قتالية مفعمة بالسلام: «لا تصفع أحدًا إذا كنت لا تتحمل الصفعة».

أوقف السيارة أمام حديقة كبيرة جدًّا قياسًا ببقية الحدائق، تمتدّ على الساحة الترابية التي أمامها بأكملها، مُنظَّمة تنظيمًا هندسيًا مدروسًا، وتتصرَّف أشجار الكوناكاربس على حوافها بلا وازع أخلاقي، مقلَّمة على شكل قلعة.

لاقاهما الحارس، وأمير الظلام يُنزِل الفسائل وحسن يحقِن الوقود في خزان المنشار، قال له حسن: إنّهما من طرف شركة، وسيجريان بعض الترتيبات، وعليه أن يبتعد من أمامه، فقد يفقد المنشار رشده ويتجه إلى بطنه. عندما أخرج الحارس نقّاله لم يُخفِ على أمير الظلام أنه يريد أن يتَّصل بصاحب البيت، فتعامل مع هذه المعضلة باحترافية عالية؛ حيث ترك الفسائل وركض باتجاهه بأقصى سرعة، وضع حركة الكتلة المندفعة محلّ التطبيق، احتضن الحارس وجرى به، حاول الحارس أن يتملَّص لكن ذراعين قويّتين كانتا مُطبِقتين على ظهره، إلى أن اصطدما بالجدار وحدث ما

كان متوقّعًا، فقد الحارس وعيه بيُسر، فمدَّده أمير الظلام بلطف، ثم همس في أذنه وهو يربِت على رأسه، فيما حسن يلف قدميه بحبل وجده في زاوية الحديقة: «عندما يأتي الوقت الذي تظهر فيه الحقيقة، وينجلي الزيف عن العالم، ستعذرني أيها البريء».

عملًا بتلقائية المنظمة، أمير الظلام يغرس الفسائل في الأماكن التي يراها مناسبة لامتصاص السموم، وحسن يلعق بالمنشار قلعة الكوناكاربسات.

استمر العمل نصف ساعة حتى نفد وقود المنشار، وأرهقهما التعب بعد زراعة ستة عشر فسيلة ركزها في منتصف الحديقة. التقط أمير الظلام صورتين يظهر الحديقة البيت وراءها، ونشرها في تويتر معلِّقًا: «ستؤلمهم هذه الضربة.

#أمير_الظلام #حرب_نهاية_العالم #خسارة_فريق_الاتحاد».

ولمّا حَمَلا المنشار ليعودا، سمعا الحارس يشتم وهو يقفز هاربًا إلى داخل البيت. فركضا إلى مكان السيارة، وانطلقا بسرعة.

مرّا بمحطة وقود وتزوّدا منها ليستخدما المنشار، إذْ بقي أمامها عمل أخير لهذا اليوم، فقد وعد أمير الظلام حسن بقطع الشجرة العملاقة في حديقة فرحان العجوز، ليُطفئ جمرة الثّأر التي تكوي صدره منذ سنوات طويلة.

بعد أن تغدَّيا في مطعم، استلقيا في غرفة كومار، نام حسن بسرعة ونام أمير الظلام ببطء. حين استيقظا كانت الساعة عند وقت مغيب الشمس.

أحضر أمير الظلام كوبَيْ شاي وبسكويت، واتّصل بفرحان فلم يرُدّ. تبادل مع حسن مقترحات الخطة ليوم الغد. اتفقا على أن تكون الضربة التالية لأشجار رآها حسن تتجسَّس أمام المخفر، على أن يكون وقت العملية في

النهار، ليُقدِّما دليلًا على أنهما لا يهابان الحكومة. اتّصل أمير الظلام بفرحان مرّةً ثانية فوجده مشغولًا بمكالمة أخرى، فركبا السَّيارة وذهبا إلى حديقته. عاود أمير الظلام الاتّصال بفرحان من أمام الحديقة فوجده مغلقًا، راح حسن يحقِنُ المنشار خلف السيارة، وعيناه تقدحان شَرَرًا.

أعاد أمير الظلام الاتصال مرتين من دون أن يلتقط الخط، فخمَّن أنّه يبحث عن ثعبان سام في مكان ما خارج منطقة التغطية. أراد حسن البدء، فنهاه أمير الظلام عن دخول حديقة الجار إلا بعد إذنه. وجَّه حسن إلى أمير الظلام عينيه الغاضبتين فتراءى لأمير الظلام أنّ دخّانًا يخرج منهما. رجاه: «غدًا، أول ما سنفعله هو النيل منها، أعدُك، وسأعطيك علبتي إل ام أحمر».

وقف حسن ينظر إلى الشَّجرة بتردُّد، ثم بصق على الأرض ورجع ليضع المنشار في صندوق.

كان الليل قد حلَّ عندما أنزلا الفسيلتين المُتبقّيَتَيْن. شعر أمير الظلام أنه مُتعَب وبدا له خاطر «حسن صواب» متكدِّرًا. أعطاه وردة الجوري التي أهداه إياها البائع في المشتل يوم أمس. قرَّبها حسن إلى أنفه. ربَت أمير الظلام على كتفه قبل أن يدخل، وشجّعه بصوت أبويٍّ جدير بالتّوقير، بأنه قدَّم اليوم عملًا يدل على استحقاقه صفحة على الأقل في منهج التاريخ للمرحلة المتوسطة، تُوضَع في زاويتها اليسرى صورته وهو يمسك المنشار، وأسفلها صورة وهو يستنشق بوكيه ورد أحمر؛ ليتعلَّم الأبناء منه فضيلة القيام بواجباتهم تجاه البشرية جمعاء.

أبعَدَ حسن الوردة، وقال: «حَسِبتها أنثى، ذكر الجوري يُخرِج رائحة خبيثة في الليل»، ثم رماها أمام الباب بلا اكتراث ومضى.

الإنسان مخلوقٌ يَكْذِبُ

هشّم أمير الظلام المألوف، ونثره فوق الرأي العام.

فقد اضطرب حسابه في تويتر بالرُّدود وإعادة التَّغريد والإعجابات، قبل أن يدخل في عملية استرخاء ما قبل النوم. التصقت أكتاف المُغرِّدين ببعضها وهم يحملون تغريدته، التي صوَّر بها الحديقة المُترَفة، ويهتفون بالتأييد.

قال أمير الظَّلام لنفسه: ما توفيق القدر لهذا الانتصار إلا تشجيعٌ لنواياي المُحِبَّة للسلام.

آزره القدر بأمر لا يحدث إلا بتنسيق مع عدة مُعجزاتٍ صغيرة، تظافرت فيما بينها وأتت متلهِّفة لنُصرته. فالحديقة كانت لرئيس هيئة البيئة، وعَدَّه أمير الظلام توفيقًا غير نمطيٍّ.

التهب هاشتاق #أمير_الظلام في الشاشة، فدخله، وهاله ما رأى. وجد حشود المُغرِّدين تسير وراء تغريدته وتهتف له بالمجد، وتشيد بشجاعته وعبقريّته، عدا بعض التغريدات من بطيئي الاستيعاب. خمَّن أمير الظلام

أنّهم يحتاجون للمزيد من الوقت حتى تعي أذهانهم خطورة الكوناكاربس.

بدأ الحراك المؤيِّد بتعليق لـ«أبو نور» مقتبِسًا تغريدة حساب إخباري يضع صورة للحديقة وهي محاطة بالدَّوريات، وفيها يظهر الحارس أو السّائق مُعلِّقًا: «أخبروني أنَّهم من طرف الشركة التي تتعهّد بتنسيق الحديقة ثم هجما عليَّ وكتّفاني». علق أبو نور: «لماذا لم يسأل الصحفي عن ارتداد حديقة رئيس الهيئة، هل هو قانوني أم تعدٍّ على أملاك الدولة؟ مواطن بطل قصّ الحقّ بنفسه وأنار لنا الطريق #أمير_الظلام».

سخِنَ جسمه، فتجاوب مع تأييد أبو نور: «التوفيق جاء لأنَّ العمل الذي قمتَ به قصدتَ به حبّ الخير للناس، ولم يكن معي أحد غير صديق له عين ثاقبة».

ما أن أرسل الردّ حتى التقطه المُغردّون وهتفوا بالدَّعم لتحرُّكه المُسالِم.

وقَّع على تعليق سخيف من مُغرِّد يرتدي نظّارات ذبابيّة الشكل اسمه جمال: «أين الأمن؟ اليوم يقصّون الحدائق غدًا يقصّون الرؤوس، من لديه شكوى فليذهب إلى المحكمة»، لم يفوِّت المغردون ردّه، ورجموه بتغريدات كثيرة.

وتغريدة أخرى أبهجت أمير الظلام من حساب شخص اسمه ماجد محمد كتب: «عظيم عظيم». ردّ عليه أمير الظلام بسرعة مستجيبًا لوصف العظمة: «المجهود الذي بذلته لا يُستهان به، تخيَّل أن تظلّ تُمسِك المنشار وتدفعه جانبًا، ستسمع صوت طقطقات عمودك الفقري، والشمس كانت حارة، لكن كلّه يهون لأجل بيئة نظيفة وآمنة للأبرياء».

رجع إلى تغريدته الأصلية فوجد المُعجِزة قد أكسبتها تأييدًا غير مألوف، إذ وصلت إلى مائة ريتويت، وسبعمائة إعجاب، وأربعة وثمانين ردًّا، وقد تضاعف عدد متابعيه بشكل مهول، وأخذوا يتفاعلون مع تغريداته السابقة.

استبشر أمير الظلام في نفسه: «القالب يُخدَش بسُرعة مع وجود وسائل التواصل الاجتماعي».

لم يستطِع الاسترخاء، فارَ حماسه ووَدَّ لو استطاع الخروج الآن وقَطْع المزيد من الكوناكاربسات على بثٍ مباشر.

وضع رأسه على الوسادة يتخيَّل عددًا من الناس يرتدون زيًّا موحدًا، يسيرون بين الشوارع وفي أيديهم مناشير صفراء جائعة، يطيحون كوناكاربسة تلو الأخرى ويعيدون الحياة للياسمين. عاد بعد قليل إلى تويتر فرأى هاشتاق أمير الظلام محمولًا على أكتاف الرّدود التي تشيد بجرأته وصدقه في موجةٍ أثارها أبو نور باقتباس الردّ عليه وتعليقه: «هذا المواطن قدوة لنا، لم يُثرثِر بالشكوى من الفساد، بل نزل إلى الشارع وقدَّم ما يمليه عليه ضميره.. والمايك لكم».

دفَعه التفاعل لاستثمار الفرصة ونشر صورة له مع المِنشار ليكتمل شعور حُسْن الظَّن بعملِه، ولا يترك فراغًا لأصحاب النّظّارات الذبابيّة يبثون منه الشك، فلا أكثر صدقًا من إرسال صورته لهم. ارتدى بدلته السوداء، ونزل إلى السيارة وهو يقرأ الجموع يتبادلون في الهاشتاق كلمات تشعل العزيمة. يسير على صورة المكان المُخزَّنة في رأسه، الممرّ ثم الدَّرج ثم الصالة، حيث كانت أمه تُشاهد برنامجًا تلفزيونيًّا عن تفسير الأحلام، سلَّم عليها: «أتمنّى لكِ مساء تجدين فيه العزم على الركض يا أمي»، وتابع قراءة الرّدود، فيما صوت أمه يسأله عن ماذا قال؟ نادى كومار، الذي كان يتابع شجارًا على التلفزيون، ليلتقط له صورة.

لكن عندما فتح صندوق السيارة لم يجد المنشار.

احتار، فهو متأكِّد أنه هنا، لكن.. ربما وضعه مع الفسيلتين في الداخل.

بحث عنه في الحوش فلم يجده. خمَّن: قد أكون نسيته عند حديقة فرحان حين وقفنا قبل قليل.

كان الليل قويًّا لدرجة كثَّفت ضوء أنوار أعمدة الإنارة. ذهب هو وكومار إلى حديقة فرحان العجوز على الأقدام، وكان يتابع نقاشًا حادًا اشتعل بين أبو نور ومغرّد، لم تترك صورته على حسابه مجالًا لحُسن الظَّنّ في نواياه، حول اعتبار ما حدث في حديقة رئيس هيئة البيئة من الأعمال المتحضِّرة أو المتخلِّفة. مال أمير الظلام إلى رأي أبو نور حين ضرب مثالًا للبلاد المتحضِّرة التي قطعت ملايين الرّقاب لتملأ خزينتها، وهذا الرجل لم يقطع سوى أشجار لأمر يرى فيه مصلحة البلاد. كان سيكتُب لها حقيقة الشجرة، لولا أنّه وضع في الحسبان السيطرة التي يحكمها شكل قالبهم العقلي، فالمُهمّ لديه هو النتيجة: أنْ تُزال كوناكاربس بأيِّ شكل من الأشكال.

نبَّهه كومار -لمّا اقتربا من حديقة فرحان- بأنّ هناك مشكلة أمامهما، فلما خرج من شاشة النَّقّال ليحلّ المشكلة وجد دوريّة تنشر أضواءها المتوتّرة أمام حديقة فرحان، الذي كان واقفًا مع شُرَطِيَّيْن ويشير إلى اتجاه المسجد. خمَّن أمير الظلام بسهولة: فرحان أبلَغَ عن وجود مِنشار أمام حديقته، ولمّا اقترب أكثر رأى بوضوح -مُزيحًا عقله من أمامه- أنَّ الشَّجرة الكثة «الكوناكاربس» خاطفة الفتيات.. ليست في مكانها.

نطق: «لقد هربَت».

ركَلَ الأرض وقال حانقًا: «كيف فاتَني هذا؟ كيف تركتُها بعدما رأت عينَيْ حسن تنفثان دخان الثأر».

ببراعةٍ تخيَّل الذي حصل: اقتلعت الكوناكاربس نفسها، وتقدَّمَت حتى حدود الحديقة، ثم التفتت يمينًا ويسارًا لتتأكَّد من ألّا يراها أحد، ثم

أطلقت جذعها للريح.

عضَّ شفتيه، كيف سَيَفِي بوعده لحسن؟ أين سيجدها الآن؟ انطلقت مخيّلته وحدها تُطلِعُه على ما حصل؛ ركضت بكُلِّ سرعتها، تتمايل مع كلّ خطوة إلى الأمام والوراء، بقايا جذورها الطويلة تزحف خلفها وتسحب معها الأوسخ، استغلّت الشوارع لأنَّ الأسفلت لا يمسك الأثر، وربما إستراحت عند أوَّل حديقة، وأكملت ببطء بعد أن تأكَّدت من خلوّ الشارع.

كان فرحان يتحدَّث بإيماءات منفعِلة والشُّرطيّان يستمعان بذهولٍ. خمَّنَ أمير الظلام أنَّه يصف لهم كيف رآها وهي تجري.

«لن يصدّقاك يا فرحان»، همس: «الإنسان مخلوقٌ يكذب، الأخبار التي لا توافق منطقه، والشُّرَطِيّان إنسانان، إذن سيكذبانك».

سيتَّصل بفرحان غدًا ويسمع منه ما جرى، سيشجعه على الحديث، سيقول له: إنَّه على استعداد لتصديق أي شيء يقوله. رجع إلى البيت يفكِّر بماذا ستكون الخطوة القادمة لشجرة حديقة فرحان؟

تابع توسّع حملة التأييد لتغريدته، حتى وصل إلى تغريدة لحساب يضع صور بيضة، طالَبَ المُغرِّدين باللَّحاق به وإزالة أشجار الكوناكاربس. أوشك على البكاء، هذه بادرة نحو النصر. عمل لها ريتويت مع اقتباس، وكتب: «فلنضع أيدينا في أيدي بعضنا ونواجه المخاطر بيد واحدة، ستتولّى المخاطر من أمامنا مثل شجرة كوناكاربس هاربة، أخوكم أمير الظلام».

وضع رأسه على الوسادة، وسرعان ما تخلَّص من جسده في بداية أوّل خطوة من خطوات الاسترخاء، وفكَّر في الكوناكاربسة التي في حديقة فرحان العجوز، لا بدّ أنها ستفعل الشيء الوحيد الذي تتقنه: ستنغرس

أمام بيت ما وتتظاهر بأنّها قديمة في هذا المكان، كما فعلت التي كانت أمام بيتهم، وستُخبر أبناء جنسها أنَّ هناك داهية كُشِف أمرها، هذا مؤكَّد.

لم يستمر في تتبُّع تصوُّره لردود أفعالها، إذ غلبه النوم في النهاية.

***

حين صحا كانت أشجار كوناكاربس تركض في المنطقة التي تفصل الوعي عن النوم.

أوّل شيء فعله هو أنّه فتح تويتر، ليرى إلى أيِّ مدى وصل الهتاف باسمه؟ كان التّأييد يدلّ على أنَّ المعجزة تُسدِّد خطى كلّ ما يحدث. إذ تشادد بعض المغرِّدين بتحت تغريدته حول قدرته العقليّة وجودة التربية التي تلقّاها صغيرًا، تابع المشادّة حتى خمدت إلى أن وصلوا إلى تحليل مباراة، وبعد ذلك انتقلوا إلى قوائم ترشيحات أفضل المُسلسلات الأجنبيّة لهذا العام.

استحمّ، ثم تناول فطوره وهو يقرأ قوائم المسلسلات، عندما خرج إلى العمل كانت المفاجأة في انتظاره، وجد المنشار مُلقىً أمام مُقدِّمة سيارته.

التفت إلى طرفَيْ الشارع الخالي يهزّ ريبته التي تشنّجت من وجود المنشار هنا، وسمح لعقله أن يلهو بالمنطق قليلًا: عينا الإنسان لا تُريان في الظلام، وأنا وكومار إنسانان، إذن لم نرَهُ في الظلام.

وضعه في الصندوق وسار إلى العمل، واعيًا لتجهّم الكوناكاربسات في وجهه. كانت منتفشة وتحاول استغلال هبّات الهواء للميل بصورة شجريّة تجاهه وتخويفه. يعرف أنّها لن تنقضّ عليه الآن، فلن تتخلّى عن صورتها الذهنيّة التي جاهدت منذ سنة 2000 في دمغها داخل رؤوس البشر. رفع صوت الراديو على رجُلٍ يقول كلامًا متفائلًا، وركّز انتباهه على الطريق.

كان موظّفو العلاقات العامة يتلكؤون في المواقف تجاه الباب الرئيس. أرهفَ سمعه لالتقاط أيّ كلمة بخصوص الهتافات على تويتر أمس، أو خبر الأشجار المقطوعة أمام بيت رئيس هيئة البيئة، وتحرَّكت أذنه على هذا المقصد.

ألقى تحيّة غير مألوفة على موظّفي العلاقات العامة وراء الكابينة:

«كيف تسير حياتكم؟ هل أنتم سعداء بها؟».

لم يستطِعْ كبح ضحكته من تبَلْعُمِهِم في الردّ على هذه التحية التي لم يألفوها، اعتادوا على القوالب الجاهزة: «صباح النور»، «بخير»، «أهلًا بك»، «ساعة مباركة».

وصل مكتبه من دون التقاط أيِّ إشارة عن تراشق تغريدات حول رجل يتحلّى بالشجاعة والإقدام وحبّ الآخرين.

أتت نرجس، وألقت: «أنت هنا؟». ردَّ وهو يرتِّب مجموعة فواتير: «نعم، أنا هنا». انتظَرْها تسأله عن الخبر المنتشر منذ الأمس، فلم يبدُ عليها أنّها ستسأل. أخرجت آلتها الحاسبة، وبعد قليل انهمكت في حساب بعض الفواتير. نبَّهَها إلى صلافة الهواء اليوم، متظاهِرًا بأنَّه سيدقِّق حسابات فواتير أخرى، فهزَّت رأسها وهي تنبش رقمًا في الآلة الحاسبة. سألها بعد دقيقتين: هل تستطيع قوّة الهواء قطع الأشجار من حدائق رئيس هيئة البيئة؟ وماذا سيكون تصريح الحارس حينها؟ فمَطَّتْ شفتيها غير مكترِثة.

وقف أمام باب مكتبٍ لطيف، وجَدَه يرتشِف كوب شاي على مكتبه فحيّاه: «أرجو لك صباحًا تنجز فيه أعمالك بيُسر».

«يا مرحبًا»، قال لطيف، وكاد يسكب الشاي على ثوبه من العُجالة بإظهار الفرح.

نكَشَ أمير الظلام بأظفره نتوءًا في صبغ الباب، وسأل: «قل لي يا لطيف، ألم.. ألم يخبرك محمود رجب محمود عن حديث تويتر يوم أمس؟». تمادت ابتسامته في التأدُّب، وهزَّ رأسه: «لم أرَهُ حتّى الآن، ماذا هناك؟».

«هههه، لا شيء»، طالع أظفره وأكمل: «يهتفون باسم رجل قطع أشجار كوناكاربس من حديقة رئيس هيئة البيئة»، أضاف مُخفِضًا صوته: «ابحث في تويتر عن هاشتاق، اسمه أمير الظلام»، وعاد إلى مكتبه.

أنْهى حِساب الفواتير التي عليه، ونزل يُدخِّن، كانت السّاحة الأماميّة خالية، عداه وموظفًا جلس في الزاوية الأخرى تحت مظلّة سيارة، يكلِّم أحدًا من نَقّاله. كانت أشجار الكوناكاربس تبذل جهدًا إضافيًّا لتجعله مخطِئًا في اعتقاده أنّها غير ذلك. خمَّن أنَّ مرحلة جديدة من الصراع ستبدأ، وعليه الحذر من الأماكن المظلمة والخالية لتجنّب الاصطدام معهم. الشيء الوحيد الذي يأمنه منها الآن هو أنَّها لن تستبقه إلى المخفر وتُقدِّم بلاغًا كاذبًا أنَّه تحرش بها أو أنّه هدَّدها بالقتل. ضحك بصوت عالٍ متخيِّلًا كوناكاربسة تدخل المخفر وتُقدِّم بلاغًا، والشُّرطة يهربون من هول ما يرون، ربما يُتلِف المنطق عقولهم ويتسبَّب بجنونهم.

وقرّر: «حتّى لو سمعتُ ألف فتاة تستنجد بي لن أقَعَ في الفخّ الذي وقع فيه حسن صواب».

وحين عاد إلى مكتبه طلب فنجان قهوة، ثم استرخى على كُرسِيّه مستقبِلًا الشباك، يطالع طابور الكوناكاربس الذي يقف على جانبَيْ الشارع الرئيس، وهنا حدث الحدث الغريب.

ما هي إلا لحظة حتى لمح رأسًا يتلصَّص عليه من الشباك.

أطلَّ الرأس مرة أخرى، ثم لمّا رآه اختفى.

جمع جسَدَه من استرخائه واعتدل. وفي جزء من الثانية صار على أتمّ الاستعداد للقفز من فوق سطحَيْ بنايتين. استعدّ ينتظِر خروج الرأس مرة أخرى. نظَرَ إلى نرجس ورجع.. فقَدَ أنفاسه من شدّة الحماس، ولمّا أطلّ الرأس مرة أخرى وثَبَ إلى الشّباك ورآها.

كانت كوناكاربسة، فقال لعقله حينها بأنّه سيخنقه إذا نبس ببنت شفة، كوناكاربسة كهلة، زرعت نفسها هنا خِفْية. جذع مفتول وله فرعان استقويا في السماء بارتفاع طابقين. خمَّن أن جنسها أنثى؛ إذ لديها الشجاعة لتُضحّي بعمرها وتكشف عن نفسها بهذه الطريقة الفجّة، فأنثى الكوناكاربس تتميَّز بالشجاعة كما أخبره حسن صواب.

فزِعَت نرجس تسأل: «ماذا رأيت؟».

سألها: «منذ متى وهذه الشجرة هنا؟».

وقفَت بجانبه وأخذَتْ بعينَيْها جولة في الساحة الخلفيّة، وأكَّدت: «أوّل مرّة أراها.. ربّما لم نلاحظها إلا الآن».

«لا يا آنسة نرجس، أربع عشرة سنة ونحن هنا، وهذه الشَّجرة لم تكُن موجودة». عقدت حاجبيها لتستوعِبَ بعقلها المُنقاد ما قاله، فاتّخذ أمير الظلام في تلك اللّحظة القرار بأنَّ الوقت قد حان ليقول المنشار كلمته، وقال لنرجس بطبقة صوتية واثقة: «هذه الشجرة جاءت لتتجسس عليَّ»، وأضاف قبل أن يذهب إلى صندوق سيارته وعينا نرجس متعلّقتان بعينيه: «مؤكَّدٌ لن تصدقيني، لأنّك لا تريدين الخروج من الصندوق».

ثم ركَضَ إلى سيارته تعتمل في صدره نية سفك الدماء.

الإنسان مخلوقٌ يقلِّد

القدر لا يعرف المصادفات، بل معجزات تتصرَّف بطرق لا يمكن لقالب العقل استيعابها.

استيقظ أمير الظلام من قيلولته عصرًا، كانت أصابع يده اليمنى تُؤلمه، وعلى ظهرها سالت آثار أظافر لطيف. وعندما وقف يغسل وجهه أمام المرآة وجد احمرارًا حول رقبته من أَثَرٍ تَرَكَهُ أحدهم عندما شدّ ياقته بقوة هذا الصباح.

حمل الوجع برضا تام، كما تقتضي سُنّة حياة العظماء، وذهب إلى السرير. فمَنْ يهَبْ نفسه لحماية مستقبل البشرية لا ينبغي أن يتذمَّر من بضعة خدوش ولا حتى من تطاير أطرافه بتأثير قنبلة. اتَّصل بفرحان، وهو مضطجع، ليسأله عمَّا وقع ليلة البارحة في حديقته، ويبتدئ تمهيد الدرب أمام عقله إلى الحقيقة التي تشلّ أطراف المنطق. إذ لا ينبغي أن يوقفه ما حصل اليوم في العمل عن إكمال مسيرته، بل يجب أن يتخذه دافعًا ليحرّكه إلى الأمام.

ردَّ فرحان السّلام بصوت متردِّد، استشف أمير الظلام منه أنّه يريد

إخباره عمَّا حصل، لكنّه يخشى ألّا يصدِّقه. أجَّل أمير الظلام السؤال عمَّا حدث، وسأله: هل فتح تويتر قبل قليل؟ أجابه فرحان وهو مشغول بشيء ما: إنَّه ليس لديه حساب على تويتر، يتفاعل مع التيك توك فقط.

سأله أمير الظَّلام بطريقة عفوية: «بالمناسبة.. أين ذهبت شجرة الكوناكاربس التي في حديقتك؟»، وأضاف قبل أن يعطيه فرصة الإجابة؛ ليُخفِّف عنه ألم خدش القالب: «يقولون الأشجار تهرب هذه الأيام».

توقَّفت أنفاس فرحان ثواني، ثم طلب أن يتَّصل به بعد قليل، لأنَّه الآن يبدِّل إطار سيارته، شحن أمير الظلام صوته بأفضل نبرة دافئة يستطيعها: «اتَّصل بي متى فرغت، ولا تتردّد، سأُصدِّق أيّ شيء تقوله لي مهما كان غريبًا».

أخذ علبة سجائره ونقّاله ونزل يدخِّن أمام الباب، وهناك أشعل سيجارة وفتح تويتر يخفِّف -بالضجيج المكتوب عنه في هاشتاق أمير الظلام- حدّة الأذى الذي لا يزال يعصر نفسه مما حدث اليوم في العمل.

كانت التَّغريدات تتأجَّج وتُحمَد، ذُهِلَ لأنَّ بعض المُغرِّدين نشروا صور قطع الشجرة وحصلوا على تفاعل جيِّد من الآخرين. ردَّ على حساب اسمه حكاية أنثى، يضع صورة مغنية أجنبية شهيرة، كتب في تغريدة: إنَّ قَطْع الشَّجرة فيه تقليد للغرب، فالكوناكاربس هو نفسه الرمز الذي اتخذه محتجّ شهير في أستراليا، ليشعل حِراكًا مناهِضًا للإفراط في استخدام أدوية الحساسيّة، ومات بغُموض بعد سنة من حراكه. ردّ: «لم أزُر الغرب قطّ، أستاذة حكاية أنثى، ولم يصِلْني عن الأسترالي معلومة واحدة، وبخصوص وفاته الغامضة ستُكشَف قريبًا أيدي الكوناكاربس الآثمة في ذلك».

ومغرِّد اسمه هاني كتب: «ألقوا القبْضَ على مَن بدأ بهذا الخراب، هذا مجنون رسمي».

ردَّ عليه أمير الظَّلام بعد تأنٍّ: «اسمك هاني.. لن أقول أكثر من هذا».

وشكر كثيرين على كلماتهم المشجِّعة باستمرار. الناس يحتاجون فقط إلى قدوة يقلّدونه، ضَعْ لهم نجمًا في الكرة سيلعبون كرة، اخلق شهرة لأحدهم في مباراة الرَّكل، ستجدهم يركلون بعضهم في الشوارع، الإنسان مخلوقٌ يقلِّد ما يرى الناس يتجمعون حوله.

شعر بالتَّحسُّن بعد قراءة التَّغريدات المؤيدة، وحتى المعارِضة؛ فوجود مَن يعترض على الإصلاح، هو إحدى الطرق التي يوسِّع بها القدر خُطى التَّصحيح، إلى أنْ وصل إلى واحدة كتبها مغرِّد اسمه سلمان سليمان، صورته في المُعرِّف تعكس صفة التقاعس عن العمل، يقول: «اليوم في العمل أوقفنا معتوهًا قصّ هذه الأشجار، قال: إنّها تحاول أن تأخذ سياراتنا، يبدو أنَّ الموضِع حالة جنون عامة، صفعته وطلبت منه أن يزور طبيبًا نفسيًّا».

مسَحَ أمير الظّلام رقبته، كان سيُكتب له بأنّه سيندم على ما فعله اليوم صباحًا، سيندم بعد أن يرى الحقيقة بعينه، لكنَّه تذكَّر أنَّ التسامح هي الصفة التي لا يكتمل العظماء إلا بها.(*)

---

* الذي حدث في العمل، هو أنَّ الخوف على سلامة الأبرياء، دفعني -بعد أن انتهيت من تقويض الكوناكاربسة الجاسوسة- لحمل منشاري إلى الكوناكاربسات الثّلاث المتنكِّرات على شكل أبراج الماء.

كنت قد أسقطتُ المتجسِّسة بقلبٍ متمرِّس في النيل من الجواسيس، فيما كانت نرجس تنهاني من الشُّباك بكلام لم يكُن ليثير انتباهي لمعرفتي بعقلها السائر مع التيار، وتجاوزي نداءات لطيف من شُباك مكتبه، وهو يسألِ: «لماذا لماذا؟»، وموظّفان فتحا شباك إدارة الموارد البشرية والتصقا أمامه -لّما انهارت الشجرة ووطأتُ صدرها- ليسمعاني وأنا أصرخ: «لو كنتم أشجارًا نافعة لما كان هذا مصيركم».

شعرتُ في تلك الأثناء أنَّ عقلي تخلَّص من القالب، وانطلق في فضاء الأفكار الرَّحب غير

ملتفت على كلِّ ما تعلّمه طوال حياته؛ إذ لم أسمع منه كلمة معارضة لما أفعل. لهذا تشجَّعت وحملت المنشار على عاتقي، وسِرْتُ بخُطى حثيثة إلى الحديقة الأماميّة للمبنى، حيث تتظاهَر الكوناكابريسات الثّلاث -اللاتي قُلِّمْن على شكل الأبراج- بأنّهن نباتات بريئة.

كان عدد من الموظَّفين يتحدَّثون ويدخّنون أمام الباب الرئيس، فتوقَّفوا عن الحديث لمّا اقتحمت السّاحة الأمامية بصورة عاصفة، ونظروا إليَّ بأعين ملأها التعجّب. أجَّجت المنشار بضغط زر الهيجان فثار غضبه.

حين اقتربت من الكوناكاربسات الثلاث حاولت إحداهنّ الهرب، متعلِّقة بأطراف الريح، فصرخت: «يا ويلكم»، ولسعت جذعها بطرف المنشار: «يا سواد ليلكم»، ثم أطلقت لسان المنشار بحركة التفاف مُتقنة على أسفل جذع الثانية، فيما تجمَّدت الثالثة من الرُّعب وشحب لون أوراقها، ولمّا انهارت الثانية بلا مقاومة، عدتُ إلى الأولى وأجهزت عليها فسقطت بسهولة. بعد ذلك وقفت أمام الأخيرة، وهي تكاد تتيبَّس من الرعب، أشعرتها بذلّ الموقف، ثم بضربتَيْن سريعتَيْن انكبَّت على وجهها.

أرهقني التَّعب والغضب، ولم أنتبِه لذهول الموظفين، وحشْد العيون حولي، بما فيها عينا نرجس المتيبِّستان وعينا لطيف الغائرتان، وعينا المدير مِتعب، التي راحت ترمِش بسرعة، وعبد الله وهو يرصد تفاصيل المشهد.

خرج موظَّفو العلاقات العامة، والمحاسبة والتقييم، والشؤون الفنية، تجمّعوا قرب مكان الكونكابريسات الثلاث.

أتتني الأسئلة تِباعًا لمّا أخمدت المنشار، أسئلة حول سبب تخريب هذا العمل الفني. استجبتُ لرهبة الموقف ولوَّحت بالمنشار، ثم قلت والهواء يخفق أطراف ثوبي:

«لن تعرفوا أنَّ هذه الأشجار خدعة وليست أشجارًا.. لأنّكم تحبّون النَّوم والتهرّب من العمل ولعبة البيجي.. لكن أنا هنا.. اليوم أمامكم، بيدي المنشار وفي قلبي الحبّ، حالي حال أيّ عظيم أمام قومه، لأمدّ يدي لكم.. ونتكاتف لننقذ حياة البشرية.. يجب أن نقف صفًّا واحدًا.. حتى لا يأتي اليوم الذي لا نجد فيه مكانًا لنا.. على هذه الأرض.. تخيّلوا.. تخيلوا أنَّ هذه الأشجار تأخُذ مكانكم يومًا ما.. نعم.. اتركوا المنطق الآن.. وفكِّروا خارج الصندوق.. ستركَب سياراتنا كلّ يوم.. وتدخل الوزارة.. وتؤدّي أعمالنا.. وستستلم رواتبنا.. ولن نجد لنا حينها مكانًا إلا تحت الشمس الحارقة.. هل سأل أحدكم لماذا انقرضت الديناصورات، بالرغم من أنّه كان لها منازل ومُدن؟ لا تُصدِّقوا ما كُتب عنها، هل يعقل أن تنقرض لتعطي فرصة للإنسان؟ والمايك لكم».

صمتُّ لأتيح الفرصة للتعليق أو التصفيق، فلم يعلِّق أو يصفِّق أحد. فقلتُ وأنا أتّجه بمنشاري

إلى بقية الكوناكابريسات: «فلنبدأ بالتي هنا، التاريخ سيكتب، أعدكم، هيّا أيها الأبطال».
ركض إليَّ موظف لم أرَه من قبل، له وجه إنسان تافهٍ يظنّ أنه عظيم، حاول أخْذَ المنشار مني بالقوة، ثم شاركه ثلاثة، كان لطيف واحدًا منهم، وقد اكتسى وجهه بتعبير شجرة كوناكاربس تخطف فتاة، وأنشب أظفاره في يدي. صرختُ مُلقِيًا اللائمة على عقولهم المستسلمة لعلّها تحتجّ، ونفوسهم المُذعِنة عساها تتمرّد، وضمائرهم النائمة لربما تصحو. حاولتُ تخليص المنشار منهم إلا أنّ لطيف غرس أظفاره بقوة فأفلتّه.
تدخّلت نرجس، بصرخةٍ مُوبِّخة: «اتركوه، يا عديمي الجدوى، أين قوّتكم هذه عن أداء أعمالكم؟».
أخذ أحدهم منشاري، وجرَّني آخران لم يجدا عملًا لهما ذلك اليوم سوى جرِّي.
فقدتُ فردتَيْ نعلي، خدشت يدي، أُخِذ منشاري، سقطت على الأرض.. فعلوا بي ما لم يفعله الحادث المُميت، وسمعت صوت المدير متنفِّخًا يقول: «لن تمرّ فعلته دون محاسبة».
وفي النهاية صفعَني موظّف باهت عند باب سيارتي: «رُحْ إلى بيتك، خُذ علاجك إذا كنت مريضًا، أو زُرْ طبيبًا نفسيًّا».
احتقنت عيناي بالدموع وأنا أطالعهم.. كلّهم يقفون صفًّا واحدًا ضدّي.
لا يؤلم الإنسان شيء أشدّ من أن يأتيه الأذى ممن يريد لهم الخير. سيُسقط اليأس قلبه ثم تركله قدما الإحباط، حينها لا يوجد كتاب في الدنيا أو مقطع يوتيوب يعلِّمه كيف يمسك نفسه عن البكاء؟ بكيت، إذ لم أجد ما يمنع العظماء من البكاء. وقلتُ لهم عند باب سيارتي: «أنا، أنا أسامحكم كلّكم، أنا أعرف أنّه صعب، صعب عليكم استيعاب كلّ هذا، لكن ستعرفون يومًا، ستعرفون أنّني كنت على حق، والتاريخ سيشهد».
في الطريق إلى البيت، تخيَّلت ما سيحصل لو أنني مِتّ ذلك اليوم في الحادث، ستخلو الساحة للكوناكاربس، ستتمكن، ستفرض نفسها حتى يتشكَّل قالب العقل الجمعي على تقبُّل فكرة أنها تسير وتأكل وتلعب وتُقيم الأعراس، ستقود السيارات، سيكون لديها بطاقة بنك وتدخل السوق، ستأكل أنواع الأسمدة على طاولات مطاعمنا، ستحصل على مفاتيح أبواب بيوتنا، سيضطرّ البشر وقتها إلى الوقف في الطرق، والتَّمايل مع الريح، وتظليل سيارتهم، الحياة ستصير صعبة، ثم يبدؤون بالانتحار الجماعي، وتكتب الأشجار بعد مليون سنة أنَّ الإنسان مخلوق انقرض بسبب الزلازل وتغيُّر المناخ، وأنه كان مجرد حيوان.
رفعتُ صوت الراديو على أغنية راقصة، حتى يقطع الطريق لحنٌ حزين كان يتصاعد بداخلي يهيّئ الوضع المناسب للجلطة.
وقفت على عتبة بابِنا، فتحتُ تويتر قبل أن أدخل البيت، وغرَّدتُ مدفوعًا بالمصير الذي تنبأت

توقَّف يفكِّر بالتَّغريدة الأكثر انتشارًا، التي يقول فيها أبو نور: إنَّ قطْعَ الشجرات رمز للتعبير عن قطع الفساد المتجذِّر في الدولة، ربما كان هذا دافعه لقطع تلك الكوناكاربسات بالذات دون أن يعي، فالإنسان يحسب أنه يقوم بأفعال معيَّنة من غير قصد وهو لا يعرف أنه يقوم بها لا شعوريًّا، بقصد.

وفي أثناء كتابته ردًّا، اتَّصل فرحان، فهجم أمير الظلام على شكل قالب عقله بقوة: «أهلًا فرحان، أولًا عليك أن تعرف أنَّ ما رأيته كان حقيقة وليس خيالًا، أعرف أنّك لم تُصدِّق، وأنَّ الشُّرَطِيَّيْن الذين قلت لهما ما رأيت لم يصدِّقاك».

«عَمَّ تتحدث؟».

ضحك أمير الظلام يلطِّف الجوّ، وقال: «أعرف أنَّك صُعِقت عندما رأيت الشجرة -التي تسقيها منذ سنوات عديدة، واعتدت على رؤيتها طويلة ولها أغصان وأوراق خضراء وجذور في الأرض.. إلخ- تهرب أمامك.. خُذْ نَفَسًا عميقًا الآن».

أخبَرَ صمت فرحان المتوتِّر أنَّ قالب عقله يرتعش، فاختار أمير الظلام نبرة رسمية، وقال: «تعرف موقفي تجاه الكوناكاربس المؤذية وهو موقفك أيضًا، لكن ما لا تعرفه هو أنّها ليست كما تراها، نعم، لها كلّ صفات الشجرة الظاهريّة، لكنَّها ليست كذلك، أحيانًا نرى شخصًا نحسبه أحد أصدقائنا، ولمّا ندقّق فيه أكثر نكتشف أنّه ليس هو، الأمر هُنا يحدث بمستوى أكبر، الكوناكاربسات تستغل هذا الجانب الضعيف من ذاكرتنا، كما تعلم نحن

به خيالاتي:

«فلنتحرك قبل أن تصير الحياة صعبة، المايك لكم».

نعتمد على الصور المُخزَّنة فيها وليس على ما نستنتجه، أنت الآن جارنا فرحان، أعرفك من صوتك ورقمك المُخزّن في نقّالي، لكن إذا اتَّصلت من رقم آخر لن أعرفك إلا إذا قلت إنّك فرحان.. لماذا؟ لأنّني اعتمدتُ على رقم نقّالك أنت، وقد انخدع إذا استغلّ أحد رقم نقّالك، واتّصل بي، وقال إنّه أنت ويريدني أن أُسلِّفه مبلغًا..».

«وحيد، رأسي يؤلمني، ماذا تريد بالضَّبط؟»، قال ذلك بألمٍ من خدش قالب عقله، فدخل أمير الظلام في صلب الموضوع مباشرة:

«أعرف أنّ شجرة الكوناكاربس التي في حديقتك هربت منك، لا عليك، عقلي يسمح لي بأشياء أغرب من ذلك».

سكت فرحان ثواني، ثم ضحك بتعبٍ وقال: «انفجر إطار سيارتي في الطريق، وللتَّوِّ انتهيت من تركيب الآخر، ويتّصل بي جاري السمين ليقول لي إنّ شجرة في حديقتي هربت؟ يا للسعادة».

«فرحان..»، قال أمير الظلام بصرامة: «تلك الليلة.. لمّا طلبتَ منّي أن أجتثّ الكوناكاربسات في حديقتك وأزرع الياسمينات، لم أخبرك أنّ الشجرة التي في حديقتك كادت أن تغدر بي، أمس في الليل هربت وأنت رأيتها لكنَّك لم تصدّق، هل تفهم الآن؟».

«آهِ»، تأوَّه فرحان بعدما بدأ قالب عقله يتخلَّى عن الشكل القديم، وأكمل: «مهلًا مهلًا. فهمت، الآن فهمت، أين أنت الآن؟».

«أدخّن أمام بيتنا».

«أنا قريب، انتظرني.. أريدك».

شجَّعه: «في انتظارك، وسأصدّق أي شيء تقوله».

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم يُنْهِ أمير الظلام سيجارته حتى دخلت سيارة فرحان الشارع، وركنها أمام بيته، ثم نزل وأتى يسير على مهل، يرتدي ثوبًا أبيض عليه مسحات سواد وطبعات أصابعه. حيّاه بطريقة تنمّ عن فَهْمٍ مُغايِرٍ للحياة: «حياة سعيدة، أتمنّاها لك، المحبّة فيها لا تفارق قلبك، وعقلك يلتزم بحدوده».

«تُدخّن بالحرّ، أيّ حياة وأيّ صحة؟»، قال وهو يقترب، فقام أمير الظلام يصافحه.

لم يُمهِلْه قول كلمة، قال: «وحيد، لا بدّ أن أقول لك الحقيقة، لا تزعل منّي».

جلسا. كان وجه فرحان مغتمًّا بالحرج، فقال أمير الظلام يشحذ همّته على الحديث بلا قيود: «سأدعم كلّ ما تقوله بالأدلّة القاطعة».

«أنا مُحرج منك».

ارتجلَ أمير الظلام حكمة ستعيش طويلًا، وقالها بصوت دافئ: «الحرج عدوّ الصداقة»، ثم ابتسم بلُطفٍ وهو يسأله: «كيف كان شعورك لمّا رأيت شجرة تهرب أمامك؟».

مسَحَ فرحان على صلعته، وقال: «وحيد، اسمعني جيِّدًا، لا أعرف من أين أبدأ؟ حسنًا، أتذكّر لمّا تواعدنا نجتثّ الكوناكاربستين من حديقتي، ونزرع بدلًا منها ياسمينَ؟ أتذكّر لمّا اتصلت بي وأخبرتُك أن تقوم بهذا وحدك؟».

نظر أمير الظلام إلى البعيد، وقال بألم: «كيف أنسى ما قالته لي تلك الشجرة؟».

«حسنًا، لمّا أغلقت الخطّ، تسلّقت الشجرة وانتظرتك حتى تجرّ الشجرتين الصغيرتَيْن، لا تزعل منّي وحيد.. وهدّدتُك، كان مقلبًا، لم أتوقّع أنّ الأمور ستصل بك إلى هذا الحدّ، أعتذر منك».

تشنَّج عقل أمير الظلام لثوانٍ، ثم سار بعدها على ما يرام، وقال لنفسه: هذا تغيير غير تكتيكي للحقيقة، إما إشفاقًا عليَّ من هذه المهمة، أو أن عقله لا يزال يرزح تحت ضغط منطقه.

وثَبَت العبقرية الكامنة بداخله ووضع له كمينًا: «أووه، إذًا كنت فوق الشجرة، وهددتني بقطع رأسي؟».

ضحك فرحان بحرجٍ: «نعم، وشاهدتُك تهرب وترفع سروالك».

ضحك أمير الظلام عاليًا: «كذبتُك مكشوفة، أصلًا الشجرة لم تهدّدني بقطع رأسي»، قالت: «يا ويلك يا سواد ليلك»، ههه، العب غيرها».

حلَفَ فرحان برؤوس أبنائه واحدًا واحدًا، بنبرةٍ غير واثقة، ليُبرهن بأنّه نسي ما قاله تلك الليلة: كان ردّ أمير الظلام الضحكَ حتى يهون عليه الأمر، ولمّا كفّ فرحان عن المحاولة هدّأ أمير الظلام من روعه: «فرحان.. أنا أعي وأفهم، وصدِّقْني أنت تحتاج وقتًا لتعي وتفهَم، هل أتصرف أمامك كمجنون؟ سبعة ضرب اثنين يساوي أربعة عشر. هل خَبِرتَ يومًا عليَّ تصرفات غير مسؤولة؟ هل تنكر أنّني كنت الوحيد الذي كان ينهاكم عن تخريب الحدائق ونحن صغار؟ اطمئن، أنا أعرف ماذا أفعل؟ عليك فقط أن تتخيَّل هذه الشجرة تركض، تخيَّلها تندسّ خلف جدار، أبعد منطقك قليلًا وتنكشف لك حقيقتها، ما رأيته أمس حقيقة، لا عليك، فقط ثِق بي وقل لي بأيّ اتجاه رأيتها تهرب ودعني أخمن البقيّة بوضوح».

عقد فرحان حاجبيه مستغرِبًا، ثم توجَّه بجسمه إلى أمير الظلام: «تهرب؟!».

«نعم تهرب، رأيتك أمام الدوريّة تشير إلى الاتجاه الذي هربت منه».

«أنت إذن لا تعلم».

«لا أعلم ماذا؟».

«حسبت أنّك مَن أرسله».

«أرسلت مَن؟».

«الأهبل حسن صواب».

«ماذا فعل حسن صواب؟».

«دخل حديقتي، المجنون، ومعه منشار كهربائي، وقطع به الشجرة. صرختُ عليه من شباك غرفتي العلويّة، فتجاهلني وأكمل قطعها، لما نزلت أريد ضربه، لوَّح بالمنشار فابتعدت، وقال: إن بينه وبينها ثأرًا قديمًا، فاتّصلت بالشرطة، لكن لما وصلوا كان المجنون قد هرب».

بقدر ما فاجأ الخبر أمير الظلام أسعده، فمن طبيعة العقل المتَّسم بالمنطق أن يسيء فهم الأمور الغامضة، أما العقل الذي لا يرى وجود أي حدود وقياسات فلن يسيء الفهم، بل يصنع فهمه الخاص ويعمل عليه. حسن إذًا قوضها قبل أن تستطيع تلك الشجرة إخبار البقيّة، وما المتجسّسة تلك إلا مصادفة أرسلها القدر لأمر سيكتشف حكمته في الأيام القادمة.

دعَكَ أمير الظلام عينَيْه ونزَلَ بيده ماسحًا وجهه: «فرحان، دع كلّ خلفيتك الثقافية وراءك، كلّ خبراتك الحياتية، وكل ما تعلّمته في المدارس، وأعِرْني عقلك صفحة بيضاء، واسمع، اسمع جيّدًا، وركِّز، هل أنت مُركِّز الآن؟ ممتاز. نحن نُولَد بعقل عجينيٍّ، إذا شكلته على مثلث سيرفض الأشكال المُربَّعة والدائريّة والمستطيلة كلّها، سيعدّها غير موجودة لأنّها لا توافق شكله. هذا هو شكل القالب، لن يقبل أيّ قالب جديد إلا إذا كسرته وستأخذ عجينة عقلك شكل قالب جديد، والذي لن يقبل قالبًا آخر حتى

تكسره، وهذه هي عذابات الإنسان، تأتي من عدم فهمه أنَّ لكُلّ إنسان قالبًا مختلفًا عن القالب الذي يحاول أن يعمّمه على الجميع. أنت تحاوِل الآن أن تفرض عليَّ قالبك الذي لا يصدِّق أنَّ الشجرة تمشي وتتكلَّم ويمكنها أن تخطف الفتيات، وأنا أيضًا لا أفرض عليك قالبي الذي لديه القدرة على استيعاب كلّ هذا، أحتاج أن تثق بي، وتصدقني، والمايك لك».

«أنت تمزح!».

«ردّ فعلك طبيعيّ، لأنّني خدشت قالبك».

«وحيد.. أنت لست على ما يرام».

«وهذا أيضًا طبيعي، ستقول إنّني مجنون، اتّخذت احتياطاتي مسبقًا لردود الأفعال، فهذا هو التدرّج التاريخي لتعامل الناس معنا، وبعدها ستقول إنّني مدعوم من جهات خارجية، وبعد أن يشتدّ الخناق وترى تضحياتي وإخلاصي للقضية ستتعاطف معي وتعيد تفكيرك فيها، عندها ستُزال الغشاوة عن عينك، وسأكون محظوظًا ذلك الحين إذا جاءت نهايتي. هل تعرف قصة الإسكندر الأكبر؟».

هزّ فرحان رأسه يمينًا وشمالًا وهو يتّجه إلى بيته، تابعه أمير الظلام، يفكِّر كم من الوقت يحتاج حتى يتغير قالبه؟ طالَعَه فرحان قبل أن يدخل بيته، ابتسم أمير الظلام بحُبّ، وتخيَّل كيف سيبدو وجهه إذا صدق الحقيقة، وشعر بحُزن كلّ الوحيدين في العالم يعتمل في قلبه.

أشعل سيجارة، وكتب في تويتر:

«الصديق الحقيقي هو الذي يبحث عن منشار، إذا قلت له إنّ هناك شجرة تهدّدك».

الإنسان مخلوق يَفْنى

بالرَّغم مما حصل له في العمل، حمَّل أمير الظلام ما فعله الزملاء بالشَّفقة والرَّحمة، مثل أي عظيم خذله قومه. لا يمكنه مطالبتهم بتفهُّم المثلث في ظلِّ الشكل المربع لقالبهم العقلي. وضع حاجزًا رسميًّا بينه وبينهم؛ لا سلام ولا كلام ولا حتى إشارة. يحتاج إلى بعض الوقت لتندمل جروحه.

طلبه المدير في مكتبه في اليوم التالي وسأله، وهو يلعق أطراف شاربه، عن دوافعه لتخريب الأشجار. تعامل أمير الظلام مع اسم المدير كما يجب وأخبره أنّه كان يتسلّى فقط، وقد عضّ أصابع الندم على ما فعله حتى أدماها، وتعهد ألّا يكرِّر ما حصل.

راح يردّ على صمت نرجس غير العادي، في أثناء وجوده معها في المكتب، بصمتٍ أشدّ منه في غير العاديّة، ويسلِّم كشف حساب الفواتير لِلَطيف الذي اختزل أدبه بـ«شكرًا» من دون أن يرفع عينه عن الطاولة، واكتفى أمير الظلام بلمس مكان أظفاره على يده دون أن يردّ. يؤدِّي عمله بنمطيّة لزجة صعَّبته. يخرج يدخِّن، مبتعِدًا قدر المستطاع عن ملاقاة الأعين،

وإيماءات الأيدي حوله؛ لكنّه بالرغم من ذلك شعر بالرِّضا في تأمُّل مكان الشجرات الثلاث خاليًا.

أمضى أسبوعًا كاملًا في ذلك، إذ قرَّر التهدئة المؤقتة، ومتابعة الرصد والبحث عن آخر أخبار المفقودين وجرائم القتل والخطف والسرقة التي قُيِّدت ضد مجهول، للتعرُّف أكثر إلى أسلوب تلك الأشجار في ممارسة الجريمة. تفقد الياسمينات التي زرعها مع حسن، ذهب إلى المَمشى الذي باغتا عنده الكوناكاربس هناك، وجد الياسمينات يستمتعْنَ بحمام شمس العصر، مرّ باللواتي في المنطقة الصناعية، كُنَّ ينعَمْن بجوٍّ دافئ من الأمن، أسعده رؤيتهنّ يتمايَلْن مع الريح بانسجام، لكن ما أسعده أكثر هو ما رآه أمام بيت رئيس هيئة البيئة، إذ أُزيلت الكوناكاربسات التي تركها هو وحسن. اكتشف بعملية تخمين بسيطة أنَّ رئيس هيئة البيئة دخل حسابه في تويتر واقتنَع بأدلّته القاطعة، ثم عضَّ أصابع الندم قليلًا وأتى على ما تبقّى.

في ذلك الأسبوع، حقَّق بالاسترخاء عمقًا قياسيًّا جديدًا، إذ ترك جسده ملقى على السرير لأكثر من خمس ساعات، وحسب أنّه مسترخٍ لخمس دقائق، مُلِئ خلالها نقّاله بمكالمات فائتة من مطعم كان قد طلَبه قبلها. وضع في أثنائها خُططًا كثيرة واختبرها على أرض الخيال، ووجد أنّها تُفصِح عن النقلة النوعيّة لطريقته الجديدة في التفكير الحرّ.

لعب فورت نايت مرَّتَيْن في ذلك الأسبوع؛ في الأولى لم يجد أحدًا من الأصدقاء، وفي الثانية كانوا يلعبون بحماسة مبالَغ فيها. حاول الدّخول معهم في جولة فتعذّروا بوجود دَوْرٍ، فركّز تواجده في تويتر، حيث اتَّقد أنصاره يُرسلون صورًا تؤكِّد أنَّ شكل القالب في المجتمع آخذ في التقدّم. كانت صورًا لأشجار كوناكاربس مقطوعة وأخرى تحترق، والبعض

دَهَس أغصانها بقدَمَيْه إهانة لها، وثمة فِتية قلَّدوا مشاهد شهيرة من القتال في السينما، أكثر ما أعجبه منها هو فيديو لفتى ظهر بصدرٍ عارٍ، أطلق صيحات بروس لي وهو يركل كوناكاربسة منهارة.

وقف مع الشجرة قِلةٌ تعاطفًا معها، وضعوا صورًا للكوناكاربس بزاوية تُظهِر مدى الطيبة التي تحملها الشّجرة، كصورة عصفور سعيد على غصنها، وصورة لها تظلِّل رجلًا مُسِنًا، وفيديو مُغرِض أظهر الشجرة بخلفيّة موسيقيّة حزينة كتب فيه: «لا لتعنيف الأشجار». لم يردّ عليهم، واستمرّ يصدمهم بتعليقات تُخرِج عقولهم عن المألوف لرؤية الأشياء بشكل مختلف: «الاعتياد هو مصدر الجهل»، «تكرار الشيء عدّة مرات يجعله مألوفًا، مثلًا: السماء شيء مستحيل، لكن تكرار نظرنا لها جعلها تصبح شيئًا بديهيًا»، «الروتين يسبِّب الضجر، والضجر يتلف الحياة»، «هل كانت الديناصورات مخلوقات بطيئة الاستيعاب؟».

تفاعَل الجميع مع تغريداته، وعبَّروا عن اندهاشهم من الملاحظات التي يبديها في كلِّ تغريدة، وبدؤوا يطالبونه بوضع صورته الحقيقيّة على مُعرِّفه، وأن يكتب اسمي الحقيقي، ولكنّه كان يعتذِر منهم بجملة واحدة: «الإنسان مخلوق يفنى وأفعاله تبقى».

***

بعد مرور أسبوع، ذهب إلى العمل وهو مشحون بمقاطع فنون القتال، حبس في داخله حركاتها الماكنة، وقفزاتها الواثبة، وضرباتها المؤذِية، جلسَ محافِظًا على اتّزانه في تأدية العمل بصمت أخرج نرجس عن صمتها الذي حافظت عليه طيلة أسبوع، وسألته: «وحيد.. لماذا قطعت الأشجار ذلك اليوم؟».

كان ينوي تجاهلها لكنه قال لنفسه: «أنا لست رجلًا عاديًا حتى آخذ المسألة بشكل شخصي، فالذي في مكاني يجب أن يكون قد بلغ من السمو درجة ترفعه عن معاملة الناس كما يعاملونه». لاطفها بنظرة مسالِمة وبصوتٍ محايد، قال: «أتسألين، وأنتِ كنتِ ضمن الخطة؟».

«لست مقتنعة بأنَّك تقول الحقيقة، تخفي وراءك سرًّا ما».

أرسل لها على الواتساب المقطَع الذي يحطِّم به الدكتور مصلح أغلال المنطق، ووعدها أن يخبرها بكلِّ شيء بعدما تنهيه. طار صراخ الدكتور مصلح من نقّالها في المكتب يلوم ويقرع الحُجّة بالحُجّة، ويخفت حتى يصبح همسًا ملتاعًا ثم ينقضّ بكل سبل الإقناع الصوتيّة، ويسدّد الضربة تلو الأخرى إلى قلب السائد وقالبه.

تذبذبت ملامحها بين مستويات الانبهار وعدم الرضا والانزعاج، ثم عبَّرت عن الدّهشة، فالإعجاب ثم القَرف، وبعد ذلك ثبَّت وجهها على علامات عدم الفهم.

«إذا لم تفهمي فلا أستطيع أن أقول لك الحقيقة، لكن سأعطيك فرصة إلى الغدِ، إذا فهمتِ ما يقوله الدكتور مصلح سأقول لك كلّ الحقيقة».

لم تصبرْ نرجس إلى الغدِ، إذ اتَّصلت بعد غروب الشمس بقليل وهو يسير متمهِّلًا في الممشى، تخبره أنها استوعبت الفكرة التي يريد الدكتور مصلح رشيد توضيحها، وتريده أن يخبرها الحقيقة.

ابتعد أمير الظلام عن سمع المُشاة، وألهمته خبرته في رؤية عمق الأشياء، طريقة الشرح التي خدش بها قالب نرجس: «حسنًا.. أولًا، سأسألكِ سؤالًا أجيبي عنه لو سمحتِ، هل رأيتِ ديناصورًا؟».

«لا».

«هل تؤمنين أنّها موجودة؟».

«نعم موجودة».

«لماذا؟».

«لأن عظامها موجودة».

«أها، تقولين: إن عظام الديناصور دلَّت على وجود ديناصور؟ إذًا لو سمعتِ عنها قبل اكتشاف العظام فلن تُصدِّقي بوجودها على الرغم من حقيقة وجودها، الآن ركِّزي، لو قلتُ لكِ إنَّ شجرة الكوناكاربس ليست شجرة كوناكاربس، وإنها تتحرَّك وتمشي وتخطف الفتيات وتتجسَّس على أعدائها، ستُكذِّبين لأنّه لا دليل على ذلك، لكن هذا لا يمنع كونها حقيقة، هل توافقين على هذا؟».

بعد لحظة صمت، نقل تسارُع أنفاسها إحساسها بخدش القالب، أجابت: «ربما يكون صحيحًا».

«جميل، سأقول لك الحقيقة الآن، وسيقف عقلك أمام تصديقك لها، لأنَّه لم يُبرمَج على تقبُّلها، ستسمعين صوته بنفس نبرتك يقول لك: هذا لا يُعقل. تجاوزيه، إنّه لا يناسب لون بشرتك، أمّا الحقيقة فهي أنَّ الكوناكاربس ليست مجرَّد شجرة، إنَّها تتحرَّك وتخطِف الفتيات، وتتجسَّس على الإنسان، وربما تكون مخلوقات فضائية لديها قدرات متطوِّرة عن الحرباء. يكفي أنَّكِ وصلتِ إلى هنا، تحتاجين يومين إلى ثلاثة حتى تتأقلمي مع مرونة القالب، ربما تشعرين بصداع اليوم وغدًا، ثلاث ساعات ويذهب، وسأُخبرك بعدَها بالحقيقة التي ستُمكّنك من إعادة تشكيله، الآن خذي حبة بندول

وانعمي بالاسترخاء قليلا، مع السلامة».

حين أنهى مكالمة نرجس، رأى رأسًا مندفِعًا إلى الأمام، يصوِّب خطاه السريعة تجاهه، فأسرع الخُطى إليه.

«حسن، أين كنت؟»، قال أمير الظلام: «ألم تقل إنّك لن تغيب؟ أين كنت؟».

تجاوز حسن العتاب: «ليس الآن وقت الإجابة، معك زقارة يالغالي؟».

مدّ إليه علبة السجائر. أخذها حسن ووضعها في جيبه، وقال: «هيا، فلنُسرِع قبل فوات الأوان». وأعطاه ظهره وراح يمشي بخُطى سريعة.

تبعه أمير الظلام يسأله: «ماذا هناك؟».

وضع عينه البيضاء على كتف أمير الظلام، ثم قال وهو يكزّ على أسنانه: «حاوَلوا الغدر بي».

أمسك أمير الظلام قبضته: «من هم عديمو شرف الخصومة هؤلاء؟».

« الكوناكابريسات، حسبنني، لستُ حذِرًا!».

توقّفت ساقا أمير الظلام عن الحركة ثواني، تجادل فيها مع عقله لإصدار حكم على ما يقول حسن، كاد يتعثّر، ثم سأله، وهو يدير ظهره لعقله: «أخبِرْني كيف، ومتى، وأين حدث؟».

راحَ حسن يسير بخُطى سريعة، متَّجِهًا إلى زِقاق ترابيّ مظلم بين صفَّيْ بيوت، وأمير الظلام يحاول جاهدًا محاذاته.

«يوم أمس»، قال حسن وهو حانق: «كنت أريد المجيء هنا، فمررتُ من وراء إحدى الحدائق فسمعت صوت فتاة تقول: «إذا مَرَّ حسن صواب

سأخبره عنكم». أنا لست أبلهَ، عرفت أنّه كمين فرجعتُ إلى البيت، لست من النوع الذي يُخدع بسهولة. لكن قبل قليل، وأنا في طريقي إلى هنا، سمعت صوت فتاة تستنجد بي، أيضًا عرفتُ أنه كمين لكنّني أكملت طريقي، ولمّا تجاوزت الحديقة، التفتُّ وإذا بشجرتَيْ كوناكاربس تُخاتلانني، فأتيتُ إلى هنا بحثًا عنك». توقّف فجأة وقال: «أعطني ولاعة».

أشعل أمير الظَّلام سيجارة حسن وهو يلهث، فيما عقله يحاول تقييد مُخيِّلته بخَلْق حجج واهية لا فائدة منها إلا طمس الحقيقة، مثل أنَّ حسن ليس من النوع الذي يُؤخذ كلامه على محمل الجدّ، وأنّ الكوناكاربس نبات، والنبات لا يتحرَّك، إذًا الكوناكاربس... إلى آخر هذه السخافات التي تلقّاها منذ الصغر من دون أن يبحث في حقيقتها. فأكمل حسن طريقه.

«أين نحن ذاهبان الآن؟»، سأله أمير الظلام.

نفخ حسن الدّخان بقوة وقال: «لا عليك، أنت قِف من بعيد وأنا سآخذ إحداهما على جنبٍ لنتفاهم، ثم سأُعلمها معنى الغدر».

وصلا إلى حدائق مظلمة، تقع في الواجهة الخلفية لمجموعة بيوت، يوجد بها شجر كوناكاربس كثيف وغير متأهب، وقبل منعطف مظلم صرخ حسن فجأة: «لا تهربي يا شجرة الكلب!». وركض مُسرعًا. قال أمير الظلام لعقله: هل ترى؟ الشجرة لا تمشي... هاه. ثم ركض بكل ما يستطيع من قوة.

اختفى حسن لائذًا بالمنعطف. سمعه أمير الظلام يصرخ: «آهِ، يدي يدي يا شجرة الكلب!». حين وصل وجدَه مرتميًا فوق شجرة كوناكاربس يضرب رأسها بحجر. ركَل تجاربه الحياتية وكل ما لقنه المجتمع وقفز فوقها، وراح يكيل لها اللكمات.

استمرّا حتى هشم حسن رأسها وأجهدهما التعب، ثم انطرحا فوقها يلهثان بعد ما تأكدا أنها فارقت الحياة.

بعدما هدأ لهاثهما، جلسا، وأشعل كلّ واحد منهما سيجارة، دخّنا بصمت يفكّران في الخطوة القادمة. تخلّي الشجرة عن تظاهرها يعني أنّها أدركت أن هناك من يسعى بجِدٍّ لكشف المؤامرة التي تحيكها في الظلام. قدّح حسن بالولاعة وكشف عن خدشٍ في رقبته، وقال: «حاولت أنْ تغرس غصنها هنا، تُصدِّق؟ لكنني سبقتها وكسرته».

«ماذا ستكون الخطوة القادمة؟»، سأله أمير الظلام.

أخذت عين «حسن صواب» البيضاء تضيء بنحو غير ملحوظ، وهو يشفط -بصمت متفكّر- دخان السيجارة، لاحَ وجهه لأمير الظلام عبر كتلة الدخان التي نفخها لحظتها، مثل وجه محارب وقف بصدر عارٍ أمام دخان المدافع. وقال: «سألتني قبل قليل أين كنت طوال أسبوع، تحسبني مستلقيًا أتابع فيلمًا، أو أتجوَّل في مُجمَّع تجاري، لا وألف لا، قضيت الأسبوع في حديقة بيتنا أحاول تدريب شجرة صفصاف على مدِّ جذورها حول جذور الكوناكاربس وخنقها حتى الموت، استجابت الصفصافة لكن ببطء». أخرسَ أمير الظلام صوت المنطق منبهِرًا بقدرات العقل إذا تخلّى عن قوالبه؛ فنَقل أرض المعركة إلى مستوى أعمق من السطح؛ هو في حدِّ ذاته إبداع، سواء حالفه النجاح أم لا.

ذهبَتْ عين حسن البيضاء يمينًا لنصف دقيقة، ثم عادت تحمل رؤية لم ينتبه لها أمير الظلام: «كثافة الكوناكاربس مُريبة، فهي منتشِرة في كلِّ الشوارع وأمام الوزارات تحديدًا، وحول بيوت الوزراء».

«ما الذي ترمي إليه؟».

أنارت عين حسن: «ليس لدينا وقت لتدريب الصفصاف، ربما يكون هناك موعد معين للهجوم، وقد اقترب».

تنفَّس أمير الظلام عميقًا، وقال: «إذا كانت هناك ساعة صفر فهذا هو وقتها المناسب، فيما نحن ندور في حلقة واحدة».

نفخ حسن الدّخان ورأى أمير الظلام ضوءًا أبيض يخرج من عينه، وهو يقول: «يجب أن نستعجل».

الإنسان مخلوقٌ يستمتِعُ

كشف أمير الظلام غطاء المؤامرة في جلسة استرخاء مُجهدة استهلكت نصف الليل. قال لعقله كلمة واحدة: «اخرس»، أغمض عينيه وغاصَ إلى قعر ذاته، ليعرف ماذا سيفعل لو أنه شجرة كوناكاربس؟ واستجابت مخيِّلته بكامل طاقتها:

في ليلة ظلماء، ستقوم التي غرست نفسها أمام مخازن السلاح بالقضاء على الحرس وتوزيع الأسلحة على البقيّة، ستركض في الشوارع لتقف في منتصف التقاطعات المُهمّة، الناس سيُلقون اللوم على الحكومة التي انشغلت بالقضايا الخارجية وتركت الشأن الداخلي للعَبَثِ، ستضحك الكوناكاربسات بصوت خبيث وهنّ يتقدَّمن إلى السيارات الواقفة ويفتحْنَ الأبواب، ويُجبِرْن الرّكاب على النزول، ثم يجرين وراءهم ويجلدنهم. ستستولي على الوزارات ومحطات الكهرباء، ومعسكرات الجيش ومخافر الشرطة بسهولة بالغة، إنّها في الداخل والخارج، سيسقط مبنى وزرارة الإعلام بسهولة؛ ففي حديقته الداخلية يوجد أكثر من سبعين

شجرة، كخلية نائمة. ستظهر إحداهن في نشرة أخبار عاجلة وتقرأ بيان نجاح المؤامرة بحفيفٍ مرعب، وستنصح المواطنين بعدم مغادرة منازلهم، وستختِم البيان بجملة: «يا ويلكم يا سواد ليلكم». سيصحو الناس ويجدون أغصانها تخرج من أبراج دباباتنا في الشوارع، وعلى دورياتنا في نقاط التفتيش.

سيثور الشَّعب عليها، ويشكِّل حركة مقاومة، ربما يسمّونها «جبهة أسنان المنشار» ويطلق على كلّ واحد منهم «المنشار فلان». سيكتبون على الجدران «النار للكوناكاربسات»، ويصوّرون مقاطع يحرقون فيها ما يقع في أيديهم من الكوناكاربسات، أو يشذبون أغصانها ويتركونها عبرة لغيرها. تخيَّل أنّه مكتوبٌ على جدار مدرسة: «سنشوي على جذوعكم الكستناء.. المنشار فرحان العجوز». لن تقف الكوناكاربسات مكتوفة الأيدي، ستضع قوائم بأسماء من ينتمون إلى جبهة أسنان المنشار، سترصَّدهم خلف الجدران، وفي الأزقَّة المظلمة، الأماكن التي تُفضِّل الغدر فيها، ستستنجد بهم بأصوات فتيات وأطفال، وتلتقطهم واحدًا بعد الآخر، ثم تسحلهم على الأرض قليلًا، وتضع القيود في أيديهم وتدفعهم بأغصانها الشريرة إلى السجون.

تخيَّل إحداهن تنهر لطيف وقد فغَرَ المنطق فاه استغرابًا من كون هذه الشجرة تتحرَّك وتتكلم: «تحرَّك وإلا شققنا حلقك.. يا ويلك يا سواد ليلك»، فيتحرَّك وفوه مفتوح.

ستُلقي التي حوَّلت مبنى العمل إلى القبض على الموظّفين، سيمثِّل محمود رجب محمود عليهنّ أنه مريض لكسر قلوبهنّ، سيسعُل ويُمسِك قلبه، وستقوم كوناكاربسة بركله في بطنه، ثم ستتجمَّع عليه خمسة كوناكاربسات يجلِدْنه بأغصان مشذَّبة، وتمسِك نرجس خلفه بشعر رأس إحدى إناث

الكوناكاربسات، وتهزّه بقوة، تترك الكوناكاربسات الخمس محمود رجب محمود ويجتمعن على نرجس ويجلِدْنها، أما المدير مِتعِب فسيغلق على نفسه باب مكتبه ويضرب رأسه بالجدار، يقول: «ليتنا صدقنا وحيد».

اجتمع في اليوم التالي مع «حسن صواب»، ووضع أمامه ما جادت به مخيِّلته لمخططهم، وهما يشربان الشاي بالحليب في مطعم هنديّ، فأعمَلَ حسن عينه البيضاء في قشرة المخطط فيما أمير الظلام ينقل له تفاصيل ما تخيله بدقة متناهية، تحمل معها رائحة الجو في ذلك اليوم، وصوت صراخ محمود رجب محمود وسرعان ما بلغ حسن اللّبّ، وقال وعينه البيضاء تضيء: «نباغتهم.. ومن الأفضل أن نباغتهم فجأة».

سمح أمير الظَّلام لعقله أن يتحرَّك في المساحة التي حدَّدها له: التخطيط، وكانت عين حسن البيضاء تتحرَّك من بين خيوط دخان سيجارته»، فخلصا إلى خطة فذّة وخطيرة، لكنهما لم يأبها لمدى خطورتها، لأنَّ التضحية من أجل الآخرين هي بمثابة المُقبّلات على مائدة العظماء.

أرسَلَ أمير الظلام إلى أبو نور تغريدة أذهلته لدرجة أنه لم يستطِع التفاعل معها، كتب:

«سنستبق الحرب، الموت للكوناكاربسات».

كان يستطيع أن يكون مثل بقية الناس، يعيش مثلهم ويذهب إلى المطاعم، يتظاهر بأنه لا يهتم للمؤامرة ويستمتع بما تبقى له من الوقت قبل أن تنفّذها الكوناكاربسات ويسقط عهد الإنسان؛ فالإنسان مخلوق يستمتع.. لكنّ أمير الظلام -بالعظمة التي يستند عليها في كلِّ تصرف- أبى إلا أن يكون عظمة في حلق المؤامرة.

أمضيا ذلك اليوم كلّه في التجهيز للمعركة.

حزم أمير الظلام حقيبتين بملابس تكفيه لمدة شهر، لأنَّ الأمر -كما خمَّن- لن يطول أكثر حتى تقرِّر الأقدار من سينتصر.

وفَّر خمسة شواحن متنقِّلة، حقنها يومًا كاملًا بالكهرباء؛ قدَّر أنّها ستكفي إلى حين. اشترى كاميرا متطوِّرة، واشترط على البائع أن تكون قادرة على إظهار الصوت بكل تدرّجاته مهما كانت قوة الضوضاء حوله، جرَّبها عدَّة مرات حتى تأكَّد أنّها جديرة بالثقة واشترى أيضًا نظّارة ذبابية داكنة للتظاهر بأنه شخص عادي.

استغرب جميع مَن في الإدارة لمّا دخل أمير الظلام مرفوع الرأس، وقدَّم طلب إجازة لمدة شهر تبدأ من الغدِ. سلَّم نرجس ما في دُرْجِه من فواتير، وقالت: إنَّها ستُرسل له رقم شركة سفريّات أسعارها تنافسيّة لتقديم منتجعات على شواطئ شرق آسيا، ابتسم لها بلُطف وقال: «ومن يكون للناس إذا استجممتُ على شواطئ آسيا؟». قالت كلامًا لم يسمعه لأنّه خرج من المكتب ليسلّم لطيف العمل الذي أتمَّه. ربَت لطيف على كتفه وأكَّد أنّه أحسن اختيار الوقت، فهذا الوقت هو الذي تكون فيه الشمس لطيفة. وعندما وقَّع على نموذج الإجازة، قال له المدير وهو يوقِّع على مكان الموافقة فيها: «تُكثِرون من الإجازات وتتركون العمل لغيركم».

لمّا خرج من الباب رأى محمود رجب محمود يسير على مهله، آتيًا من موقف سيارته، تذكَّر أمير الظلام شكله لمّا جلدته الكوناكاربسات في مخيلته بأغصانها، فيما هو يحاول صدَّها بساقيه وهو يبكي، مرَّ بجانبه وقال: «محمود رجب محمود.. لن ينفعك التمثيل بأنّك مريض، الكوناكاربسات لا ترحم حتى لو بكيت».

أخبر أمّه أنّه سيسافر مع زملائه في العمل لحضور مؤتمر بعنوان: «أين تذهب أشعة الشمس في الليل؟». تركت أمه خبر سفره، واستفسرت عن أين تذهب أشعة الشمس في الليل؟ تكتيك لتشتيت الانتباه عن الموضوع الأصلي، تعلَّمه من كتاب «كيف تكون مؤثّرًا؟». قرأ كتاب «فنّ الحرب» للاستزادة من التكتيكات، وكذلك ألقى نظرة على فهرس «عظماء غيّروا التاريخ»، وحين أتت ساعة الصفر، صباح اليوم التالي، وقَفَ أمام السيارة ينتظر حسن وأشعّة الشمس الصفراء النقيّة تسطع على جبينه، قال في نفسه: «أنا الذي أنرتُ في لحظة ما من حياتي، سأُنير حياة الآخرين». ما أن قال هذه العبارة حتى رأى حسن يشقّ بأنفه الطريق، متَّجِهًا إليه مثل ظلّ يريد أن يكون ضوءًا، يرتدي بيجامة النوم الرمادية المُقلَّمة والقبعة الرياضيّة الزرقاء. حيّاه أمير الظلام: «أرجو لك يومًا حافلًا بالانتصارات»، ردَّ عليه حسن: «حرّ، تُصدِّق؟».

فتح صندوق السيارة الخلفي، وأخرجا بندقية مائيّة تعمل بالهواء المضغوط، وترشّ الماء لمدى بعيد، لها شكل الأسلحة المستقبليّة في فيلم حرب النجوم، ملآها بالبنزين مستحضرين كلّ تعديات تلك الشجرة على البيئة وخُططها ومؤامرتها.

ثم انطلقا بحماسة مُكلَّلة بحب الخير للناس.

جلس حسن في المقعد الخلفي وبدآ بالتي أمام مجلس الوزراء؛ إذ بدا لهما أنّها تتقلَّد منصبًا مهمًا في المؤامرة. راح أمير الظلام يتولّى القيادة والتصوير وإلقاء العبارات المشحونة لشحن هِمَم المواطنين، وتولّى حسن مهمة الإحراق.

كانت الأشجار تضطرِم باستسلام غريب، ودخّانها الأسود يغطّي السماء. لم يستغرب أمير الظلام ذلك ولا حسن. لم تقاوم الكوناكاربس ولم تهرب لأنّها حيلة هجومية تَكسَب بها تعاطف الناس وتجعلهم يدافعون

عنها، إلى أن تأتي ساعة الصفر وتجد النصر جالسًا ينتظرها.

كان روّاد الشارع يزعجونها بالمنبّهات، وحين يصوب عليهم حسن عينه البيضاء -النافذة لدواخل النفس- يهربون بسرعة مرتبكة.

أحرقا عددًا كبيرًا من الكوناكاربسات ذلك الصباح، بلا رحمة. كانت العملية فاعلة، وقد وقفت الريح في صفِّهما إذ هبَّت بتركيز يؤجِّج النار. لم تحتَجِ العملية إلى جهد كبير، فقط يخفِّف أمير الظلام السرعة عند الشجرة المراد حرقها، ويرشها «صواب» بالبنزين، ثم يُلقي عليها عود ثقاب ويصرخ: «خذي يا شجرة الكلب!»، فتندلع الأشجار وكأنّها ترقص رقصة الموت الخاصة بها. انتشر دخان الحرائق في تويتر -قبل أن يرسل التسجيل- إذ قام بعض سائقي المركبات بتصويرها ونشروا التسجيلات مع تعليقات، لم يتأكَّدوا من نياتها، ولم يعرفوا أنّه هو، حتى تدخَّل أبو نور واحتفى بكلّ فيديو وصورة بتعليق، واضعًا معرِّف أمير الظلام في تويتر، موجِّهًا به صفعة إلى رئيس مجلس الوزراء.

ولمَّا أرسل أمير الظلام التَّسجيل على حسابه مُذيَّلًا بعبارة «إنّها الحرب إذًا»، تلقَّفَت الحشود العبارات المشحونة التي قالها، وهتَفوا بمجموعة تغريدات تندِّد بتمادي الحكومة في تجاهل مطالب المواطنين، وأن الذي فعله هو تصعيد جديدة لطريقة المعارضة، وعلى الحكومة أن ترضَخَ قبل أن تتوسَّع الدائرة، فحينها لن يكون المايك لهم، ثم صار هاشتاق #أمير_الظلام في الصدارة.

جُسِّد صوت أمير الظلام في التسجيلات الشجاعة التي يستند إليها قلبه:

«نعم نعم، هذا الجزاء تستحقونه»، «فلنحرق الفساد»، «أنتم بدأتم ونحن ننهيكم».

ولم يخرج صوت حسن صواب إلا مرة واحدة بوضوح يقول: «خذي يا شجرة الكلب!»، كان صوتًا غاضبًا لكنه كان مليئًا بالرأفة على مصير العالم.

لم يتركا المعركة حتى أحرقا الأشجار التي أمام المجالس المنتخبة -لتلتفت أنظار الأعضاء إلى وجود هذه الشجرة التي تقف هنا بلا تاريخ- وأرسل التَّسجيل في تويتر معلِّقًا:

«حين مسَّت النار أشجار المجلس عرفت أنَّ التغيير قادم #أمير_الظلام #أسعار_البنزين».

ثم ذهبا إلى مقهى شعبي ليس أمامه أيّ شجرة، كانت الساعة السابعة صباحًا، جلسا وكأنهما في استراحة محاربين، يدخِّن حسن ويشرب قهوة، فيما أمير الظلام يتابع الحشود المؤيدة في تويتر تدهس التيار المعارض.

حتى قبيل أذان الظهر، حيث أدارا رحى المعركة الثانية، أحرقا الكوناكاربسات المنتصِبة بين شوارع منطقة وزير الداخلية. أخذا شارعين فقط لأنّ السيارات ضايقتهما بسدِّ الطريق أمامها وتعليق المنبّهات. مما جعل حسن يفقد اتّزانه ويرشّ أحد السيارات التي اقتربت ويقول: «نضحِّي من أجلكم وتقفون في وجهنا؟»، فأسرع أمير الظلام بالهرب قبل أن يرمي حسن عليها عود ثقاب.

أرسل أمير الظلام في تويتر صورة شجرة مشتعلة معلّقًا:

«تندسّ في منطقة وزير الداخلية، تحسب أنّنا سنخاف منه، لا وألف لا».

ثم ذهبا إلى مطعم، يتغدّيان، وبعد ذلك اتجها إلى مجمع تجاري فسيح. وهناك ارتدى أمير الظلام نظارته الذبابية وأنزل حسن قبعته الزرقاء.

جرَت عين حسن البيضاء وراء الإناث. يتأمَّلهنّ بصمت، وعلامات

الاستحسان على وجهه تشي بفهمه لمكنونات الأجناس البشريّة، قال وهو يشعل سيجارة: «أنثى الإنسان أجمل صنوف الإناث على وجه الأرض، تُصدِّق؟»، هزَّ أمير الظلام رأسه هزة متفهِّمة.

***

حين حلّ الليل، أخذ أمير الظلام حسن وانطلقا إلى النوم في المخبأ الذي اختاره، فمن اليوم يجب أن يَعِيا حجم الخطر الذي يحدق بهما.

كان المخبأ مكانًا لا يمكن أن يخطر على بال أحد، اختاره أمير الظلام وفق المعرفة العميقة التي خصه بها القدر، فالشرطة لن تبحث عنهما بين شجر ياسمين في ساحة مستديرة تحت جسر مزدحم. ركَنَ سيّارته في المنطقة المجاورة وأتيا يسيران بهدوء.

كان الليل رائقًا، وكانت سعادة حسن لا تُوصف وهما يخترقان جدار الياسمين الذي يشكِّل دائرة.

جلس أمير الظلام بجانبه، وقال: «هنا صرت ضوءًا».

قال حسن وهو يرتمي على الحشائش: «رائحة إناث طيِّبات».

ارتمى أمير الظلام بجانبه، وأخذ يتأمل النجوم ويشمّ الهواء المعالِج لنوبات الحساسية، ثم فتح تويتر ليرى ما الذي يدور في البلاد؟

وجد أبو نور قد استبسل ومعه الكثير من الشرفاء في الدفاع عنه بعد أن وصمه أصحاب النظارات الذبابية بالجنون والعبث.

تأمَّل حسن السماء وهو يدخن، فقال بعد أن نفخ الدّخان: «ما أجمل المساء في الليل!».

لم يُعِرْه أمير الظلام اهتمامه، انشغل بتتبُّع التغريدات حوله. جذب حسن نفسًا من السيجارة وقال: «مسرورٌ من لديه أحد يحبه»، تنهَّد ثم أكمل بصوت أعلى: «حاولت كثيرًا، تُصدِّق، طوال عمري، فلم أجد..». غرس السيجارة في الأرض الرطبة. وأضاف: «لم أجد من يستحق حبّي.. تصدق؟».

فقال أمير الظلام الكلمة التي لا قدرة للأيام على نسيانها: «عندما يحبّ الإنسان فإنّه يحب رغمًا عنه، لا يختار من يحبّ.. لكنّ الكره.. إذا كره الإنسان أحدًا فهو يكرهه بإرادته، لأنه يريد أن يكرهه».

أنفذ حسن عينه في كلمة أمير الظلام واستلّ مقولته التي ستُكتب بماء الذهب: «نجوع رغمًا عنَّا، لكن إذا شبعنا فإننا نفعل ذلك بأيدينا، تُصدِّق؟».

مرَّ صمت تأمَّل فيه أمير الظلام عبارة حسن الأخيرة، الجوع هو الأصل في الإنسان، أما الشبع فهو حالة تطرأ عليه، ربما كان الجوع هو أصل الشرور في العالم. بعد انتهائه من شجرة الكوناكاربس سيفكِّر في اختراع يمنع الجوع من نهش جوف المخلوقات، نظر إلى حسن وهو يتأمَّل الليل، وتخيَّل كيف ستبدو الحياة بلا جوع؟ ستُغلق المطاعم، وتنتهي الحروب، ويعم الأمن العالم.

قطع حسن حبل أفكاره: «ألم تجرّب الحبّ؟».

سحب أمير الظلام ورقة من غصن ياسمين كان قريبًا منه، واضطجع على جنبه باتجاه حسن، وقال: «لم أشعر أنَّني بحاجة إلى ذلك، كانت أمي تصرّ على أن أتزوج، لكن كنت أعلم أنني لست جائعًا».

«أنت وحيد إذًا»، قال حسن صواب ذلك بعفوية الكلمات الصادقة.

ابتسم أمير الظلام وهزَّ رأسه مؤمِّنًا: «هذا هو اسمي، تُصدِّق؟».

كانت غفوة رقيقة التي ناماها تلك الليلة، بالرغم من منبهات السيارات ولجلجة بعض العوادم.

صحا حسن أوّلًا وجلس يدخِّن متأمِّلًا جمال الطبيعة حوله. كانت عينه البيضاء تذهب وتأتي على الياسمين الذي يحميهما. لم يتحرَّك أمير الظلام كي يعطيه حسن وقتًا أطول في اختراق قشرة الأشياء، استرخى في مكانه وترك رائحة الياسمين النَّدِيَّة تدلك مخيلته. حتى أشرقت الشمس وبدأ الجسر يزدحم، فجلس وحيّا حسن: «أتمنى لنا صباحًا موفّقًا في إنقاذ البشرية جمعاء».

بدا له أنّ مزاج حسن ليس على ما يرام. فعرف أمير الظلام أن عينه غاصت -في تأمُّله- في عمق شيء ما، واكتشف أمرًا ضيّق صدره.

«لماذا أنت ضائق هكذا يا حسن؟»، سأله وهما يسيران إلى السيارة. انتظر حسن حتى عبرا من فوق الموانع الأسمنتيّة، التي تفصِل مسارَي الشارع السريع، فبَصق على الأرض وأجاب: «أنا جائع». لم يُخبِر حسن أمير الظلام بأنّه -حَدْس ببصيرة عينه البيضاء اللاقطة لذبذبات المستقبل- سيُلقى القبض عليه. كان يريد أن تأخذ الأقدار مسارها الذي رسمته المعجزة بتلقائية.

الإنسان مخلوقٌ ينخدِعُ

حدث هذا لما انتهيا من حرق بعض الكوناكاربسات وذهبا يفْطَران في مطعم يقع في منتصف المنطقة الصناعيّة. كان حسن لا يزال مُعكَّرَ المزاج، يأكل ويمضغ بقوة كأنّه يُفرِّغ غضبًا يُعتم صدره. وحين شبعا ودخّنا سيجارة مع كوب شاي بالحليب، قلب أمير الظلام تويتر وقرأ خبرًا أسعده.. تغريدة من حساب إخباري، فيها تصميم يحتوي على صورة منشار وشجرة مشتعلة، ودورية وخبر: «الشرطة تبحث عن أمير الظلام»، كان التصميم برّاقًا وذا ألوان زرقاء وصفراء زاهية، يدلّ على أنه صعد أحد عتبات سلم المجد.

مدّ الشاشة لحَسَن، الذي لم يكُنْ قد راق بعد، حيث كانت عينه البيضاء مشغولة بتفكيك أمر ما. وتابع البحث.

وجد أمير الظلام أنَّ تغريدات أبو نور ليلة أمس كلّها عنه، أذهلته منها تغريدتان؛ إحداهما تتحدَّث عن حبّه للقراءة والبحث العلمي، والأخرى عن أنَّ غضبه ناجم عن خوفه على ضياع الوطن بسبب الفساد. استمرّ

يقرأ التعليقات حتى أنهى حسن كوبه، وانطلقا يريدان أن يقضيا الوقت في مجمع تجاري حتى الظهيرة، ثم يقومان بعملية جديدة.

وهناك أخذت المؤامرة أولى خطواتها تجاهه.

عندما كان جالسًا في مقهى لامع، أخذ الجميع ينظرون إلى لباس حسن ويتهامسون، مستجيبين لخبراتهم الحياتيّة التي ترى فيه لباسًا للنوم فقط، ويحاولون اكتشاف وجه أمير الظلام من وراء النظارات.

ترك أمير الظلام حسن يتأمل إناث الإنسان، وفتح حسابه في تويتر يتفقَّد الأعداد المتصاعدة من المتابعين، الذين بلغ عددهم سبعة آلاف متابع؛ رقم ليس بالقليل، إذا رأوا جدارته بالاتِّباع سيسيرون وراءه في خطىً ثابتة وبصف واحد، عندها لن تجد أشجار الكوناكاربس بُدًّا من الانهزام والاعتراف بكل ما بدر منها، ثم التوسُّل طلبًا للصفح.

كان هاشتاق أمير الظلام يلتهب بالردود المؤيِّدة والمعارضة. بلغت التَّغريدات التي كُتب فيه 11 ألف تغريدة، تصدّر بها المركز الأول في البلاد. كان هاشتاق تفاعليًّا، بعد قيام بعض المغردين بقطع أشجار كوناكاربس في مناطقهم وإرسالها فيه، مع تعليقات تُبشِّر بوعي مفتوح الآفاق، وكان عدد الصور آخذًا بالازدياد والانتشار بفضل دعم أبو نور. اتَّهمه المعارضون باطلًا بأنّه عابث جعل حرق الأشجار موضة تلقَّفها التافهون وناقصو الأدب، وطالبوا بإلقاء القبض عليه ومحاكمته على نشر الفوضى، لدرجة أنَّ أحد التغريدات ابتدع كاتبها تهمة: «وعلى تنمّره على أشجار لا تستطيع الدفاع عن نفسها».

المؤيِّدة كانت تقول بأن دافعه حبّ الخير، ويجب على المعارضين أن يفهموا أن حرق الأشجار هو فعل رمزيّ للتعبير عن الرفض لتساهل

الحكومة مع الفساد. ابتسم أمير الظلام في سِرّه، وقال: «لا بأس هذه بداية خدش القالب، بعد ذلك سيفهمون أنّها ليست أشجارًا».

وقال لِحَسن: «تخيّل، هناك من يقول إن الكوناكاربس لا تستطيع الدفاع عن نفسها، ههه، الإنسان مخلوق ينخدع بالشكل، فليتهم عرفوا ماذا فعلَت برقبتك؟».

لم يُعِرْه حسن انتباهًا، إذ كان منشغِلًا بالنظر إلى أنثى إنسان جالسة وحدها على طاولة تُصوِّر فنجان قهوة. فحدَّثه أمير الظلام عمَّا في خاطره؛ إن ما فعلاه قد يأخِّر ساعة الصفر لدى تلك النباتات الخبيثة، لا يعلم إلى كم من الوقت، لكن قبل ذلك الحين يجب أن تتهيّأ الجماهير بسرعة، ويلين قالب عقلها الجمعي حتى تتشكّل في أذهانهم الصورة الصحيحة لهذه الشجرة، واقترح أنه عليهما من الآن، مع كلِّ تسجيل يرسله في تويتر، أن يضع جملة تقرع قالبهم، مثل: «هل تعتقدون أنّها شجرة لمجرد أنّ لها شكلًا لُقِنّا أنه للشجرة أم أنّكم اختبرتموها وأجريتم أبحاثًا ثم خرجتم برأيكم الخاص عنها؟ ماذا لو كانت هذه الشجرة ليست كذلك؟ ما الذي يمنع أن تكون شيئًا آخر». فقال حسن وهو لا يزال يتأمل عملية تصوير الفنجان: «أريد فنجان قهوة». طلب أمير الظلام له فنجانًا، وطلب لنفسه شايًا، ثم أعطاه المجال ليُسهم بعينه في اقتناص المزيد من الحقائق، وطرأ عليه في تلك اللحظة أن يكتب للمتابعين تغريدة تُهيِّئهم لما سيأتي، فكتب: «لماذا اسم القهوة مؤنّث والشاي مذّكر؟»، وعندما غرَّد بها، حصلت على تفاعل سريع من خمس حسابات، وفيما كان يقرأ أول رد يقول: إنَّ القهوة فيها كافيين، وإنّ الكافيين مادة تزيد ضربات القلب.. أخرجه برنامج تويتر من حسابه فجأة.

وجد أمير الظلام نفسه على الشاشة الرئيسة بلا مُقدِّمات، حاول الدخول فلم يفتح البرنامج، حاول عشر مرات، طيلة جلوسهما في المقهى، ولكن دون طائل.

خمَّن وهما يخرجان من المجمع التجاري بحسن ظنّ، أنّه خلل في الشبكة أو أن تطبيق تويتر يقوم بأعمال صيانة بسبب الضغط الذي سببه هشتاق أمير الظلام.

لم يكن يتصوَّر أنَّ المؤامرة وُضِعت مسيرته النضالية نصب عينيها.

صمت حسن طوال الطريق، خمَّن أمير الظلام أنَّه يسأل نفسه: أين كان قبل هذه التضحيات؟ بلغ منتصف الخمسينات من عمره ولم يقدِّم عملًا يدعم به الوجود البشري على الأرض، أو يحمي اسمه من تراكم الأيام فوقه. أشعل حسن سيجارة لم يأخذ منها إلا نفسَيْن فقط. وفجأة أنشب عينه البيضاء في شيء ما وعجز عن سحبه. لاحظ أمير الظلام ذلك من انتصاب ظهره والتفاته إلى شيء ما عن جهة الشمال وتوقُّد أنفاسه.

كانا أمام إشارة حمراء، عند مدخل المنطقة الصناعيّة. سأله أمير الظلام وهو يبحث عن الشيء الذي استفزّه: «ماذا هناك؟»، ثم انتبه إلى نمطية السؤال وعدَّله: «ما الشيء الذي أثارك؟». لم يجبه حسن، إذ أخذ رشاش الماء وفتح الباب وقال بغضب: «زهقت من شجرات الكلب». واتّجه إلى مجموعة كوناكاربسات تجمَّعن على الجهة الأخرى بشكل يثير الرّيبة.

كن أكثر من عشرين شجرة ملتمّة يوشوشن لبعضهنّ، ووقفت إحداهن، كانت طويلة، تراقب لهنَّ المكان، مستعينة بهبوب الريح يمنة ويسرة. سار حسن بمشيته المندفعة نفسها، تلك المشية التي رآه أمير الظلام يمشيها وهو صغير، كأنه يشق الطريق بوجهه، غير آبه بالدَّورية التي

تراقب السّير عند الإشارة. وقف أمامهنّ وقال كلامًا لم يسمعه من أمير الظلام شيئًا، ثم رشهنّ بالبنزين، وتفوّه بكلمات غاضبة وهو يطوح يده بقوّة، ثم أخرج الكبريت وأشعل عود ثقاب ورماه، ثم ابتعد قليلًا وانتظر حتى تمكنت النار وتألمت الأشجار، وبعد ذلك عاد بنظرة ثائرة، يمسك البندقية بكلتا يديه، والنار خلفه تلتهم الأشجار، في مشهد سينمائي لجندي هزم جيشًا، وتنفثها دخانًا أسود لفت أنظار الشرطة.

ما هي إلا أربع ثوانٍ حتى اعترضته الدوريّة، فلَوَّحَ لهم بالسلاح، ورماه على مقدِّمة الدورية وهرب إلى مُحوِّل كهرباء بجانبه زقاق ضيِّق. ركض شرطي وراءه والآخر لاحقه بالدوريَّة، وأمسك به قبل أن ينسل في الزّقاق، وتَلَّه أحدهما من ياقته إلى الدَّورية. كان منظرًا مختلطًا، مهيبًا ومحزنًا في آن واحد، قاوم حسن ببسالة ليس لأجل إنقاذ نفسه بل لإنقاذ البشرية على كوكب الأرض، فيما رجال الأمن -الأمن الذي يسعى لتحقيقه- يحولون بينهما وبين ذلك.

وقف البكاء في صدر أمير الظلام، ومنبّهات السيارات التي خلفه تدفعه للحاق بالإشارة الخضراء، وأخذت دمعة حسرة على وقوع أحد الأبطال تموج في عينه، لكنّه بالرغم من ذلك ابتسم، فهو يعرف أنّ مسيرة الأبطال في التاريخ لا تخلو من الآلام، إنهم يواجهون الظُّلم بابتسامة ولا يطلبون من أحد تقييم موقفهم، فبعد سنوات طويلة سيقرأ الأبناء هذه الحادثة ويستلهمون منها الصبر على الشدائد.

نزلَ الشرطي الذي يقود الدَّورية وعاون زميله في إدخال حسن. كان يقاومهما بكُلِّ قوة ويجرّانه بكُلّ قوة إلى الدوريّة. يصرخ بملء صوته ممسِكًا بباب الدوريّة، ويصرخان عليه بملء صوتيهما يدفعانه إلى الداخل، حتى

رفسَهُ أحدهما رفسةً جعلته يفلت الباب ويمسك بطنه، ودفعه الآخر إلى داخلها وأغلقا الباب.

مسح أمير الظلام عينيه من الدموع فرأى حسن بوضوح. كان ينظر إليه من خلف الزجاج، ترسِلُ أشعة عينه البيضاء النقية برسالة اعتذار بأنّه حاول أن يكون معه بكلّ قوته لكنه عجز، وبوصية عدم التخلّي عن واجبه في إنقاذ حياة البشر على الأرض، ثم انطلقت به الدورية واستجاب أمير الظلام لاسمه، وصار وحيدًا يواجه كلّ أشجار المؤامرة بهدوء.

سيظنُّ البعض أنَّ اليأس ثبَّط من عزم روحه المندفعة باتجاه الخير، لا وألف لا، ليس إنسانًا عاديًّا حتى يفعل ذلك. ما قيمةُ حياته إذا ترك إنقاذ العالم وجلس يلعب فورت نايت على أريكته حتى يبلغ عمر حسن الآن؟ عندها سوف يجد الأشجار قد سيطرت على أغلب أجزاء كوكب الأرض، ولن يجد به قوة، مثل التي لديه الآن، على تلقينها درسًا لن تنساه.

راح أمير الظلام وحده يسكب البنزين ببسالة على كوناكاربسات الطرق العامة ويشعلها وهو يصوِّر ويهتف بجمل تبشُرُ قِشرةَ الأشياء.

يقول وهو يسكب:

«التَّعليم هو أول عمليّة تضعنا في قالب واحد».

يرمي عود ثقاب مشتعلًا، ويضيف:

«نستسلم لما نتعلّمه من دون أن نختبر صحته»، تشتعل الشجرة ويُكمل:

«يضعون لنا أسئلة هم مَن يحدِّدون إجاباتها، وعلينا أن نكتب ما حدّدوه بإذعان حتى ننجح».

يذهب إلى شجرة أخرى، يسكب عليها البنزين: «هل النباتات تتحرك؟».

يرمي ثقابًا ملتهبًا: «في المدرسة قالوا لنا إنَّ النباتات لا تتحرّك وحتى نتفوّق علينا أن نكتب هذه الإجابة».

تحترق الشجرة فيقول:

«ماذا لو درَّسونا أنَّ أصل الإنسان نبات، ولن نتفوق إلا إذا كتبنا هذه الإجابة على سؤال: ما أصل الإنسان؟».

يسكب بنزينًا: «العقل ينقسم إلى واعي ولا واعي، ماذا تعلمون عن اللاوعي؟».

يُغرِق أخرى: «الخيال يُنفِّس على العقل اختناقه من ثقل القيود التي وضعها له المنطق، تخيَّل أنك ترى شجرة تمشي».

يشعل شجرة: «الهواء ذرّات والإنسان ذرّات والضوء ذرّات، والمعجزة تنقل من تشاء من مكان إلى آخر».

ينتظر شجرة أخرى تشتعل: «في النهاية كلّنا سنموت، لكن مَنْ قال إنّ الموت هو النهاية؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الإنسان مخلوقٌ يتَّبِعُ

عاد أمير الظلام إلى البيت مُنهَكًا، تفوح منه رائحة بنزين. استحمّ على عجالة وطلب مَطعمًا، فتح اللابتوب على أريكة اللعب، دخل على حسابه في تويتر عبر الموقع. ربما يجد خبرًا عن حسن صواب أو هتافًا جديدًا باسمه، فرفض الموقع إدخاله كما فعل في التطبيق. استلهم الصبر من مقولته: «الحياة تفعل بنا أشياء كثيرة»، وأخذ يُجرِّع موقع توتير اسم حسابه والرقم السِّرّي دون ملل أو كلل حتى وصل الطعام.

لم تغادره صورة حسن وهو يرمقه بعينه المُعبّرة عن سلامة النوايا التي يحملها في صدره لكُلّ الناس. لن يمر حسن صواب على ذاكرة التاريخ مرور الأسماء الشاحبة. عاهد أمير الظلام نفسه أن يذكره عندما يوثق به شهادته على كلّ ما جرى.

دسَّ الوجبة في فمه بلا استمتاع، وهو يزداد إصرارًا على الدخول إلى تويتر. التَّسجيلات التي في جهازه النّقّال جديرة بأن تثير ذهول الساحات السياسيّة، والاجتماعيّة، والرياضيّة والثقافيّة، سوف تتناقلها الألسُن

وسيأخذها العقل اللاواعي للمجاميع بجديّة، لأنّه صمَّم العبارات فيها لهذا الغرض.

تابع محاولات الدخول، واستمرّ تويتر بإغلاق الباب بوجهه.

اضطجع يفكّر ماذا يفعل؟ وانتقل إلى التفكير في حسن صواب، ثم أخذ دورة كاملة على مشهد الحادث والمعجزة، حتى غلبه النوم.

عندما صحا على صوت اشتداد الهواء على شباكه منذِرًا بعجاج. كان النهار فاقعًا بأشعة شمس ليس لديها ما تخفيه، فتح تويتر فلم ينفتح. مكث مضطجعًا يفكّر في حلٍّ، ثم فتح على التسجيلات التي وثّق بها عمليات الحرق، يطمئن أنَّ صوته فيها جدير بالهيبة التي تمتلكها النار. عندها راوده شكّ: ربما رفض تويتر دخولي متعمّدًا. وبلمح البصر قدم له عقله حلًّا بخبرته الطويلة في التعامل مع القشور: افتح حسابًا آخر لتتأكّد. ابتكر أمير الظلام اسمًا لحساب لن يخطر على بال أحد: «العارف»، ووضع فيه صورته وهو يرتدي نظارات ذبابيّة، التقطها له حسن وهما في مجمع تجاري. خدع تويتر بإمكاناته الضخمة وسمح له بالدخول. كتب في محرك البحث أمير الظلام، فوجده. دخل على البروفايل فإذا به مغلق بجملة «هذا المُعرّف مجهول». كانت صدمة عادية، فهو فعلًا مجهول لأنه لم يذكر هويته الحقيقيّة، إلا أنّ الصدمة التي جعلت دمه يترسب في قاع قدميه هي عندما دخل على هاشتاق أمير الظلام، ورأى التغريدة الأكثر تفاعلًا، من حساب إخباري اسمه «خبر طازج»، تسير خلفها جموع من الرّدود تهتف باسم أمير الظلام، فيها صورتان وجملة.. الصورة الأولى لدوريّة، والثانية لرجل مبتسِم يُخيّل لمن يراه أنه وسيم، يرتدي جينزًا أزرقَ وفانيلة سماوية، يسرّح شعرًا مدهونا إلى الوراء، ومقيّدًا باستسلام زاهٍ. أما الجملة فهي: «ألقت دوريات

العاصمة القبض على المدعو سمير م. ك. الشهير بأمير الظلام، وهو يشعل النار بأشجار أمام مدرسة».

تنفَّس أمير الظلام بصعوبة، وترك عقله يقلِّب الخبر بمعرفته، وانتقل هو إلى الخبر الذي في التغريدة التي بعدها. كانت لأبو نور، يقتبس تغريدة خبر طازج معلّقًا: «وحدهم الأبطال يبتسمون عند السقوط»، ذهب إلى التغريدة التي تليها فوجد خبرًا من حساب إخباري رسمي، اسمه «هنا الآن» وضع نفس الصورة للرجل المبتسم: «قال سمير م. ك. الشهير بأمير الظلام بعد إلقاء القبض عليه متلبسًا بحرق الأشجار: حرقتُ الأشجار للفت انتباه الشعب إلى الفساد الذي سكتت عنه الحكومة»، أمسك المُغرِّدون في الرّدود عليها بتلابيب بعض، بين مطالِب بسجنه ومطالب بالإفراج الفوري والإمساك بالفاسدين. ووضع حساب آخر صورة سمير م. ك، وهو يقف أمام سيارة سبورت وخلفه بحيرة أوروبية، وكتب: «رجلٌ نبيل».

ثم صعد دمه إلى رأسه وهو يقرأ التغريدات التالية تحمل صورة سمير م. ك على أكتافها، وتثير خلف اسمه زوبعة من الكلمات التي لم تتحرَّ الصدق في مديحها له تحت هاشتاق #أمير_الظلام حتى دخلت مع هاشتاق آخر #سمير_الأمير.

لا تبرير منطقي أو غير منطقي، هناك بكُلِّ يقين مؤامرة خيوطها كثيرة وخفيّة؛ فهذا المتبسِّم التّافه ليس هو بلا أدني شكّ، ولا يمتلك نصف قدرته حتى يمكنه أن يكون خادم الظلام، لكن الإنسان مخلوق يتبع التّيار.

وجد نفسه وحيدًا في موقف تاريخي لا يُحسد عليه: مهمته ومعجزته ونواياه الطيبة للحفاظ على استمرار حياة البشرية، سُرِقت كلها وهو نائم.

لم يقرأ مرة في التاريخ أن بطلًا حصل معه هذا الأمر. تخيَّل ماذا سيفعل الإسكندر الأكبر لو أنه صحا من النوم ووجد جيشه يتبعون رجلًا يدّعي أنه هو؟ سيقول لهم: مهلًا إنّه ليس أنا، والآخر سيقول: اقبضوا على هذا الذي يدَّعي أنه أنا. حدَّث نفسه: «ربما انتصر ذلك الرجل على الاسكندر الأكبر، وأخذ مجدًا بسعر بخسٍ، وربما عنتر ابن شداد ليس الذي نظنّ أنه هو، هل رأى أحدٌ في زماننا عنتر وهو يقاتل؟ قد يكون الذي كتب سيرته أحالَ له مجدَ رجلٍ غيره.

في تلك اللحظة قرَّر أمير الظلام أن تُكتَب سيرته أمام عينه، كي لا يسرق تضحياته أصحاب الأسماء الساذجة.

تدافعت التَّغريدات في الهاشتاق، تابعها أمير الظلام وهو يمسك جبينه، حتى وقعت عينه على تغريدة لديها تفاعل مُريب، لحساب بدا أنَّ صاحبه سيستسلم بلمحة بصر إذا بدأت مواجهة البشر مع الكوناكاربسات، عليها صورة المدعو سمير وكتب: «وقفته تدل أنّه خريج علوم عسكرية ولا يخاف من أحد».

هنا فلتت أعصابه وتمتم بتلك الجملة التي سيُوليها التاريخ خلودًا خاصًا: «الحمقى ريش يطير مع أدنى هبّة هواء»، وأطلق صرخةً مُغرِّدًا: «سمير من الأسماء الأنانيّة، لا يمكن أن يضحي من أجلكم كما أفعل أنا #أمير_الظلام».

وذهب يردّ على تغريدة أبو نور: «أنا أمير الظلام، حسابي مُعطّل بفعل فاعل، سمير اسم قرسون في مطعم ولا يمكن أن يكون بطلًا حتى يبتسم عندما يسقط، والمايك لك».

دخل هاشتاق #سمير_الأمير، وصرخ بالمغرّدين: «اسمه سمير، أين

نباهتكم، هل سمير يصلح أن يكون أمير الظلام؟! ماذا دهاكم؟».

وضع أحدث تسجيل لحرق الكوناكاربس، ينتقد به طريقة التّعليم، وأرسله لهم: «هذا دليل أنّي أنا أمير الظلام، انتهوا الآن ودعونا نفكّر معًا بما قلته هنا».

داست التغريدات على صرخاته، والتّسجيل الذي أرسله، وانتقاده التعليم، تهدَّر باسم رجل ليس له علاقة بمعجزة. تقلّب بحرقة، وفكّر: الكوناكاربسات الآن في مأمن، لم أتوقع أنّ خلاياهن النباتية بهذا الدهاء، نجحوا في وضعي بمشكلة وخلت لهم الساحة للهو بمصير البشريّة.

كبطل غير متصنّع، تحلّى بالعزم وسرعة البديهة، وقرَّر أنَّ التحسُّر الآن لن يجدي فائدة، فالوقت يمر وتتلبَّد مع مروره على الأشياء قشرة سميكة من الأكاذيب، حتى تبدو على غير حقيقتها. أن يكون العالم محاطًا بالزَّيف فهذا طبيعي لأنه يحتمي بالظواهر، لكن أن نصدّق هذا الزّيف فهذا يعني أننا عُمْيٌ نتّبع فَهْمَ مَن كان قبلنا.

نفّض ذهنه واسترخى يربط خيوط المؤامرة.

تخيّلها بوضوح يعجز عنه كلّ سمير على الأرض:

تربَّصت الكوناكاربسات أمام أحد البنوك، حتى خرجت سيِّدة معها مبلغ، وقبل أن تركب سيارتها خطفت إحدى الكوناكاربسات المبلغ وناولته لأخرى، وقف عقل السيدة حائلًا دون استيعابها أن شجرة سرقتها، فلجأت إلى تبرير الذي حدث بما يقبله شكل قالب عقلها، وقالت إنَّ جِنِّيًّا تمثَّل على هيئة شجرة كوناكاربس واختفى بهالها. أعطت الكوناكاربسات المال لهذا المدّعي، وقالت له: «هو لك شرط أن تدَّعي أنّك أمير الظلام

الذي يُوشك على القضاء علينا، وقل إنّك فعلت هذا لأجل الفساد الذي سكتت عنه الحكومة». أخذ سمير المال وهو يبتسم.

لن تقدر القشرة -التي تغطي الأشياء، أمام القدرة الهائلة التي يمتلكها، ومهما كانت سماكتها- على عرقلته عن بلوغ بواطنها.

فحسم أمره: سأقطع الطريق أوّلًا على سمير، حتى لا أفتح جبهة أخرى تشغلني كما خطَّط الكوناكاربسات، سأكشف عن نفسي، بعد ذلك سأقود المجاميع إلى الوقوف في صف واحد أمام المؤامرة، بقلوب لا يعرف الخوف طريقًا إليها.

الإنسان مخلوقٌ يرغَبُ

ذلك النَّهار، حَلَق أمير الظّلام لحيته بتأنٍّ، وارتدى بدلته الرياضيّة السوداء. وقف يطالع نفسه أمام المرآة؛ جبينه الواسع، عينيه المُصرَّتين، خدَّه المسترخي، أنفه الأشمّ، حنكه العنيد، كلّ إنسان له هذه الأعضاء وفي نفس المكان، بالرغم من هذا لا يشبه أحد الآخر. توقّف عن التوغل في عمق شكله وذهب إلى المخفر.

قرَّر أن يُسلِّم نفسه للشرطة بسلام يعكس الدوافع التي جعلته يقوم بمحاربة هذه الشجرة. ستأتي الكاميرات، كما أخبرته مخيِّلته، وتلتقط له صورًا ستندلع فلاشاتها في تويتر بخبر: «أمير الظلام الحقيقي يسلِّم نفسه، واسمه وحيد هادي، أمّا المدعو سمير فليس إلا أحمق قاده ضعف نفسه -أمام مال مسروق- إلى الكذب». وستكون صورة سمير وهو مطأطئ الرأس تحت صورته في التغريدات نفسها.

ركِب سيّارته وانطلق. راح العجاج يندفع بقوة إلى جهة الجنوب، فيما كانت الأشياء تتشبّث بمكانها. وقف أمام المخفر ثواني، يتذكَّر صفة دخوله

التي تخيلها، ثم ازدرى الموت وتقدَّم. وجد شُرَطِيَّيْن يطالعان التلفاز خلف مكتب الاستقبال، وثالث نائم على طاولة أمامه، فيما رابعهم يلعب لعبة بنقّاله. سأل بصوتٍ يحمل نبرة تثير المهابة: «أين أتّجه إذا أردت مكتب رئيس المخفر؟». أشار أحدهما برأسه، وقد بدا واضحًا أنّ شعور المهابة منعهم من اصطحابه إلى مكتب الرئيس.

باغت أمير الظلام رئيس المخفر وهو يتصفح مجموعة أوراق على مكتبة: «أحييك أيها الضابط وأتمنّى لك صباحًا تُنجِز فيه مهامك بسهولة ونجاح».

كان الضابط كهلًا في أواخر الأربعينات، سوالفه التي تصل إلى منتصف خدّه تنتهي بمسحة شيب لم يتمكَّن الصبغ من إخفائه، يرخي رتبته على كتفيه، وشعر رأسه شحيحًا ومفروقًا بتكلُّف. فَهِم أمير الظلام أنّ ملامح وجهه لم تعبِّر عما تتشاطر شخصيته مع الجبال من ثقل.

انتبه إلى اسم الضابط متأخرًا، كان اسمه «وليد»، كيف يسمحون لحاملي هذه الأسماء الفاترة بتطبيق القوانين؟

رأى أنَّ اللّحظة تحتاج إلى طبقة صوت أغلظ، فغلَّظ صوته:

«والآن.. ألم تعرف صوتي؟».

طلب الضابط إثباته الرسمي، وحين قرأ اسمه سأله عن الأمر الذي جعله يدخل مكتبه بلا استئذان، ويسأله إن كان يعرف صوته. خمَّن أمير الظلام بسرعة الضّوء أنَّ سماعات الأجهزة لا يمكنها نقل صوته بكامل أُبَّهته، لذلك فهو لم يعرفه، فقال:

«حسنًا.. معك أخوك أمير الظلام».

بالرغم من أنّه تخيل كيف سيستقبله رئيس المخفر بالترحيب؟ وسيطلب له فنجان قهوة ثم سينادي الشرطة ليأخذوا معه صورة، حتى أنَّ الصورة التي تخيّلها كان يقف فيها في منتصف صف من الشرطة، وقد جلس أمامه على الأرض بعض الأفراد ممن لم يجدوا لهم مكانًا في مجال العدسة.

لا يعلم لماذا لم يحدث هذا؟ شعر أنَّ الضابط بدأ يتوتّر، فهدّأه: «لا عليك، يستحيل أن أؤذي الأبرياء».

أرجَعَ الضابط ظهره على الكرسي، وقال: «رجُلٌ بعُمرِك يا وحيد يفترض أنّه يعرف آداب دخول المكاتب، إذا كان لديك استفسار فاذهب إلى الشرطة في الاستقبال، وسيساعدونك».

فهِمَ أمير الظلام لحظتها كلّ شيء، هذا الضابط عرفه لكنه تجاهله متعمِّدًا. وليد من الأسماء الحسودة. صعَّدت الإهانة درجة صوته، فقال مغاضِبًا: «اسمع.. جئت هنا لأسلِّم نفسي، هيا ألقِ القبض عليَّ واتصل بالصحافة، وافرح لأنّك ستدخل التاريخ بثمنٍ بخس، الإنسان مخلوق يرغب في ما ليس لديه».

ضغط الضابط على زرٍّ بجانبه وصمت يطالعه أمير الظلام باستغراب، وما هي إلا ثوانٍ حتى دخل شُرَطِيّان، وقال لهما بنبرة آمرة: «انظرا في أمره، يبدو أنه تعاطى شيئًا قبل أن يأتي».

التهبَ، رأى في عينيه غيرة إنسان عاجز لنجاح إنسان مقتدر، إنّه يحاول طمسه. أمسك الشرطي ذراعه، فاعترض أمير الظلام يصرخ: «الموت وقف عاجزًا عن النَّيل مني، فلا تحاولوا أنتم»، فحاول الشرطي جرّه، هنا تحرّكت فنون القتال بداخله، فسحب يده بقوّةٍ أرعبتهم، ثم قفز قفزة النِّسر، وأدى استدارتها الصعبة من دون أن تلمس قدمه الأرض، وركل

الشرطي، فألصقه بالجدار. وقف رئيس المخفر فدفع أمير الظلام الطاولة عليه حتى حشره، قفز الشرطي الآخر فالتقطه أمير الظلام وهو في الهواء بحركة مرِنة، والتفّ به ثم رماه على الجدار فوق الشرطي الأول، عند ذلك رأى بقية الشرطة عند الباب. كانت حركة الكتلة المندفعة خير فكرة قدَّمها له القدر وقتها. فانطلق إليهم كشهابٍ ملتهب، أخذ اثنين منهم معه إلى الجدار المقابل، ولما صار الاصطدام سمع صوت انكسار عظم يصدر من أحدهما. تعلَّق برقبته شرطيّ لم ينتبه له، خنَقه، وفيما كان يحاول تخليص نفسه، ارتمى الآخر -الذي سَلِم من ارتطام الجدار- يعيق قدميه. وقعت عينه على مسدس الشُّرطي، فترك يد الشرطي تواصل خَنْقَه وسحَبَ المُسدَّس، بالتّأكيد لن يستخدمه لقتل أحد، فكَما يعرف الجميع أنّه ينقذ ولا يُؤذي، سيُلوِّح به أمامهم، ثم يسلّمه لهم بعد أن يروا أنه كان قادرًا؛ كدليلٍ قاطع بأنّه أمير الظلام. وما أن أخذ المسدَّس حتى ترك الشرطي رقبته وهرب، وشحب لون رئيس المخفر يرجوه بأنَّ لديه أولاد يريد تربيتهم. وقف أمير الظلام يلهث، ولولا التَّدريبات التي تلقّاها في بانيو الحمام لكان سقط مقطوع النَّفس. أقسم رئيس المخفر برأس أولاده بأنّه سيتركه يذهب بسلام إذا سلَّم المسدس ولن يسجِّل قضية. قال أمير الظلام لاهثًا: «أنا.. قلبي.. طيب.. مليء.. بحُبّ.. الناس..»، وحين مدّ المسدس للضابط عاد الشرطي الذي هرب ومعه بندقية رشّاشة وأطلق النار على السقف وهدَّد: «اِرْمِ السلاح وإلا..».. هنا، علم أمير الظلام أنَّ المعجزة لديها شيء تريد أن تفعله. فاندفع إلى الباب، واصطدم بالشرطي قبل أن يُطلق الرصاصة الأخرى، متخيِّلًا أنّه ذرات ضوء ينتقل، ثم بلمحة بصَرٍ صار يخطو بوميضٍ عالٍ في ممرِّ الخروج أمام باب المخفر، وإذا بالبندقيّة في يده.

الإنسان مخلوقٌ يقِفُ البَشَرُ في وجهه

كانت النَّظارة باردة، تكوَّم أمير الظلام بعزم في زاويتها اليُمنى يقابل حسن صواب، الذي شاءت المعجزة أن يكون في نفس المَخفر. طالع أمير الظلام حسن صواب الذي كان يحاول تسلُّق النافذة المُسيَّجة لينظُر إلى الخارج، فقال أمير الظلام: «ساهم العجاج اليوم في إفساد ساعة الصفر». فنزل حسن صواب وجلس بجانبه، وأكمل أمير الظلام: «لا بدّ أنَّ الكوناكاربسات سيقرِّرْن العودة إلى التّظاهر بأنّهنّ مجرَّد أشجار بريئة، إلى أن تتهيّأ لهنّ ساعة الصفر القادمة».

«أوه، نعم»، قال حسن: «أتوقّع تكون بعد عشر سنوات، النباتات لا تبالي بالوقت، تُصدِّقُ؟».

فكَّر أمير الظلام ثم قال بحَنَق: «ماكرات.. يعتمِدْن على عامل الزَّمن لإضعافي، بعد عشر سنوات سأكون في الخامسة والخمسين، سيكون جسمي قد هرِم».

استدارت عين حسن البيضاء حول النافذة، وبقيَتْ عينه السوداء ثابتة عليها: «الريح، الريح ماهرة في خلع الأشجار، تُصدِّق؟ رأيتها في التلفاز تبعثر غابة، ماذا لو درَّبناها؟ ما رأيك؟ سندرّبها على ذلك».

«كيف ندرِّب الريح؟».

نشَقَ حسن صواب أنفه، وهمس: «سهل، بالتكرار، تُصدِّق؟ لكنَّه يأخذ وقتًا طويلًا، خمس سنوات، لا أعرف، فالرّيح صعبة التَّرويض، لكنّها أسهل من تدريب الشَّجر، الشَّجر يحتاج شجرًا ليُدرِّبه».

هنا لمعَتْ في رأس أمير الظلام الفكرة الأخيرة، ودعَسَ على عقله وهو يجري في مخيّلته خلف الفكرة.

الفصل الأخير(*)

* أكتبُ هذه الكلمات في مقهى مكتظٍّ في مُجمّع تجاري مكتظٍّ هو الآخر، متنكِّرًا بقبّعة ونظارات ذبابيّة، أشاهد مع حسن الناس يأتون ويجلسون، ثم بعد قليل يذهبون، غير مبالين بالغدِ؛ لا يشعرون بأنّ الخطر يخاتلهم، وهو يحكّ أسنانه. مكَثْنا طويلًا ننظر إليهم بصمت؛ أنا بعقلي المنطلق، وحسن بعينه المخترقة. «أنا إنسان يمشي، إذًا أنا غير مبالٍ بالغد». قلت لحسن، ونحن ننظر إليهم، فربَتَ على كتفي، وقال: «أنا إنسان أيضًا. تُصدِّق؟».

سنقوم الآن من المقهى، ونذهب إلى مطعم. نريد أن نأكل آخر وجبة لنا معًا. اخترت مطعم «برجر كنج». سأطلب وجبة «دبل هميورجر». سيطلب حسن مثلي متأثِّرًا بشخصيتي.

تخيَّلت كلّ هذا أكثر من مرة، وكان كلّ شيء فيه على ما يرام.

بعد أن ننتهي سنذهب إلى البيت، لأودّع الأماكن التي حفظتها ذاكرتي كما كنت أراها. بعد ذلك سننطلق إلى البرِّ. حسن يقود السيارة. علّمته القيادة طوال الشهرين الفائتين؛ لأنّ خطّتنا تتطلَّب ذلك، وقد أتقنها.

سأحفر أنا وحسن حفرة. نعم، حفرة بمقاس جسدي. لا يمكن لأحد غيري أنا وحسن رؤية الأمور بوضوح. بحثت طوال الشهرين الفائتين في «اليوتيوب» عن حياة الأشجار، وتنوُّعها، والمشاكل التي تواجه البراعم.

سأحتاج إلى هذه المعلومات في الخطّة التي تخصُّني.

الخطة التي تخصُّ حسن لم أجد عنها أيّ معلومات إلا مقاطع عن الأعاصير، فحسن سيدرّب الرِّيح. أخبرني أنّ لدى عينه كافة الإمكانات لذلك. أما أنا -لا أريد للعقل صوتًا في ما سأقوله- أما أنا فسأصبح شجرًا..

«شجرًا» مذكّر.. وليس شجرةً..

سيدفنُني حسن، وسيسقيني كلّ يوم، حتى أنمو.

هذا الشيء الذي عَجزَت الديناصورات عن إدراكه؛ فلم تحاول أن تصبح بشرًا، وكان الإنسان محظوظًا بذلك.

أعرف أنّ عقل القارئ الآن سيضع يده على فمه من قوّة خدش القالب الذي سبَّبه له ما قلته. إذا تخلّى الإنسان عن الاعتماد على عقله في محاكمة الأشياء فسيكون العالَم سهلًا، ولن تُغلِف الأكاذيب الحقائق بعد ذلك.

فشلَت محاولاتي في إنقاذ البشريَّة بوصفي إنسانًا، سأُجرِّب بوصفي شجرةً. الإنسان مخلوق يقف البشر في وجهه إذا أراد أن يتقدّم، ولا أرى الأشجار تفعل ذلك. الإنسان يُغيِّر الأدلة ليخفي الحقائق، أمّا النباتات فليس لديها ما تُخفيه، وهي تساند بعضها البعض. وأيضًا لديها قدرة عالية على الصبر، وهي اجتماعية. سأُحرّرها من نمطِ معيشتها، وسأجعلها تقف صَفًّا واحدًا في سبيل إنقاذ كوكب الأرض. لأنَّ الخَطَرَ على الجميع وليس على الإنسان فقط.

الحيوانات -على سبيل المثال- ليست وحيدة، تعيش مع بعضها في جماعات متساوِية في الدَّرجة، لا يوجد مدير أو علاقات عامة أو سكرتيرة، وهي أيضًا لا تقف في وجه من يريد مساعدتها، ولم أقابل يومًا حيوانات يضع أحدها الآخر في سجن. ميّزات الحيوانات كثيرة، وهي ليست عند الإنسان.

أما الإنسان.. الإنسان مخلوقٌ وحيدٌ، وحيدٌ دائمًا، مهما كان عددُ من معه. فليجلس في المقاهي، وليذهب إلى العمل، وليقِف في وجه كلّ مَن يريد إنقاذه من الهلاك.

شجَّعني حسن على ذلك، واشترى شجرة ياسمين أنثى من المشتل، اختارها بنفسه بعد أن لعق أوراقها واستطعم نكهة أنثوية قادمة. أخبرني أنّ أُنثى الأشجار تُسانِد الذكور منها حتى في أشدّ الأوقات صعوبة.

جذوري ستصل إلى باطن الأرض؛ تخيّلت ذلك في جلسة استرخاء أطلقت فيها طاقة تخيّلية اخترقت حجب الزمان والمكان بقدرة ضوئيّة أحرجت قدرة المخيّلة في الخروج عن الواقع، ورأيت ما سيحدث، وشممته، ولمسته، وتذوقته أيضا.. تُصدقونَ؟!:

سأنمو.. بعد عدة أسابيع سأصير بُرعمًا.. حسن سيتولّى سقايتي وإمدادي بالسَّماد. بعد شهرين سيكون عودي طريًّا، لكنّني لن أنحني للرّيح؛ لأنّ حسن سيكون قد روّضها حينئذٍ. بعد سنة ستكون أوراقي خضراء وجذعي قادرًا على مواجهة الرِّيح. وبعد خمس سنوات تمامًا، أيّها القراء، ستسمعون

خبرًا عن رجُلٍ عينه بيضاء يسير مع مجموعة أشجار في الشوارع، وينالون من شجر الكوناكاربس، وعلى رأس مجموعة الأشجار شجرةٌ تتقدَّمها ترتدي لباسًا رياضيًا أسود؛ سيكون هذا أنا، أما ذاك الرجل فهو حسن صواب. عقولكم ستُصدِّع حينها، ستكذّبون ما تسمعون، ستقولون: هذا ليس منطقيًّا، ثم بعد أن ترونا ويتأكّد لكم أنّنا حقيقة، سيجد عقلكم الواعي نفسه وحيدًا بعد أن يتخلّى عنه الجزء اللاواعي بسبب عدم وجود هذه الحقيقة في تجاربه وخبراته التي تلقّاها من الغير، أو التي رآها بنفسه، وبعدها ستؤمنون بأنّ المعجزة ذهبت بي إلى أبعد مستوى تُرَى فيه الأشياء على حقيقتها.

المضحّي من أجلكم،
منقذكم، والذي وقف الجميع ضده
أمير الظلام..
والذي كان ضوءًا ذات يوم..

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلمةُ شكرٍ

لم تكُن هذه الرِّواية لتخرُج بهذا الشكل لولا الملاحظات القيِّمة التي قدَّمها الأصدقاء:

عبد الله الهذال، طاهر الزهراني، عبد الله اللذيذ، موضي سلطان العتيبي، طامي السميري، هياتم زايد، عبيد بو ملحة.

عبدالله البصيص

الإنسان مخلوقٌ وحيدٌ

«خرج شاردًا ذلك اليوم يتخيّل مصير الأطفال والناس والبيوت والبلاد؛ فالعظماء يفكرون في غيرهم، قبل أن يفكروا في أنفسهم، وهذا أحد الأمور التي تميّزهم من الناس العاديين. بدأ عزمه يترنّح بسبب الشعور بأنه قام بواجبه تجاه الحياة. كره هذا الشعور الذي يليق بالمديرين، لأنه إذا رأى أنه أدّى ما عليه، وأكمل حياته متظاهرًا بأنّ واجبه انتهى، فسيأتي اليوم الذي يصبح إنقاذ البلاد فيه مهمةً مستحيلة، وسيموت حينذاك بسبب شعوره بأنّه خذل المعجزة».

غلاف: عبد الرحمن الصواف

مكتبة
t.me/soramnqraa

عصير الكتب
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb